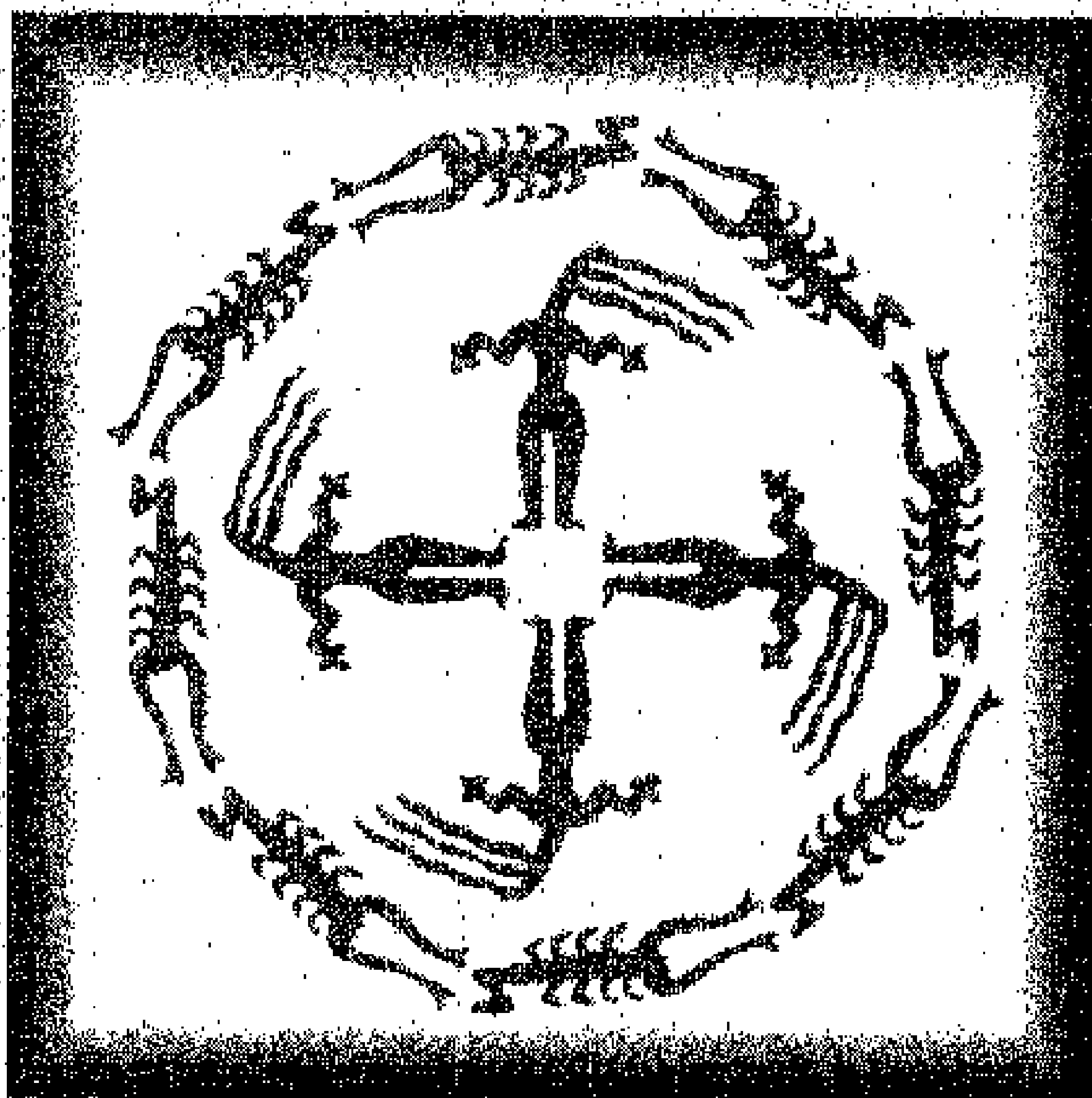
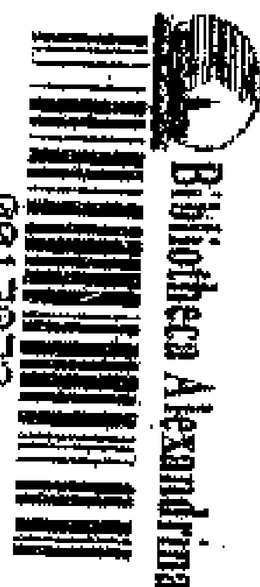
خزعل الماجدي

أديان ومعتقدات

ما قبل التاريخ



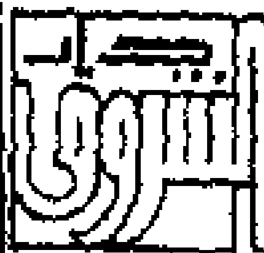


أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ

سلسلة التراث الروحي للانسان (1)

أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ

خزعل الماجدي





1997

■ خزعل الماجدي (أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ)
■ الطبعة العربية:
الاصدار الاول ١٩٩٧



الناشر
■ دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف: ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس: ٦١٠٠٦٥
ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الاردن

التوزيع في فلسطين
■ دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله: المنارة - الشارع الرئيسي هاتف: ٩٩٨٥٩٧٨

الصف والاخراج وتصميم الغلاف
■ الشروق للاعلان والتسويق
هاتف: ٦١٨١٩٠ فاكس: ٦١٠٠٦٥ عمان - الاردن.

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر / عمان: (١٩٩٧/٦/٥٧١)

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٧ / ٦ / ٦٩١)

رقم التصنيف: ٢٠٨

المؤلف ومن هو في حكمه: خزعل الماجدي

عنوان المصنف: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ

الموضوع الرئيسي: ١- الديانات

٢- الاديان - تاريخ

رقم الايداع: (١٩٩٧ / ٦ / ٦٩١)

بيانات النشر: عمان - دار الشروق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

المحتويات

الفصل الخامس :

المقدمة

لم تكن عبارة الشاعر الفرنسي سان جون بيرس الواردة في عمله الشعري الكبير (ضيقة هي المراكب) والتي تقول: (لا تاريخ إلا تاريخ الروح) عبارة عابرة أو جملة في فضاء لغوي متناسل، بل هي من نمط الشطحات الصوفية التي تختزل في أعماقها برقاً معرفياً صاعقاً.

وحقيقة الأمر أن (تاريخ الروح) هو تاريخ العقل، والفكر، والفلسفة، والدين والفن، و الشعر، إنه كما يقول هيغل: آخر مرحلة من مراحل تجليات الروح المطلق والتي تضم في أقنومها الجدلي (الفن، الدين، الفلسفة).

وإذا كنتُ قد فُتنتُ منذ زمن بعيد في تتبع نقلات الروح الإنساني من مناطقها البعيدة إلى عصرنا الحاضر، وإذا كان الشعر السبيل الأشد حميمية، آنذاك، للتعبير عن (تاريخ الروح)، فإنني أشعر انني قد اكتسبت ،وأنا أحرث ذلك الطريق تاملاً واطلاعاً وكتابة وبحثا، دربة في إمكانية كتابة ذلك التاريخ

وفرز مراحله وفك شبكته، بل ووجدت الإمكانية لتيسير ذلك لقارئ نشط وذكي وباحث ودؤوب.

لقد اخترت الدين محطة أولى في مثل هذا المشروع الكبير لأسباب عديدة أهمها أن الدين هو الشكل الأكبر الذي تضمن تاريخ الروح، وإنه قد مورس من قبل كل الناس، خاصتها وعامتها، ولقد تساقطت في خزائنه أعظم وأثمن جواهر الروح الإنساني وبغزارة لم تصل إلى مستواها الفنون أو الشعر أو الفكر منفصلة أو متصلة.

إن تاريخ الأديان والعقائد والمذاهب الروحية التي تبناها الإنسان أمرٌ ليس بالهين أو البسيط ولكننا آثرنا الدخول إلى غابته الشائكة ومحاولة تتبع الخيط السري الذي يربط صفحاته ببعضها، ولا شك أن أول خطوة في هذا المشروع ستكون مخصصة لأديان وعقائد وعبادات ما قبل التاريخ. تلك الفترة الممتدة منذ نصف مليون سنة وإلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وهي كما نرى فترة استغرقت أكثر من ٩٩٪ من حياة الإنسان الواعية، ولا تبدو الخمسة آلاف سنة التي تلتها إلا وهلة صغيرة، لكن هذه الوهلة محشدة وغزيرة ومليئة بالعقائد رغم أن جذورها وينابيعها تكمن في أديان ما قبل التاريخ، وسيحاول هذا الكتاب توضيح هذه الحقيقة وتبسيطها.

لقد تناول هذا الكتاب عقائد وأديان العصور الحجرية بكافة مراحلها (السحيقة، القديمة، الوسيطة، الحديثة، المعدنية) وهو إذ يحاول تتبع ذلك الخيط الذي يربطها فإنه إنما يمهد بذلك لإضاءة الشبكة الروحية التي ستبدأ مع بدء العصور التاريخية بأديان سومر، ومصر أولاً ثم أديان الشرق الأدنى، والأقصى، وصولاً إلى اليونان والرومان وأديان أمريكا القديمة ثم الديانات الشمولية (اليهودية،والمسيحية والإسلام) والأديان البدائية المعاصرة.

هذا الكتاب محاولة في استنطاق الآثار المادية والفنية لإنسان ما قبل التاريخ باتجاه تأويلها الديني وسيعنى أكثر من غيره بالتحليل والاستنتاج بحكم المادة التي

بين يديه ، فهي مادة آثارية تشكيلية ونحتية ولكنها صماء كتابياً رغم شحنتها العالية بتوتر روحي وديني.

لقد وجدنا أن أغلب الكتب الميسرة في هذا الحقل تنحو منحيين تقليديين، إما المرور العابر والسريع والمبتسر على هذه الفترة الخطيرة في حيان الإنسان على هذا الكوكب، أو التخصص الضيق الذي ينشغل بمباحث إركيولوجية محدودة الأفق ولا تعتني بالابعاد الروحية والدينية إلا لماماً.

هذا الكتاب سيلقي ضوءاً بانوراميا على كل ما حصل روحياً ودينياً للإنسان منذ انتصابه وخروجه من الغابة وحتى اختراعه للكتابة، وسنمشي برفق ولين في تتبع الأثر الديني والروحي لذلك الإنسان التائه الغريب وسط احراش هذا الكوكب ووسط ظلام هذا الكون، ورغم أن ضوء الشمعة الحي في صدره كان في بدايته ضعيفاً ضعف النار التي نراها منذ نصف مليون سنة (حين اكتشفها) إلا أن شعلة هذا الضوء كانت تتقد كلما اقترب الإنسان من العصور التاريخية حتى أضاءت الأرض بأكملها بهذا النور.

خزعل الماجدي

(دكتوراه تاريخ قديم/ التراث الفكري والعلمي)

شباط ١٩٩٧.

الفصل الأول

(مقدمة تاريخية)
الأزمان والعصور
الجيولوجية والبايولوجية والجليدية والحجرية

القسم الأول

الأزمان الجيولوجية والأزمان البايولوجية

درج العلماء على تقسيم تاريخ الأرض والحياة إلى أزمان كبرى تنقسم إلى عصور طويلة تصل إلى عشرات الملايين من السنوات، ولكي نبسط هذه الأزمان نقول بصورة عامة إنها تنقسم إلى خمسة أزمان جيولوجية وبايولوجية في نفس الوقت وهي .

١- الزمن ما قبل الكمبري (زمن الحياة الابتدائية)

Precambric Age (Primaty Age)

كانت الأرض منذ أربعة بلايين سنة ونصف، تتكون من صخور منصهرة أخذت تبرد كلما تقدم الوقت فتكونت القشرة الأرضية والجو ثم المحيطات وبدأت الحياة تظهر في المياه، وكانت الخلايا الأولى للحياة كتلة مجهرية هلامية شفافة نتج عنها ثلاث ممالك بايولوجية كبرى هي المملكة النباتية، والمملكة الحيوانية، ومملكة الأحياء المجهرية، وبدأت أنواع كل مملكة بالنشوء والتطور فظهرت الطحالب، والاشنات، والبكتريا، والاعشاب البحرية، والديدان المفلطحة، والكائنات القشرية الأولى.

٢- الزمن الباليوزوي (زمن الحياة القديمة)

Paleozoic age

استمر هذا الزمن حوالي ٣٠٠ مليون سنة وغلب على جوه الاعتدال وكانت البحار داخل القارات متسعة وضحلة وقد انقسم جيولوجيا تبعاً لتكون الجبال إلى ستة عصور وبايولوجياً تبعاً لظهور الافقريات والاسماك والبرمائيات على التوالي حيث ينقسم بايولوجيا إلى ثلاثة عصور.

١- **زمن اللافقريات** : في هذا الزمن الذي يحتوي عصرين جيولوجيين ظهرت الحيوانات اللافقرية وظهرت النباتات اللازهرية.

أ- العصر الكامبيري (Cambrian): وأهم ميزاته ظهور الأجزاء الصلبة مثل القشور على أجساد الحيوانات الأولى وظهور القواقع والصفائح والأرض قاحلة ما عدا غشاء أخضر اللون من الطحالب المائية عند أمواج البحر وملتصقة على صخور الشواطئ.

ب- العصر الأردوفيشي (Ordovician): كان مناخ الأرض معتدلاً وطغي الماء على معظم اليابسة وتكاثرت الحيوانات اللافقرية في المياه الدافئة وكثرت الأحياء المفصلية والمحارية، وذات القواقع وظهرت النباتات اللازهرية .

٢- **زمن الأسماك** : حيث شهدت الأرض ظهور جميع رتب الأسماك وتطورها إلى الأسماك الفقرية وبدء زحفها نحو السواحل وتطورها باتجاه البرمائيات.

أ- العصر السيلوري (Silurian) وهو العصر الذي ظهرت فيه الأسماك عديمة الفك وظهرت فيه أيضاً لافقريات متقدمة في تركيبها.

ب- العصر الديفوني (Devonian) وهو العصر الذي ظهرت فيه جميع رتب الأسماك ثم تبعتها العقارب والعناكب والحشرات الأولى والأسماك الفضية والزعانف وظهور البرمائيات الأولى. أما النباتات فبدأت تنتقل إلى المستنقعات.

٣- زمن البرمائيات : حيث شهدت الأرض ازدهار البرمائيات وظهور الاشجار الصنوبرية وارتفاع الجبال وظهور الصحارى، والمناخ المتنوع .

أ- **العصر الفحمي** (Carbonian): حيث تكونت طبقات سميكة من الفحم الحجري في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وازدهرت وتنوعت البرمائيات وظهرت النباتات السرخسية، وكان المناخ دافئاً وفي نهاية هذا العصر أصبح حاراً.

ب- العصر البيرمي (Permian) : بدأت الجبال بالظهور وتراجعت المياه الداخلية وجفت المستنقعات وحلت الاشجار الصنوبرية محل الاشجار السرخسية الرخوة وقل شأن البرمائيات وتكيف بعضها مع الظروف الجديدة وتحول إلى زواحف وتعودت أناثها على وضع البيوض في اليابسة.

٣- الزمن الميزوزوي (زمن الحياة المتوسطة)

Mesozoic Age

يعتبر هذا الزمن زمن الزواحف بامتياز فقد كانت الأرض في هذا الزمن مرتفعة نسبياً واتسعت البحار الداخلية تدريجياً وسببت طوفاناً هائلاً وحصلت اندفاعات صخور نارية والتوت الرواسب في الأحواض المقعرة وارتفعت تلك الالتواءات واستغرق هذا الزمن (١٣٠) مليون سنة، وانقسم إلى ثلاثة عصور جيولوجية:

أ- العصر الترياسي أو الثلاثي (Triassic): وهو العصر الذي سادت فيه الزواحف وبدأت الثدييات بالظهور وكانت الصنوبريات والخنشاريات والسرخسيات هي السائدة.

ب- العصر الجوراسي (Jurassic) : حيث اصبح الطقس معتدلاً وظهرت بوضوح الثدييات الأولى البدائية وكذلك الطيور الأولى... وظهرت في هذا العصر أنواع كثيرة من الديناصورات كالاكتيوصور والبرونتموصور والخفاش الديناصوري تروداكتيل والطيور ذوات الأسنان التي تسمى اكيتورنس.

ج- العصر الكرتياسي أو الطباشيري (Cretaceouse) : حيث ظهرت الغابات ذات الأخشاب الصلبة والنباتات الزهرية واستمرار سيادة الزواحف متناهية التخصص، وظهور أول الثدييات الكيسية وأول الثدييات الحقيقية (ذوات الرحم).و في نهاية هذا العصر حدثت حركات أرضية عنيفة فالتوى سطح الأرض، وبظهور النباتات المزهرة وتدهور النباتات السرخسية الرخوة قل غذاء الدناصير النباتية ثم الحيوانية الطعام وبدأت بالاندثار.

٤- الزمن السينوزوي (زمن الحياة الثالث)

Cenozoic Age (Tertiary)

هذا الزمن هو زمن الثدييات بامتياز فقد ظهرت فصائلها الجديدة التي حلت محل فصائلها البدائية القديمة ومحل الزواحف المنقرضة، وتميز مناخ هذا الزمن بانخفاض مستمر في درجات الحرارة، واستمر تكون الجبال وظهرت السهول ذات الحشائش الخضراء وفي نهاية هذا العصر ظهرت القردة القريبة الشبه من الإنسان، واستمر هذا الزمن مدة (٦٥) مليون سنة، وينقسم إلى خمسة عصور جيولوجية.

أ- عصر الباليوسين (Paleocene): وفيه ظهرت أول الحيوانات الرئيسية وأول الحيوانات القارضة.

ب- عصر الايوسين (Eocene): حيث ظهرت الثدييات الحديثة مثل الليمور والتارسيار ثم ظهرت الثدييات الحافرية الأولى من ذوات الظلف المزدوج وغير المزدوج ومن آكلات اللحوم الراقية.

ج- عصر الاوليجوسين (Oligocene) : حيث ظهرت الفصائل الثديية الحديثة وحلت محل الفصائل القديمة المندثرة ومن ضمنها الحيوانات الشبيهة بالإنسان الأول كالقرود والنسانيس.

د- عصر الميوسين (Miocene): تطورت القرود وظهرت القرود الشبيهة من الإنسان فعلاً مثل (الدرايوبثكس).

هـ- عصر البليوسين (Pliocene) : ظهرت مناطق متناقضة في درجات الحرارة وأصبح سطح الكرة الأرضية أقرب إلى ما هو عليه في الوقت الحاضر لأن أفريقيا برزت كلها فوق سطح الأرض، وانفكت أستراليا عن آسيا وحدث ذلك قبل ان تظهر الحيوانات الراقية فحال ذلك دون دخولها إليها وهذا يفسر وجود الحيوانات الغريبة في فيها والتي لاتوجد في غيرها، وانفصلت أمريكا الشمالية والجنوبية عن أوروبا وربما لحقها انفصال إنكلترا عنها أيضاً.

وظهر في هذا العصر أشكال متقدمة من الإنسان القرد.

٥- الزمن الرابع

Quaternary Age

وهو زمن الإنسان بامتياز وفيه أصبحت الأرض مغطاة بالجليد وكأن الإنسان جلب معه الجليد عندما ظهر. ومن هنا بدأت أربعة عصور جليدية تتخللها فترات دافئة نسبياً، واستمر هذا الزمن حوالي مليون سنة ويقسمه العلماء إلى عصرين.

أ- عصر البليستوسين (Pleistocene) وهو العصر الذي شغل أغلب هذه المليون سنة واستمر إلى ٨,٠٠٠ ق. م عند اكتشاف الإنسان للزراعة وسادت فيه أربعة عصور جليدية وأربعة عصور حجرية وسنناقشها مفصلاً وظهر فيه الأنواع البشرية الأساسية (القردي، المنتصب، النياندرتال، العاقل). وبدأت فيه ثقافات الإنسان الأولى تظهر من أفريقية إلى أوروبا ثم زحفت باتجاه الشرق الأدنى.

ب- عصر الهولوسين (Holocene) وقد بدأ منذ ١٢,٠٠٠ ق. م وظهر فيه الإنسان الحديث في العصر الحجري المتوسط والحديث وهو مدجن الحيوان ومكتشف الزراعة والمعادن ومؤسس الحضارات والمدنيات المعروفة.

ونرى أن من الضروري هنا أن نثبت الانحدار البايولوجي للإنسان من فصيلة الرئيسيات (Primates) التي تشمل ثلاث عوائل هي :

أ – عائلة القردة الدنيا Prosimii .

ب – عائلة القردة العليا (الشبيهة بالبشر) Simiidae

ج – عائلة البشريات Homonidae : وقد تطور الإنسان فيها ومرّ بالمراحل التالية

١– الإنسان القردي (الاوسترالو بثيكس Australopithecus) وهو البشر الذي عاش منذ حوالي (١,٥) مليون سنة وأشهر أنواعه (الإنسان الأفريقي، الإنسان الموازي للإنسان، الإنسان الماهر).

٢– الإنسان المنتصب (Homo Erectus) وهو البشر الذي عاش بين (٧٠٠,٠٠٠ – ٣٥٠,٠٠٠) سنة وأشهر أنواعه: (إنسان جاوة، إنسان بكين، إنسان هايدلبرك).

٣– إنسان النياندرتال (Homo Niandertalis) وهو البشر الذي عاش ضمن مجموعتين الأولى مبكرة في الفترة غير الجديدة بين رس وفرم أما الثانية فمتطورة عاشت في حدود ٥٠,٠٠٠ ق. م. وأشهر أنواعه: (إنسان شانيدر في غرب أوروبا والعراق، الإنسان الأفريقي، إنسان فلسطين).

٤– الإنسان العاقل (Homo Sapienis) وهو الإنسان الذي يمثل المرحلة الأخيرة من التطور البشري، وربما ظهرت أنواعه مبكرة ولكنه ظهر وساد الأرض في العصر الحجري القديم الأعلى أي بعد ٤٠,٠٠٠ ق. م ومن أشهر أنواعه إنسان الكرومانيون.

الازمان الجيولوجية والبايولوجية	أنواع الأحياء	العصر الجيولوجي	تاريخ بدايته بملايين السنين	مدة العصر بملايين السنين
زمن الحياة الابتدائية	الأحياء المجهرية الأولى	ماقبل الكمبري	١٥٠٠	٩٩٥
الزمن الأول (القديم)	زمن اللافقريات	الكامبري	٥٥٠	٨٠
		الاوردفيشي	٤٢٥	٦٥
	زمن الأسماك	السيلوري	٣٦٠	٣٥
		الديفوني	٣٢٥	٤٥
	زمن البرمائيات	الفحمي	٢٨٠	٥٠
		البرمي	٢٣٠	٢٥
الزمن الثاني (المتوسط)	زمن الزواحف	الترياسي	٢٠٥	٤٠
		الجوراسي	١٦٥	٣٠
		الطباشيري	١٣٥	٦٠
الزمن الثالث (الحديث)	زمن الثدييات	باليوسين	٧٥	٣٠
		ايوسين	٤٥	١٥
		أوليكوسين	٣٠	١٠
		ميوسين	٢٠	١٠
		بلايوسين	١٠	٨
الزمن الرابع (الحاضر)	زمن الإنسان	بليستوسين هولوسين	٢	٢

جدول (١) الازمان الجيولوجية والبايولوجية وتدرج ظهور الأحياء فيها

القسم الثاني

العصور الجليدية والعصور الحجرية

مع بداية الزمن البايولوجي الرابع وهو زمن البليستوسين الذي ظهر فيه الإنسان، ظهرت أربعة عصور جليدية تخللتها فترات غير جليدية (دفيئة).

وقد اطلقْ العلماء عليها تسميات خاصة وهي على التوالي (كنز، مندل، رس، فرم) واشتقت هذه الأسماء من أسماء أربعة أنهار في منطقة بايرن بالمانيا حيث لاحظ العلماء أن فيها حزوزاً وخدوشاً وتشققات تشبه الثلاجات الزاحفة في الوقت الحاضر وتدل على أزمان سحيقة متلاحقة. وأول ما يلفت الانتباه أن كل الازمان الجيولوجية كانت تقريباً معتدلة المناخ، ولكن درجة الحرارة بدأت بالانخفاض تدريجياً مع حلول الزمن الثالث، حتى إذا ما وصلنا إلى الزمن الرابع وبدايته في البليستوسين انخفضت درجة الحرارة بحدة ووضوح ويقدر العلماء أنها انخفضت في حدود (٥-١٠) درجة مئوية مما أحدث مناخاً جديداً بدأ به عصر جديد وضع فيه الكائن الجديد المتطور تواً عن بقية الحيوانات أي الإنسان في سلسلة تحديات جديدة ساهمت ولا شك في تسارع تطوره ونقله إلى مرحلة جديدة، ويعطي العلماء لانخفاض درجات الحرارة أسباباً عديدة منها:

١- الانفجارات الشمسية التي أدت إلى ازدياد حرارة الشمس وتجمع الابخرة والغازات في أعالي نقاط الانفجار وحدوث الكلف الشمسي حيث انحجبت هذه الأرض وأدت إلى حدوث العصر الجليدي.

٢- ميلان محور الأرض الذي نتج عنه أن الشمس صيفاً لا تتعامد مع الأرض على مدار السرطان وإنما على نقطة تقع إلى الجنوب منه وهذا بدوره جعل حرارة الصيف في أوروبا غير كافية لاذابة الجليد الذي تجمع على قمم الجبال في فصل الشتاء.

٣- ازدياد نسبة النباتات على الأرض مما نتج عنه امتصاص كمية أكبر من ثاني أوكسيد الكربون وأدى هذا إلى أنخفاض حرارة الشمس قليلاً.

٤- انفصال الأمريكيتين حيث أدى ذلك إلى أن التيارات الدافئة الصاعدة من خط الآستواء إلى أوروبا وأمريكا الشمالية والتي كانت تدفئ سواحلهما، أصبحت عند انفصال الأمريكيتين تتسرب بينهما ولا تذهب شمالاً وبذلك بردت أوروبا وأمريكا الشمالية بمقدار حوالي (٥-١٠)م.

٥- ظهور غبار كوني حل بين الشمس والأرض وساهم في حجب نسبة من أشعة الشمس وخفض درجة الحرارة.

٦- لأسباب جيولوجية ارتفعت أوروبا عن مستوى سطح البحر فانخفضت درجات الحرارة وأدى هذا إلى خفض درجة الحرارة.

٧- تظهر في الكون مناطق باردة وأخرى دافئة ولأن الاجرام جميعها في حركة دائمة فإن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكون قد دخلت إلى منطقة باردة من مناطق الكون سببت انخفاضاً واضحاً في درجات الحرارة.

٨- اقتراب مذنب ضخم من الأرض أحدث حرارة عالية عليها فتبخرت المياه محلياً في أوروبا وشمال أمريكا وتصاعدت درجة الحرارة مؤقتاً وعندما ابتعد المذنب عادت هذه المناطق فتجمدت وسببت انخفاضاً في درجة الحرارة.

وإذا كانت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة، بعضها أو جميعها، هي السبب في انخفاض درجة الحرارة في مناخ الأرض الشمالي وأوروبا بشكل خاص، فإنه من المهم معرفة أن هذا الأمر جعل من حرارة الصيف في أوروبا غير كافية لاذابة الجليد الذي يتجمع على قمم الجبال في فصل الشتاء وكان المتبقي منه يتراكم ويبدأ بالزحف نحو الوديان ويسبب تغطيتها بالجليد فتصبح أوروبا قياساً إلى منطقة الشرق الأدنى منطقة ضغط عالٍ بينما تكون هذه ذات ضغط واطئ فتهاجم الرياح الباردة والمحملة ببخار الماء فتسبب عصوراً مطيرة في منطقة الشرق الأدنى، وعندما ينسحب العصر الجليدي في أوروبا يزول هذا التفاوت في الضغط فتشح الأمطار في منطقة الشرق الأدنى وتصبح موسمية كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر.

إن علاقة العصور الجليدية بالعصور الحجرية يتضح لنا من خلال الجدول (٢) الذي يشير إلى أن بداية أول عصر جليدي في حدود ٦٠٠,٠٠٠ كان السبب المباشر في بداية العصر الحجري القديم الذي تميز بصناعة الفؤوس الحجرية، وأن انسحاب آخر عصر جليدي والمسمى بـ (فرم) كان السبب المباشر في ظهور الزراعة في منطقة الشرق الأدنى مما سبب انعطافاً حاداً في تطور الإنسان اقتصادياً وثقافياً وسبب لاحقاً في ظهور الحضارات البشرية.

العصر الجيولوجي	العصر الجليدي	العصر الحجري وبدايته (ق.م.)	ثقافات العصر الحجري	نوع الأدوات الحجرية	نوع الإنسان السائد فيه
البليستوسين الأدنى	فترة جليد كنز	السحيق (الايوليت)		الحصوية	الفردي
	الفترة غير الجليدية الأولى	القديم الأدنى (٥٠٠,٠٠٠)	الايفيلي الكلاكتوني الاشولي	الفؤوس والنواة	المنتصب
البليستوسين الأوسط	فترة جليد مندل				
	الفترة غير الجليدية الثانية				
	فترة جليد رس	القديم الأوسط (١٠٠,٠٠٠)	اللفلوازي الموستيري	الشظايا	النياندرتال
	الفترة غير الجليدية الثالثة				
البليستوسين الأعلى	فترة جليد فرم (١)				
	فترة جليدة فرم (٢)	القديم الأعلى (٤٠,٠٠٠)	البريكودي الاورغنيشي الكرافيتي السلوتري المكدليني	النصال	
	فترة جليد فرم (٣)				
الهولوسين	الفترة غير الجليدية الرابعة	المتوسط (الميزوليت) (١٢,٠٠٠)		الدقيقة	العاقل
		الحديث (النيوليث) (٨,٠٠٠)		الزراعية	
		المعدني (الكالكوليت) (٥,٠٠٠)		المعدنية	

جدول (٢) علاقة العصور الجليدية بالعصور الحجرية وثقافاتها وأنواع الأدوات الحجرية المستعملة فيها ونوع الإنسان الذي ساد في تلك العصور

عصور ما قبل التاريخ (العصور الحجرية)

تسمى العصور الحجرية اجمالاً بعصور ما قبل التاريخ، ويفصل اختراع الكتابة بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية التي ظهرت فيها حضارات ومدنيات الإنسان الكبرى. أما العصور الحجرية فتمثل أغلب حياة الإنسان على الأرض وتسودها الصناعات والأدوات الحجرية، وتقدم لنا ملاجئ وكهوف وقبور ومدافن وبيوت وقرى ومدن الإنسان في هذه العصور ما نحتاجه من أدوات وصناعات ورسوم ومنحوتات لنستدل بها على ثقافة الإنسان القديم في عصور ما قبل التاريخ.

وتنقسم العصور الحجرية إلى عدة عصور هي (السحيق، والقديم، والمتوسط، والحديث، والمعدني) وفيما يلي عرض لأهم خصائصها الرئيسية.

١- العصر الحجري السحيق (الايوليت) Eolithic:

ليس لهذا العصر بداية محددة فهي مرتبطة بظهور الإنسان الذي أطلق عليه بالإنسان القردي وهو الإنسان الذي ما زال ملتصقاً بالغابة والحيوانات ويعتقد بانه على المستوى التقني كان ساذجاً وربما استطاع في نهاية هذا العصر من صناعة واستخدام الأدوات العظمية والأدوات الحصوية (Pebble Tools) وقد وجدت هذه الأدوات في أماكن متفرقة منها شمال أفريقيا (ليبيا، والمغرب، والجزائر) وسمي الإنسان الذي استخدم هذه الأدوات بالإنسان الماهر Homo Hablils.

٢- العصر الحجري القديم (الباليوليت) Palcolithic (٥٠٠,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠) ق.م.

وهو العصر الذي تضمن كل العصور الجليدية الأربعة والعصور غير الجليدية الأربعة وبدأ قبل حوالي نصف مليون سنة وظهرت فيه ثلاثة أنواع من الإنسان هي (المنتصب، النياندرتال، العاقل) ويقسمه العلماء إلى ثلاثة عصور (أسفل، أوسط، أعلى) وقد سادت فيه صناعة الأدوات الحجرية (الفؤوس والشظايا والنصال) وتطور الإنسان ببطء شديد خلال هذه العصور بسبب هيمنة الجليد والمطر على حياته وجعله مختبئاً في الكهوف أغلب وقته. وكذلك بسبب محدودية تفكيره وحجم دماغه الذي كان أقل مما هو عليه الآن.

٣- العصر الحجري المتوسط (الميزوليت) Mesolithic (١٢,٠٠٠ - ٨,٠٠٠) ق.م.

وهو العصر الذي بدأ بعد أن ذاب جليد فرم في أوروبا وبدأت الفترة غير الجليدية الرابعة، وكان الإنسان في الشرق الأدنى يمر بفترة من الأمطار الموسمية، ويسمى هذا العصر أيضاً بعصر الأدوات الدقيقة (المايكروليث) Microlithic والتي سادت هذا العصر، ويمثل هذا العصر فترة انتقالية بين العصور الحجرية القديمة والحديثة وتنقسم ثقافات الميزوليت في أوروبا إلى قسمين الأول يشمل الثقافات المماثلة للباليوليت وتشمل الصناعات الأزيلية والتاردينويسية.وصيادو غزال الرنة والثقافات المماثلة للنيوليت وتشمل الصناعات الماجيلموسية والأرتبولية والمقبضية. أما في الشرق الأدنى فلها اسماء عديدة منها الكبارية والنطوفية في فلسطين والزرزية في العراق ويتميز هذا العصر ببدء تدجين الحيوان.

٤- العصر الحجري الحديث (النيوليت) Neolithic (٨٠٠٠ - ٥٠٠٠) ق. م.

وهو العصر الذي بدأ الإنسان فيه باكتشاف الزراعة والتدجين الواسع للحيوانات وظهور القرى الزراعية المنظمة وتطور صناعة الخزف (الفخار) وظهور الآلات الحجرية المصقولة بدلاً من المشظاة، وقد استمر النيوليت (٣٠٠٠ سنة). وإذا كان الباليوليت أوروبياً والميزوليت شامياً فان النيوليت رافديني شمالي يدل على ذلك انتظام ثقافاته المتتالية المترابطة وهي كما يلي:

اسم الثقافة النيوليتية	عدد سنواتها	الفترة الزمنية التقريبية
١. ما قبل الفخار	١٨٠٠	٨٠٠٠ - ٦٢٠٠ ق. م.
٢. جرمو	٢٠٠	٦٢٠٠ - ٦٠٠٠ ق. م.
٣. الصوان	٢٠٠	٦٠٠٠ - ٥٨٠٠ ق. م.
٤. حسونة	٧٠٠	٥٨٠٠ - ٥١٠٠ ق. م.
٥. سامراء	٢٠٠	٥١٠٠ - ٤٩٠٠ ق. م.

جدول (٣)
ثقافات النيوليت

٥- العصر الحجري المعدني (الكالكوليت) Calcolithic (٥٠٠٠ - ٣٠٠٠) ق.م.

وهو العصر الذي اكتشف فيه الإنسان المعادن وبدأ بتطويعها واستخدامها في حياته اليومية، وكذلك هو العصر الذي ارتبط بنشوء المدن وظهور المعابد وقد استمر هذا العصر حوالي (٢٠٠٠سنة)، ويمتاز هذا العصر بانه عصر رافديني جنوبي في نشأته وتطوره ويدل على ذلك انتظام ثقافاته المتتالية المترابطة وهي كما يلي:

اسم الثقافة الكالكوليتية	عدد سنواتها	الفترة الزمنية التقريبية
١. حلف	٦٠٠	٤٩٠٠ - ٤٣٠٠ ق. م.
٢. اريدو	٣٠٠	٤٣٠٠ - ٤٠٠٠ ق. م.
٣. العبيد	٥٠٠	٤٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق. م.
٤. الوركاء الأولى	٤٠٠	٣٥٠٠ - ٣١٠٠ ق. م.

جدول (٤)
ثقافات الكالكوليت

٦- العصر الشبيه بالتاريخي (الشبيه بالكتابي) - البروتولتريت Protolitrate (٣١٠٠ - ٢٩٠٠) ق. م.

وهو العصر المفصل بين عصور ما قبل التاريخ السابقة والعصور التاريخية اللاحقة التي نشأت فيها الحضارات والمدنيات المعروفة بدءاً من الحضارتين السومرية والمصرية وصعوداً وتظهر في هذا العصر بدايات الكتابة الصورية في وادي الرافدين ويقسم إلى عصرين (الوركاء الثانية وجمدت نصر).

هوامش ومصادر الفصل الأول

المصادر العربية :

١- الدباغ، د. تقي : تطور بنيات البشريات، مجلة بين النهرين، السنة العاشرة العددان ٣٧-٣٨، ١٩٨٢.

٢- الدباغ، د. تقي والجادر، د، وليد : عصور قبل التاريخ. مطبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٣.

٣- جواد، د. عبد الجليل: متى وكيف ظهر الإنسان العاقل؟ سومر مجلد ٢٨، (١٩٧٢) ص ص ٣٣-٣٥.

٤- الجوهري ، د. يسري عبد الرزاق : الإنسان وسلالاته، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤.

٥- شوشار، بل : دماغ الإنسان، ترجمة خليل سابق، سلسلة ماذا أعرف، المنشورات العربية، بيروت.

٦- ليرمان، روبرت ل: الطريق الطويل إلى الإنسان، ترجمة د. ثابت جرجيس قصبجي، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، نيويورك ، ١٩٦٣.

المصادر الأجنبية :

1-Adamson, E. Hobel : Man in the primitive world New York, 1958.

2-Kelso, A: Physical Anthropology. New York, 1974.

3-Oakley . K: Fire as a paleolithic tool and weapan proceeding of the prehistoric society, No.21 1955,p. 36-48.

4-Pfeifft, Jahn E: The Emetgence of man. New York, 1971

5-Simans, E : Primate Evolution, An Introduction to Man's place in Nature. New York, 1972.

6-Stokes, W and Judson, S. : Introduction to Geology New Jersey. 1968.

الفصل الثاني

دين الباليوليت

(دين الصيادين)

دين الباليوليت

(دين الصيادين)

يبدو لنا خروج الإنسان من ضباب المملكة الحيوانية وبدء سيره باتجاه مملكة الإنسان أمراً محاطاً بالكثير من الالغاز البايولوجية والبيئية، فلم يكن ذلك الأمر واضحاً أو مكشوفاً بل ما زال غامضاً مضبباً لا يمكن القطع النهائي به.

يمكن القول أن أفريقيا كانت قبل غيرها المهد الأول الذي تطور فيه الإنسان من الاقزام إلى الإنسان العادي الطول، فمن شمال وشرق أفريقيا تطور الإنسان القزم (بليسي انثروبس Plesianthropus) إلى إنسان (البرا أنثروبس Paranthropus) وقد تدفق هذا الإنسان باتجاه أوروبا وآسيا، وفي أوروبا ظهرت المنجزات المادية والروحية لإنسان العصر الحجري القديم، وهي منجزات مهمة إلا أنها بطيئة التطور، لكننا نلمح في العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) بدء انتقال ثقافة الإنسان من أوروبا إلى الشرق الأدنى وتحديداً الشرق العربي، وظهور الثقافة الميزوليتية في الشام والعراق ثم اتساعها وتطورها الهائل في الثقافة النيوليتية التي كان الشمال الرافديني نواتها المشعة واتسع لها قوس شمالي كبير يمتد من إيران إلى مصر ثم ظهرت الثقافة الكالكوليتية في الجنوب الرافديني واتسع لها قوس آخر كبير يمتد أيضاً من إيران إلى مصر.

لا شك إننا لا نستطيع الآن الخوض تفصيليا في المنجزات المادية للباليوليت لكننا سنشير لها ونتفصل أكثر في المنجزات الروحية (موضع بحثنا). ويمكننا من حيث المبدأ أولاً وضع مخطط موجز لمراحل الباليوليت ونوع الإنسان السائد فيه ومنجزاته المادية والروحية:

	العصر الحجري	نوع الإنسان	منجزه	الأشكال المادية والروحية للمنجز
١-	الايوليت (السحيق)	الجنوبي	الوعي	الأدوات العظمية، والأدوات الحصوية
٢-	الباليوليت الأسفل	المنتصب	العمل	الأدوات الحجرية، اكتشاف النار
٣-	الباليوليت الأوسط.	النياندرتال	الدين	تقديس الحيوان ، المدافن
٤-	الباليوليت الأعلى	العاقل	الفن	لوحات الكهوف، الدمى الأنثوية

جدول (٥) العصور الحجرية الايوليت والباليوليت وثقافاتها

الأيوليت : فجر الحجر ... فجر الوعي

لا يمكن على وجه الدقة تحديد بداية الأيوليت ولكن يمكن تحديد نهايته التي تقترب من (٥٠٠,٠٠٠) أي قبل حوالي نصف مليون سنة، وهناك من يرى أن هذا العصر استغرق حوالي (٢٠٠,٠٠٠ – ١,٠٠٠,٠٠٠) سنة[1].

الإنسان، الجليد، الحجر، الوعي... أربعة أمور تلازمت مع فجر الإنسانية. فبداية العصور الحجرية هي بداية العصور الجليدية التي ترافق معها ظور الإنسان خارجاً من الغابة ومنفصلاً نوعياً عن الحيوان.

كان العصر الحجري السحيق (الأيوليت) مثل مفصل يفصل بين الإنسان الجنوبي القردي والإنسان الأول. وقد كان للتطورات البايولوجية التي طرأت على شكل الإنسان آنذاك مثل حركة الابهام وانفصاله عن بقية الاصابع وقدرته على مسك واستخدام الأشياء وموقع العينين القادر على النظر بوضوح وتركيز، وكبر الدماغ وانحسار الفك إلى الوراء قليلاً، وما رافق ذلك من مغادرة الإنسان للاشجار والغابات ومشيه الوئيد على

الأرض، وكل هذه الأمورلعبت دوراً في بداية وعي الإنسان للعالم وتشكل أول لمسات وعيه المختلف عن الأحاسيس الغريزية العمياء للحيوان. بدأ الإنسان في الأبوليت باستخدام نوعين من الأدوات هي:

١- الأدوات العظمية (Bone Tools) التي تشمل على الفكوك السفلى للثيران الوحشية الكبيرة والتي تقطع إلى نصفين وتستعمل كسكاكين، وقرون الغزلان التي تستعمل للتقطيع والحفر[٢] بعد تحويرها.

٢- الأدوات الحصوية (Pebble Tools) وهي أدوات مختلفة الحجم يحصل عليها الإنسان من صقل وتهذيب الحصى.

وقد سمي الإنسان الذي صنع هذه الأدوات الأولى وفق طراز معين بالإنسان الصانع Homo Fager وتدل إنجازاته هذه على أول اتصال إيجابي بالطبيعة، وأول عمل يقوم به الإنسان ولكنه يدل بالدرجة الأساسية على بدء وعي الإنسان وانتباهه لما حوله فهي أوّلى خطوات الوعي الذي كان غفلاً.

ومن المؤكد بأننا لانستطيع إدراك ما تنطوي عليه مثل هذه الإنجازات المادية على تكوين الإنسان النفسي والروحي، ولذلك اجملنا ذلك بما اصطلحنا عليه بـ (فجر الوعي) الذي استطاع الحجر ان يخدش ويفتح منفذاً في ليله السابق الطويل. وقد تكون اللغة الثمرة الأولى لهذا الفجر فهي لصيقة بالوعي ومترادفة معه.

عقائد الباليوليت الأسفل

دين الإنسان المنتصب – (النار : ظهور المقدّس)

إن صناعة الأدوات الحجرية واكتشاف النار واستعمالها يعدان من أهم إنجازات العصر الحجري القديم الأسفل على المستويين المادي والروحي، وقد انعكسا على تطور وعي الإنسان ونشطا إمكاناته الروحية.

إن ظهور الأدوات الحجرية (أدوات النواة والشظايا والفؤوس)، هو امتداد نوعي لأدوات الحصى والعظام السابقة ولكنها اتسعت هنا على نحو كبير لإمكانيات ظهور

عمل يدوي واسع للإنسان يستثمر أدواته في الحصول على قوته سواء بجمع القوت أو عن طريق الصيد.

أما اكتشاف النار واستعمالها فأمر ينطوي على الكثير من الأبعاد العملية والروحية للإنسان، فالنار بما تنطوي عليه من قدرة غريبة على جعل الإنسان يتأمل صفاتها وآثارها وشكلها انعكست إيجابيا على القوة الروحية للإنسان وهيأتها لمرحلة قادمة. ويرى بعض العلماء أن الإنسان القديم استخدم على ما يبدو الفحم المحترق أو الاغصان المشتعلة فسبب اندلاع الحرائق، لقد كانت النار تحمي كهوف الإنسان من الكواسر والبرد القارس، وكانوا يستخدمونها لشي اللحم، كما جعلت كثيراً من المواد التي لم تكن تؤكل قبل ذلك، قابلة للأكل بعد معاملتها بالنار، لقد جعل استخدام النار الإنسان أكثر قوة من ذي قبل، ولعب دوراً هاماً جداً في تطوره اللاحق[3]، ودلت الآثار على إن إنسان بكين استعمل النار في كهوفه الأولى في الصين إننا نرجح أن ظهور النار كان عاملاً نوعياً حرك في الإنسان قواه الدينية المميزة لهذا العصر.... وإن فكرة الدين التي تستند إلى جوهر واحد هو (وجود المقدس) يمكن أن تكون قد بدأت من النار لأنها تحمل نمطاً خاصاً يختلف عن بقية ما يراه الإنسان في عالمه، لقد كانت النار أول مقدس احتك به الإنسان لكنه مقدس غائر في البعد والقدم، كذلك، فإنه مقدس غفل لأنه لا يستدعي فصلاً بين عالمين، معروف ومجهول، إنساني والهي، بل شكلت النار أول إشارة للخوف والرهبة والدهشة والجمال والمنفعة، ولم يكن الإنسان يلمحها أو يراها عن بعد حسب (كالشمس والقمر)، بل كان يستعملها ويقترب منها وكان من النادر أن تجود الطبيعة، في تلك الأزمان، بشيء يشبهها. ولعل الإنسان القوي الذي يستطيع ايقاد النار واستعمالها والسيطرة عليها كان مثل بروميثيوس الذي تشير الاسطورة اليونانية إلى ظهوره مع ظهور الإنسان الأول [4].

عقائد الباليوليت الأوسط

دين إنسان النياندرتال (الحيوان : اصطياد المقدّس)

كان للسنوات الستين ألف التي استغرقها الباليوليت الأوسط (١٠٠.٠٠٠ – ٤٠.٠٠٠) وشغل اغلبها إنسان النياندرتال أهمية كبرى في ظهور أول دين بشري، فبعد أن قامت النار بتحريك النوازع الدينية الأولى باعتبارها (المقدس الأول) انفتحت أحاسيس الإنسان ومشاعره باتجاه تشكل ديني أعلى.

لقد كان الدين في بدايته معتقداً بسيطاً «تتركز حوله مجموعة من الطقوس والاساطير الخاصة بجماعة معينة من الناس – عشيرة أو قبيلة أو شريحة اجتماعية – مثل هذا الشكل المحدود للحياة الدينية يدعى عادة بالعبادة – Cult– ويتطابق مفهوم الدين مع مفهوم العبادة لدى جماعة صغيرة شبه منعزلة، فإذا اجتمع لشعب من الشعوب عدد من العبادات المتقاربة، والتي يختص كل منهما بجماعة من جماعاته، اسمينا شكل الحياة الدينية هنا ديناً، واسمينا الشكل الفرعي عبادة»(٥).

ويمكننا القول أن الباليوليت الأوسط سادت فيه عبادة أو عبادات أو عقائد دينية لها طقوس معينة.

تقديس الحيوان

لم يكن الإنسان في الباليوليت الأسفل يتفرج على الحيوان، بل كان يصطاده لاغراض غذائية محضة أوخوفاً من أن يفترسه... لكن تطور الإنسان ونمو ملكاته الروحية والنفسية جعلاه يتطلع برهبة وخوف وربما بقدسية إلى هذه الحيوانات التي هاله تنوعها وظهورها الدائم معه في هذا العالم اللامتناهي ومنافستها له في الحصول على الغذاء بل وشراستها وقوتها التي لمح فيها تحشد القوة وتمركزها.

وكانت الحيوانات بين بعيدة عنه وقريبة منه، فهي بحكم وحشيتها وشراستها واحياناً ضخامة حجمها بعيدة عنه، فإذا ما نالها واصطادها اصبحت قريبة منه، ومن هذا الجدل، البعد والقرب، نشأ احساس ديني جديد ازاء الحيوان. لقد اقترب الإنسان من المقدس الأول (النار) وروضه وكان في تدجين الإنسان للنار طريقاً لعبادتها، صحيح إن الإنسان لم يدجن الحيوان ولكنه اقترب منه واصطاده.

لقد اطلق الباحثون مصطلحات مثل (سيد الحيوانات Animal Master) ومصطلح سيد الدببة (Bear Master) ليشيروا إلى عبادات منظمة لإنسان النياندرتال للحيوانات فقد حفظت في مغاور كهوف الألب عدد من جماجم دببة مرتبة بطريقة خاصة، احيط بعضها بحجارات صغيرة وبعضها الآخر بألواح محجرية، وجماجم خمسة محفوظة مع عظام الساعد في جدار الكهف (٦).

ولا يقتصر الأمر على الدب فهناك الثور والجاموس والماموث وغيرها... وهناك آثار كثيرة تدل على عبادة هذه الحيوانات التي وجد فيها الإنسان اليناندرتالي قوة المقدس وهي تتحرك فيها نشطة وتبعث على الرهبة.

إن صيد الحيوان وأكل لحمه يحيلنا دينيا إلى فكرة مهمة وهي إن الإنسان بعد أن كان يرى في (المقدس) بعيداً أصبح يرى فيه جزءاً من جسده خصوصاً إذا ارتبط الحيوان بالنار في طقوس افتراسية مشحونة بالترقب والتأمل. وقد نجد في ذلك تفسيراً منطقياً في الديانات الطوطمية التي كانت في الحيوان المقدس مبدأ جمع شمل القبيلة وان افتراسه في طقوس دينية جماعية كان يعني توزع هذا المقدس/ الحرام على أبناء القبيلة حيث يقوم بجمعها في صلة واحدة وقوية [٧].

المدافن والقبور

تزداد الأدلة مع الزمن على أن النياندرتال هو الذي ابتكر المدافن والقبور، وهذا أيضاً دليل آخر من ادلة ظهور الدين لدى هذا الإنسان، رغم أن بعض الباحثين يعزون هذا الأمر إلى وعي اجتماعي أكثر منه ديني حيث يرى توينبي مثلاً تخلص الإنسان النياندرتال من موتاه بطريقة شعائرية، بدل أن يعتبر جثثهم كأنها اقذار، كان يدل على أنه يرى أن للإنسان كرامة لا تنتشر بين بقية أشكال الحياة [٨].

والحقيقة أن مدافن النياندرتال هي واحدة من أهم علامات تطوره الديني، فإذا كنا نرى أن الدين مكون من (العقيدة والطقس والأسطورة) فلا شك أن طقوس الدفن الشعائرية كانت بداية ظهور الطقوس المرافقة للعقيدة الدينية، بل ربما كانت امتداداً لها أو تفسيراً لها حيث أن الإنسان الذي كان يدفن حيوانه السيد المقدس، بدأ يرى في نفسه، وفي جسده الذي فيه من هذا المقدس ضرورة أن لا يترك في العراء بعد الموت، بل أن يدفن أيضاً وربما سيكون من الأفضل أن ترافق دفن الإنسان والحيوان والنار معاً.

هكذا إذن نقل الإنسان مقدساته الثلاثة إلى عالم ما بعد الموت لانقاذ هيبتها من العبث والضياع، وربما كان في هذا الاجراء بذرة لنشوء عقائد ما بعد الموت واعتقاد الإنسان بوجود حياة أخرى لجسده أو روحه أو لهما معاً. إن ظهور المدافن وطبيعة محتوياتها تفتح الآفاق عريضة لتناول عقائد ما بعد الموت في حياة إنسان النياندرتال

خصوصاً وأن مدافن النياندرتال كانت تنطق بدلالات هامة فالجسد البشري يوضع في وضعيات الجثو،أو يحمي رأسه بألواح حجرية، أو يتوسد الذراع اليمنى وتحت رأسه كومة من شظايا الصوان، أو يوجه رأسه نحوالشرق، بالإضافة إلى ظهور عظام حيوانية مدفونة معه وهذا ما حصل في كهوف ومدافن النياندرتال في جنوب فرنسا.

لقد دفن الإنسان معه مقدسه لكي يحميه بعد الموت أيضاً، ولكي يكون بجانبه يخفف عنه أثر الموت والزوال. وقد وجد في بعض القبور الإنسان مع حفر مليئة بالرماد دلالة على دفن النار معه أيضاً، وهناك من دفن وقرب يده مقبض فأس حجرية.

إن كل هذه المدفونات الأخرى مع الإنسان (النار، الحيوان، الفأس) ماذا تعني سوى اعتقاد الإنسان باستمرار حياته بعد الموت وضمان مكانته وحمايتها من قبل هذه المقدسات التي اكتشفها بنفسه في الحياة.

ويرى بعض الباحثين أن إنسان النياندرتال كان له اعتقاد بالروح من طريقة معاملته للموتى فقد اكتشف في كهف كرابينا في كرواتيا بقايا متكسرة لأكثر من عشرة جماجم لإنسان النياندرتال وكان بعضها محروقاً ومعه بقايا حيوانات وحشية. وكذلك في مونت جرجيو في إيطاليا اكتشفت جمجمة الإنسان النياندرتال، وقد كسرت قاعدتها، ويرى هؤلاء الباحثون أن هذا يشير إلى عادة أكل ادمغة الموتى التي مورست أيضاً من قبل إنسان بكين كما تدل المكتشفات الاثرية في جوكوتيان [٩].

لقد رأى إنسان النياندرتال أن الرأس هو مقر قوة وروح الفرد، وأنه ربما إذا تناول دماغه فإن هذه القوة أو الروح تنتقل له.

إن التفكير بالموت لم يأخذ بعداً شمولياً ميتافيزيقياً «ولذا فمن الطبيعي أن يتجه تفكيره في ظل إمكانياته العقلية المحدودة، إلى أن الموت ليس إلا نتيجة لهجوم قوى معينة لا يمكن رؤيتها، وبذلك انصب تفكير الإنسان في تلك المرحلة من تطوره الفكري على سبب موت شخص معين بالذات بدلاً من التفكير بسبب الموت ذاته»[١٠].

يتطور النياندرتال المشرقي أكثر في صلته بالموت ففي موقع شانيدر العراقي نراه مدفوناً وسط الزهور والبذور واللقاحات النباتية. وقد أرجع العلماء هذه اللقاحات إلى

ثمانية أنواع نباتية مختلفة على الأقل وهي (الافيليا أو الخزنبل، البابونج، القنطريون أو العطرب، الزنبق، أو السوس، الايفيديرا أو عنب البحر، الخبازيات، نوعان مجهولان إلى الآن)[١١]، بالإضافة للمظهر الطقسي الذي يبدو دفن الإنسان وسط الزهور الكثيرة التي ظهر لنا أنها ذات طبيعة علاجية ودوائية واضحة، وربما يكون الإنسان قد تركها مع الميت ظنا منه إنها توفر له علاجاً ناجعاً بعد الموت خصوصاً أن نياندرتال شانيدر كان مريضاً ومسناً.

إن ظهور عناصر جديدة ذات طبيعة عقائدية دينية في مدافن وقبور النياندرتال مثل الدفن باتجاه الشرق وماله علاقة في هذا بالشمس وشروقها وتمثل حركتها، والعثور على حصاة بيضوية محززة باثنتي عشر جزء كنوع من التقويم القمري في شمال وادي الرافدين، ونضيف لها طقس الأزهار،كل هذه العوامل الجديدة تدل على تفتح المشاعر الدينية للإنسان باتجاه تكون روحي وديني جديد للباليوليت الأوسط.

عقائد الباليوليت الأعلى

دين الإنسان العاقل (اللوحات والدمى: تشكيل المقدّس)

يضع هيغل في معماره الفلسفي العملاق الفن والدين في آخر مرحلة من مراحل تجليات الروح المطلق، ويتخذ إدراك المطلق عنده ثلاثة طرق تعطينا ثلاث مراحل للروح المطلق وهي (الفن، الدين، الفلسفة) وإذا كان الترتيب الهيغلي لا يتفق مع ظهور الدين قبل الفن فإن ذلك يتعلق بالتأكيد بطبيعة فهم هيغل للدين.

لقد شهد عصر الباليوليت الأعلى ظهور نوعين من الفن هما الفن التشكيلي (الرسم) المعبر عنه بجداريات الكهوف، وفن النحت الذي تجسد في ما يسمى بالتماثيل الفينوسية. ولم يكن ظهور الفن في هذا العصر من أجل الفن بذاته بل هو استمرار لتشكل الدين وظهوره في عصر الباليوليت بعامة . و إذا عدنا إلى هيغل فإننا سنرى ارتباط الفن بالدين من خلال أولى عتبات الدين الذي يمثله السحر، والسحر الذي ظهر مع الدين في الباليوليت الأوسط يمفصل في الباليوليت الأعلى بين الدين والفن.

جداريات الكهوف

إن الجداريات الكهفية المذهلة التي اكتشفت في المنطقة الممتدة بين جنوب فرنسا وشمال إسبانيا والتي وجدت في أكثر من مائة كهف شكل (١.٢.٣.٤) أثارت فضول العلماء وجعلتهم يخرجون بنظريات متعددة حول طبيعة هذه الكهوف وجدارياتها.ولعل أقدم النظريات هي التي تقول بأن هذه الرسوم قد أنجزت لغايات فنية وجمالية فقط دون أن تحمل أية تفسيرات دينية، أما النظرية الثانية فقد وجدت فيها أدوات سحرية استخدمها الإنسان للسيطرة على الحيوانات والايقاع بها انطلاقاً من مبدأ التشابه السحري [١٢]، وقد سيطرت هذه النظرية على تفسير هذه الرسوم لزمن طويل.

أما النظرية الثالثة فقد وجدت في هذه الرسوم جدلاً بين العنصرين الذكري والأنثوي ويتخذ هذا الجدل صفة المركز الأنثوي والمحيط الذكري وقد قام لوروا كورهان بدراسة أكثر من ألفين رسماً كهفياً من رسوم الكهوف الكانتربرية بطريقة إحصائية تبين له [١٣] :

١- المناطق المركزية يشغلها دائماً ثلاثة أنواع من الحيوانات هي (الثور، البيسون، الحصان) بينما تحتل بقية الأنواع الحيوانية الأطراف والمناطق الثانوية.

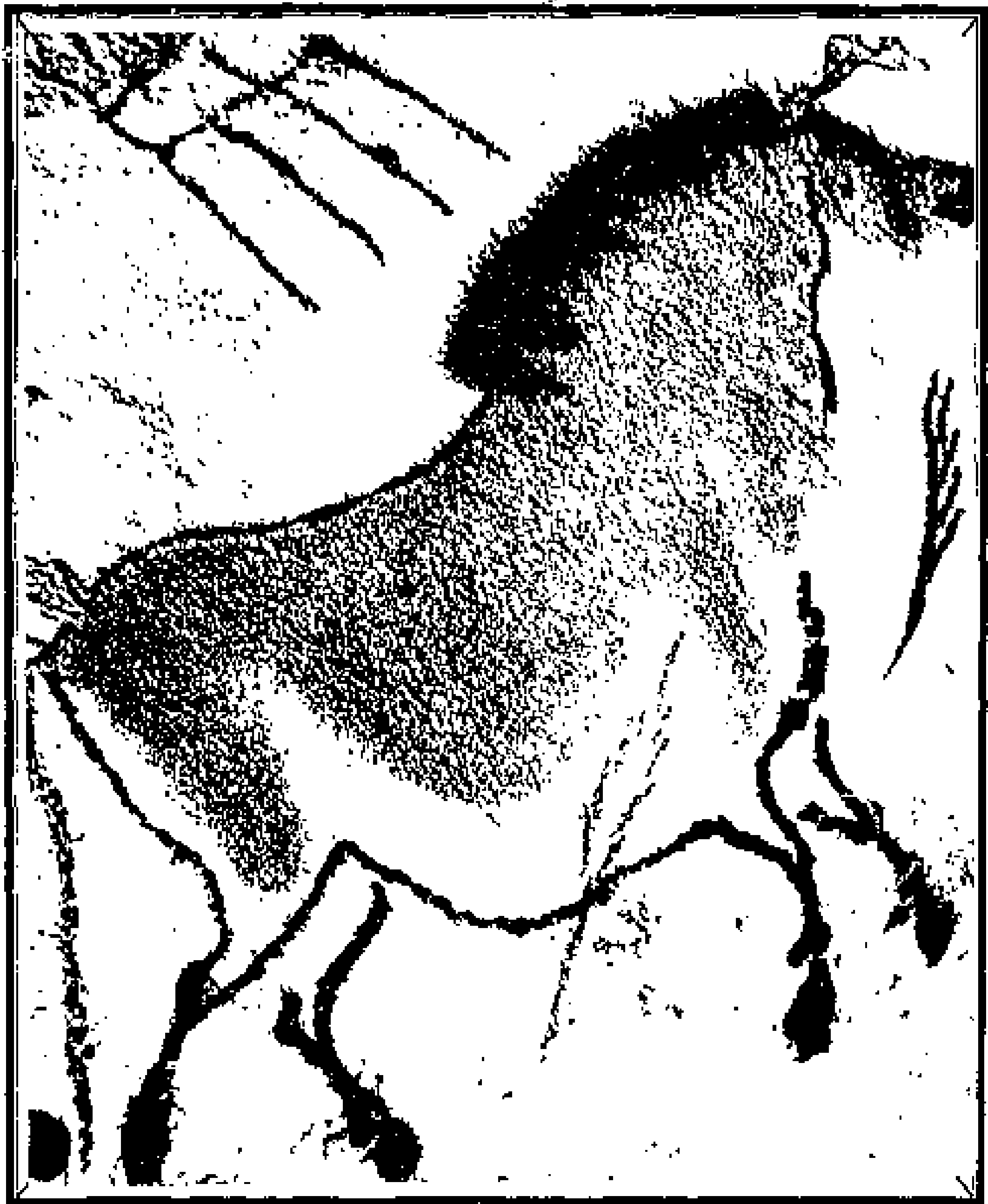
٢- الثور يأخذ قيمة رمزية أنثوية وكذلك البيسون أما الحصان فله رمزية ذكرية. وإن القيم الأنثوية تساوي الذكرية عدداً.

٣- الجروح ذات قيمة رمزية أنثوية أما السهام والحراب فقيمتها ذكرية.

٤- الرمز الأنثوي دائماً في المركز. أما الرمز الذكري فيتوزع بشكل متساوٍ حول هذا المركز وعلى اطرافه البعيدة والقريبة.

ويقودنا لورهان إلى استنتاجه الأخير، وهو أن كل هذه النتائج تدل على (قيام ايديولوجية دينية لدى الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى تعتمد على جدلية المبدأين الذكري والأنثوي في تعارضهما وتكافؤهما).

أما النظرية الرابعة وهي الأقوى فيقول بها جوزيف كامبل حيث يرى أن هذه الكهوف ما هي إلا معابد أو كنائس الإنسان الباليوليتي وضع على جدرانها بكل تبتل وعناية روحية ما كان يضفي عليه صفة التقديس ونعني به الحيوان، ويطور المفكر فراس السواح فكرة كامبل هذه فيرى: «إن الإنسان الباليوليت الأعلى في هذه البقع القصية المظلمة، يبحث عن تواصل مع المجال الآخر، مع عالم اللاهوت، من خلال شارات قدسية تربط بين العالمين. وكما فعل إنسان الباليوليت الأوسط، فقد اختار إنسان الباليوليت الأعلى شارته المقدسة من العالم الحيواني، لا ليعبدها بذاتها، بل ليستحضر من خلالها قوة العالم الموازي. وتحولت كهوف الدب المتواضعة، التي اتخذها النياندرتال مقامات مقدسة، إلى كاتدرائيات نحتتها الطبيعة في الأعماق على حدود اوقيانوس الظلمة، وأقام فيها الإنسان العاقل نقاط تواصل مع المجال الآخر، من خلال هيئات حيوانية تلخصت بشكل رئيسي في الثور والبيسون والحصان»[١٤]، ولعل ما يؤكد ذلك مجموعة من الحقائق أهمها أن الآثاريين لم يعثروا في هذه الكهوف على بقايا مدافن أونار مواقد، أو ما يشير إلى طقوس سحرية، بل وجدوا فيها أدوات رسم وبعض المصابيح الزيتية، وكذلك فقد تحشدت هذه الرسوم بصورة حيوانات معروفة آنذاك وهي من طرف آخر تشير إلى استمرار الدين النياندرتالي في تقديس الحيوان.

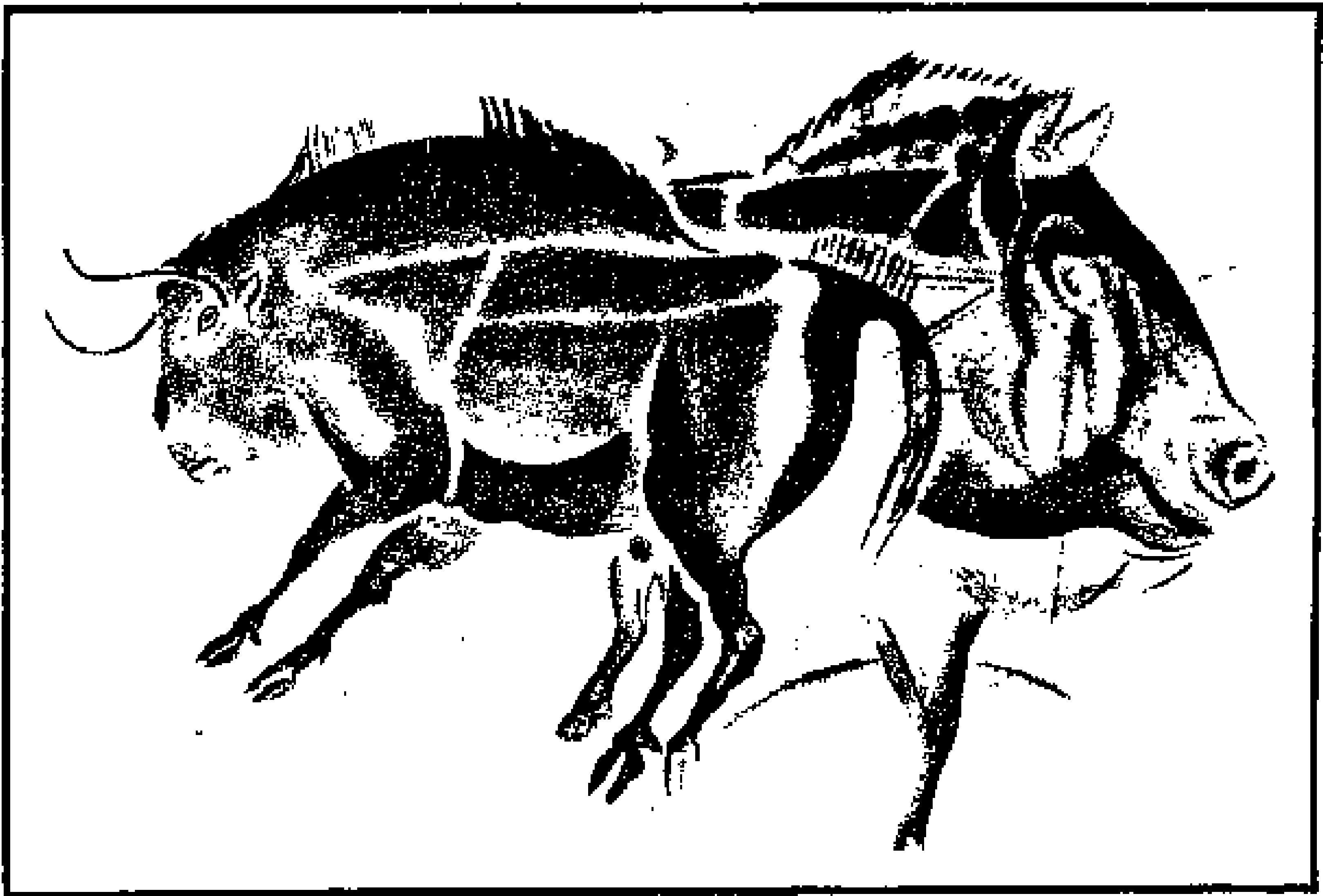




شكل(١) و (٢) مقاطع من الرسومات الجدارية لكهف لاسكو تمثل الخيول - الباليوليت/ فرنسا



شكل (٣) رسومات تمثل خيولاً وأيادي بشرية، وغزالاً وتخطيطاً كبيراً لحيوان البيزون – الباليوليت كهف التاميرا / اسبانيا.



شكل (٤) رسوم لحيوان البيزون الباليوليت – كهف التاميرا / اسبانيا.

الدمى الأنثوية

تثير الدمى العشتارية، أو الأنثوية، أو الفينوسات كما يسميها الباحثون الأوروبيون، التي أكتشفت لعصر الباليوليت الأعلى أسئلة كثيرة لعل أهمها: كيف ظهرت مثل هذه الدمى ومازال وقت أكتشاف الزراعة بعيدا؟ وأساس هذا السؤال ينطلق من فكرة أن مثل هذه الدمى ستظهر لاحقاً وبغزارة كبيرة لتدل على الزراعة والخصب. وهذا ما حصل مع ظهور هذه الدمى في أماكن كثيرة في الشرق الأدنى كما سنرى.

ولعلنا نجد الأجابة في العدد المحدود لهذه الدمى. فنقول بإن عدم انتشار مثل هذه الظاهرة (كما في لوحات الكهوف) يدل على عدم ارتباطها بظهور تحول بيئي أو اقتصادي، أو اجتماعي، أو ديني كبير مثلما حصل مع دمى النيوليث. وإن ظهور هذه الدمى في الباليوليت الأعلى يدل على استمرار ظهور المقدس بصيغة أنثوية ولادية هذه المرة تقترب كثيراً من الصيغة الحيوانية. حيث سنرى من خلال دراستنا للدمى الأنثوية بأنها جميعاً تقترب من الشكل الحيواني الذي وضع فيه الإنسان العاقل مقدّسه. لكننا بلاشك سنجد في ماجسدته هذه الدمى صورة من صور تجليات المقدّس واستمرار تدفقه الديني ليفصل بين العالمين الإنساني والإلهي.

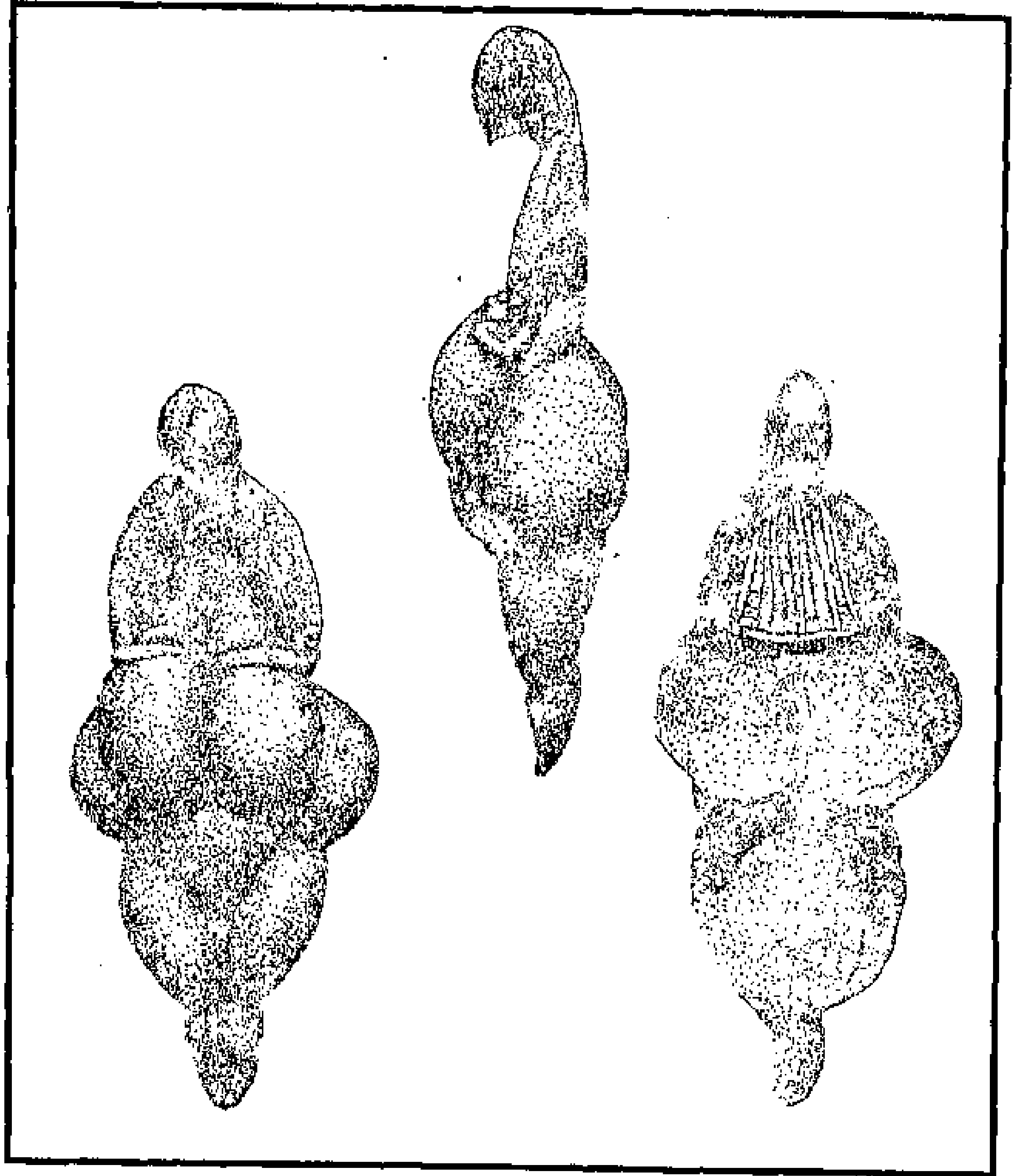
أما الدمى الأنثوية هذه فهي.:

١- إلهة لاوسيل The gadess of Laussel : حيث عثر في منطقة لاوسيل في جنوب فرنسا على نحت آلهة لاوسيل (شكل ٥) وهي ترفع بيدها اليمنى قرنا كثور البيسون، وتضع يدها اليسرى الصغيرة الحيوانية المظهر على بطنها الممتلئ، ويبدو صدرها بتديين ممتلين، بينما أردافها كبيرة ومفصصة وأطرافها نحيلة... ويظهر وجهها دون ملامح، وعلى النحت بقايا من صبغة حمراء تلونه منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة. وقد عثر على هيئات أنثوية أخرى في هذا الكهف لاثنتين ترفعان شيئاً مجهولاً ولثالثة وهي تلد، ولرجل يرمي رمحاً، ولضبع وحصان، والواح صخرية رسمت عليها أشكال العضو الجنسي الأنثوي.



شكل (٥) آلهة لاوسيل وهي تمسك بقرن بيسون تحت بارز بارتفاع ٧٥، ١٥ سم متحف لبهوميه / باريس.

٢- إلهة ليسبوغ The godess of Lespugue : في فرنسا أيضاً وجدت هذه الدمى الأنثوية ذات الشكل المغزلي المستدق الطرفين والمنتفخ من وسطه دون ملامح وجه، واضحة ورأس يشبه رأس الأفعى، واطراف نحيفة جداً مدلاة على أعلى الاثداء وهي تشير إلى شكل غريب جداً لايمكن أن يشير إلى امرأة حقيقية (شكل ٦)



شكل (٦) إلهة ليسبوغ

٣- إلهة ويلندروف The godess of Willendrof : في جنوب النمسا عثر على هذه الدمية بطول يبلغ حوالي ٤,٥ إنج حيث تظهر برأس كبير ذي شعر مصفف ومجعد وهي تضع ايديها النحيفة فوق أثدائها الكبيرة جداً، ولها بطن وارداف كبيرة وشكلها أيضاً غريب جداً ولها أرجل مستدقة النهاية (شكل ٧)



شكل (٧) إلهة ويلندروف

إن هذه النماذج الثلاثة تعطي فكرة جديدة عن انتباهة دينية خاصة بالتكاثر والولادة عند الإنسان وارتباط ذلك بالاعضاء الجنسية الباذخة لدى المرأة باعتبارها مصدر إنتاج النوع البشري. ولكن هذه الانتباهة (كما قلنا) لم تأخذ مداها المطلوب في أجواء باردة لم تكتشف الزراعة فيها بعد ولم يظهر بعد مفهوم الخصب الكوني على حقيقته

كما حصل بعد حوالي عشرين ألف سنة في الشرق الأدنى «إن ما حاول فن الدمى العشتارية أن يستحضره أمام عين المشاهد شبيه بما حاول استحضاره فن الكهوف في رسومه الحيوانية، فهو ينقل إحساس، إنسان الباليوليت بعالم اللاهوت وقوته السارية في عالم الناسوت، رغم حلول الشكل الشبيه بالإنساني محل الشكل الحيواني. إن الشكل الشبيه بالإنساني هنا يحقق الغاية نفسها التي للشكل الحيواني فالأنثى المرموزة الغائبة الشخصية، والمحرومة من الملامح التي تدل على هيئة صاحبها، ليست شخصاً بعينه، إلها ما، أو كائنا روحانيا ما ورائيا، بقدر ما هي شارة مجردة. وبكلمة أخرى، إننا أمام تعبير عن الالوهة لا أمام رسم لصورة إله»(١٥).

إن الايقاع الأنثوي / الحيواني للباليوليت الأعلى سيبقى قوياً وسينتقل مستتراً إلى الميزوليت لكننا سنلمحه يظهر بقوة وشمول في النيوليت الذي ظهر مبكراً في الشرق الأدنى.

أما عقائد ما بعد الموت في الباليوليت الأعلى فقد تطورت عما كانت عليه في الأوسط واصبحنا نلمس بوضوح اعتقاد الإنسان بالحياة الأخرى، والرحلة إلى العالم الآخر بواسطة الدفن الشعائري المشحون بالطقوس لكن تقليد الدفن الباليوليتي الأوسط ظل قائماً حيث مازلنا نرى أن المدافن والقبور تقع ضمن منطقة سكن العائلة تحت ارضيات الكهوف وهذا ما عثر عليه في المواقع المكشوفة لجنوب روسيا وسهوب مورافيان(١٦). وهذا يعني إن الإنسان لم يبتكر اسلوب دفن الأموات في مقابر منفصلة إلى الآن.

إن التطور الملحوظ في الدفن الشعائري حصل من خلال صيغتين جديدتين هما:

١- تعاويذ المحار: حيث عثر في قبور الكهوف على قطع كثيرة من المحار التي يعتقد أنها كانت توضع وفق أشكال تعاويذية خاصة ففي أحد الملاجئ الصخرية في (لي ايزيس Les Eyzies) في فرنسا عثر على مجموعة مكونة من ثلاثمائة قطعة من المحار البحري كانت مثقبة ويبدو أنها كانت منظومة بالأصل بشكل عقود. وفي (لاكروت دي كافيلان) عثر على هيكل رجل مدفون بوضع القرفصاء وقد وضعت حول رأسه أكثر من ٢٠٠ قطعة محار (١٧).

٢- الصبغة الحمراء (المغرة) : حيث عثر على هياكل عظمية مطلية بمسحوق من هذه الصبغة التي ترمز إلى لون الدم وواضح منها أنها تدل على اعتقاد يخص بقاء الميت إلى ما بعد الموت. وربما تدل محاولة صبغ جثة الميت أوهيكله العظمي بهذه الصبغة إلى محاولة شحنهما بقوة الحياة التي كان يرى الإنسان الباليوليتي أنها تكمن في الدم أو في الصبغ المشابهة للدم مثل (المغرة) لكي تقوم وتنهض بعد الموت، أو تعاد ولادتها. وقد عثر على مثل هذا الطقس في عدد كبير من القبور المكتشفة في كريمالدي وبافيلاند وكلاموران وبرنو وغيرها [١٨].

مظاهر دين الباليوليت وتفسيرها

١- الشامانية

لقد عرضنا فيما سبق الأسس الجوهرية التي قام عليها الدين الباليوليتي في مختلف مراحله حيث تجلت صورة (المقدس) في انتقالات متساوقة من النار إلى الحيوان، إلى شعائر الدفن وشعائر الفن الكهوفي ونحت الدمى الأنثوية. وإذا كان (المقدس الباليوليتي) في بداية أمره هارباً متجلياً في نيران الغابات والبراكين فانه أصبح يقترب من الإنسان واستطاع الإنسان أن يتحسس وجوده في نار الكهوف والنار التي كان يحوزها سيد القوم أو الشامان، الذي بدا وكأنه الساحر والعراف والنبي والطبيب والحاكم لأنه كان قادراً على حيازه النار واضرامها والسيطرة عليها واقترب المقدس أكثر من الإنسان عندما تجلى في الحيوان واستطاع الإنسان اصطياده وحشد جسده به عن طريق الافتراس الطقوسي لسيد الحيوانات الذي كان أول شعيرة طوطمية.

وفي مرحلة لاحقة وجد الإنسان أن بأمكانه أن يشكل المقدس بيديه، وأن يعيد إنتاجه عن طريق الرسم، أو النحت، وهكذا أصبح المقدس مصنعاً منتجاً من قبل الإنسان، دالا على عقيدة داخلية أكثر من أن يكون دالاً على وجود خارجي متوتر أو مشحون بالقوة كما كانت عليه النار، أو الحيوان الفحل.

لكن التوتر والشحنة المقدسة ظلت باقية في رسومه ومنحوتاته وظل الجذر الحيواني ملاحقاً لها. ولذلك لاحظنا أن جداريات الكهوف ومنحوتاتها تضمنت هذا

التوتر المقدس، وتسربت لها الشحنة الحيوانية، أما الجديد في الأمر فهو تعبيرها عن معتقد داخلي استعان بالشكل الخارجي، ولكن مهيمنات الداخل ظلت هي الأساس..

إن فكرة سيد الحيوانات أو لورد الحيوانات اعطتنا في وقت من الأوقات فكرة عن الصلة المقدسة للإنسان بالحيوان، فهي ليست صلة تأليه، أو عبادة بالمعنى المعروف بل هي صلة سحرية، فالحيوان الماستر، أو العظيم من نوع حيواني معين، والذي كان الإنسان ينظر إليه بخشوع وخوف وهيبة يشير لكل ذلك النوع، وفي إقامة الصلة مع نموذج واحد منه يتولد الأحساس عند الإنسان بإقامة صلة مع النوع كله، وهذا مبدأ سحري كما نرى فالقانون السحري الأول الذي هو (قانون التشابه) يقضي بأن الشبيه ينتج الشبيه أو أن المعلول يشبه علته، وإن باستطاعة الساحر تحقيق الأهداف والنتائج التي يريدها عن طريق محاكاتها أو تقليدها، ولا شك أن الشكل البدائي لهذا القانون كان يقضي أن الإنسان عندما يسيطر على نموذج متميز من نوع حيواني فهو انما كان يسيطر على ذلك النوع الحيواني بأكمله. وقد فسر بعض الباحثين فكرة سيد الحيوانات على أساس افلاطوني أو يونغي [١٩] لكني أجد ان التفسير السحري هو الأدق خصوصاً أننا يمكن إرجاع بدايات السحر إلى ذلك العصر كأول ارهاصات دينية.

لاشك عندنا أيضاً أن ظهور الشامان في هذا العصر كان حاسماً في العقيدة الدينية، وقد ارتبطت به طقوس ومثولوجيات كثيرة، ومن الممكن أنه كان يقود عمليات الدفن الشعائري، ويوحي بالرحلة إلى العالم الآخر. وقد يأتي هذا كله ليس بسبب التقمص السحري للشامان بل بسبب القوى البراسايكولوجية التي يمتلكها رجال كانوا المؤهلين لأن يكونوا (شامان) عصورهم، ولذلك لا نستبعد أن يكون مثل هؤلاء الرجال قد تمثلوا القوى الخارقية واستعملوها باتجاهين: نافع أو مؤذ. ومن هنا لانستطيع في هذه المراحل التمييز بين السحر والبراسايكولوجيا لأنهما ينطلقان من بداية ظهورهما من أصل واحد، فلم يكن الساحر كاذباً أو مشعوذاً بل كان يملك قدرات حقيقية في التأثير، والإخضاع والحصول على النتائج التي يريدها [٢٠].

وقد لعب الشامان دوراً أساسياً في (طقوس التنشئة أو طقوس وشعائر العبور) حيث يخضع فيها الصبيان الذين يصلون إلى عتبة الشباب إلى طقوس وشعائر قاسية يقومون بها الشامانان ويشرفون عليها. ولا شك إن الباليوليت الأعلى شهد ظهور

(الرقص المقنع) الذي كان يقوم به الشامان أيضاً ومعه شامانات آخرون أقل منه مرتبة يتقمص فيه دور (سيد الحيوانات) ويلبس جزته أو جمجمته ويؤدي حركات تدل عليه.

إن الشامانية (Shamanism) هي عقيدة طقوسية سحرية تتمظهر في جميع أشكال الديانات السحرية (الفتيشية، والأرواحية، والطوطمية) ويكون محورها شخصية الشامان نفسه وقد شهدت هذه العقيدة تطوراً ملحوظاً منذ الباليوليت الأسفل حيث كان الشامان يقوم بالدور البروميثيوسي المرتبط بجلب النار والرؤى الشامانية المقدسة. ثم تطور دور الشامان في تقليد سيد الحيوانات في الباليوليت الأوسط ثم تطور في لوحات الكهوف في شكل شامان الصيد الأعظم حيث كان يظهر بعض الرجال المؤثرين في لوحات الكهوف وهم يرقصون، أو يرمون الحيوانات بالسهام، ولاشك أن هؤلاء كانوا هم كهنة ورجال دين الباليوليت وكانت توكل إليهم مهام عديدة.

٢- الإلهة الأم أو سيدة الماموث

إذا كان (سيد الحيوان) وممثله (الشامان) قد شغلا الجزء الأعظم من الباليوليت فإن المرأة ممثلة بالآلهة الأم أو سيدة الماموث التي ظهرت في دمى لاوسيل وليسبوغ ووليندروف شغلت القسم الأخير القليل منه. ومن البديهي أن نرى هذا الحضور الأنثوي المحدود في نهاية الباليوليت لان القاعدة الروحية للإنسان اتسعت واصبحت تنظر لعناصر الخصب الجسدي والولادة والتكاثر أمراً لايقل أهمية عن عناصر الغذاء والماء، ولذلك انعكس ذلك على العقائد الدينية.

إن الشكل الديني لجمع القوت والصيد، الذي كان من اختصاص الرجل، انعكس في شخصية الشامان وسيد الحيوانات والتجلي الذكوري للمقدس من النار إلى الحيوان إلى معابد الباليوليت الكهفية.

ومن معابد الباليوليت هذه تحديداً لمحنا عنصراً لاوعياً يضع الرموز الأنثوية في المركز محاطة بالرموز الذكورية. وهذا الاجراء يدل بلا شك على رقي وتطور في العقيدة الدينية يتبعه في ذلك ويتوجه ظهر دمى الآلهات الأم التي تشبه الماموث.

ومن هذين العنصرين الأنثويين يبدأ ثلم السيادة الذكورية المطلقة على الباليوليت

لينفتح أمامنا عصر جديد يضع الأنثى في المركز تماماً ويعلن سيادة أنثوية مطلقة (في النيوليت) سرعان ما يطاح بها لتعود السيادة الذكورية (في الكالكوليت). ويشير لنا تبادل الأدوار هذا إلى جدل الحياة وخصبها، ومحاولة صعودها باتجاه تفتح حضاري كبير.

٣- اسكاتولوجيا الباليوليت

الاسكاتولوجيا Eschatology : هي دراسة عقائد الموت، أي ما يعتقده الإنسان عن الموت ويشمل ذلك عقائد وطقوس وأساطير ما قبل الموت، والموت، وما بعده، تشكل الاسكاتولوجيا واحدة من أسس أي دين، سواء كان في فترات ما قبل التاريخ، أو في الحضارات التاريخية.

وقد ظهرت الاسكاتولوجيا قبل ظهور المثولوجيا على شكل معتقدات وطقوس وشعائر تخص الموت. فقد شهد الباليوليت الأوسط ظهورها وتطورت من عادات الدفن المقدس التي تشير إلى دفن الإنسان، والحيوان، والنار، والفأس، وغيرها. من أجل توفير حماية روحية للميت، وقد تشكل هذه الطقوس بذور أول عقائد ما بعد الموت وربما الخلود.

لكن اسكاتولوجيا الباليوليت الأعلى تتطور كثيراً وتظهر تعاويذ المحار وصبغ الميت بالمغرة الحمراء دليلاً على نشدان بقاء أعلى للإنسان وحفظ روحي ومادي أفضل لجثته.

المهم إن عقيدة الموت قد تكونت وأصبحت جزءاً مهماً من الدين الباليوليتي، وفي هذا تطور كبير بدأ يطرأ على العقيدة الدينية بأكملها.

٤- عالم الرحم وعناصر الدين الأولى

لو تأملنا جيداً في عنصر دين الباليوليت منذ بدايته حتى مشارفته على الانتهاء. فإننا نلمح بصورة اجمالية أن هناك مجموعة من العناصر الأولية الأساسية قد ظهرت كجزء من شبكة هذا الدين ومكوناته. ويمكننا القول إن (النار، الحيوان، المدفن، الكهف، المعبد الكهفي، تعاويذ المحار، الصبغة الحمراء، الرسوم، الدمى الأنثوية). هي أهم هذه

العناصر فإذا تأملنا فيها جيداً لرأينا أن هذه العناصر تبدو كما لو أنها تشكل عالم الرحم عند المرأة.

فالنار دلالة على دفء الرحم وحرارته الثابتة، والحيوان دلالة على التشكل الجنيني الأول الذي هو واحد في جميع الحيوانات ذوات الرحم ويقترب من الشكل الحيواني في تلك البدايات.

أما المدافن والكهف والمعابد الكهفية فهي الرحم نفسه التي لجأ إليه الإنسان في حياته وعبادته، ويعطي الكهف صورة رمزية للرحم الذي يختبئ في أحشاء الجسد ويخفي فيه أسرار الحياة والولادة، ولاشك أن جدران الكهوف التي جسدت الرسوم الأولى للإنسان بهيوليتها وأشكالها النافرة والتجريدية أحياناً تعبر عن تلك الرؤى والأطياف الأولى لعالم الرحم الذي يزخر بعناصر التوتر والحياة.

وتعبر التعاويذ المحارية عن حياة الماء الأولى، وعن سوائل الرحم ومادته أما الصبغة الحمراء، فتشير إلى الدم الذي هو قوة وحياة وغذاء وسمة عالم الرحم.

ومن الطريف أن ينتهي هذا المشهد الرحمي بولادة مولود جديد هو الدمى الأنثوية، التي تعبر عن استمرار الحياة لكون الأنثى هي منجبة الحياة، وحاضنتها ويحيلنا هذا المشهد الرحمي أيضاً إلى فكرة أو صورة الفردوس، أو الجنة، رغم أن الباليوليت لم يكن فردوساً للإنسان، بل كان محطات عناء وجهاد كبيرة، لكن النظرة الاجمالية لعناصرة وسيادة الكسل والارتماء المطلق في احضان الطبيعة توحي بمثل هذا.. فالإنسان عاش على بساتين وثمار وأنهار وغذاء لم يكن له دور في صنعها، بل وجدها جاهزةً أمامه. ولا شك أن هذا المشهد الرحمي / الفردوسي سيستمر في النيوليت ليسقط الإنسان فيه بعد ذلك إلى الأرض التي سيبذل جهداً أكبر في تنظيم ريها وزراعتها واستخدامها.

هوامش ومصادر الفصل الثاني:

١- انظر ليرمان ، روبرت ل : الطريق الطويل إلى الإنسان. ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، نيويورك، ١٩٦٣.

2-Campbell, Joseph: The masks of god: Primitive mythlology. viking press, New York, 1959. p. 359.

وهناك من لا يذكر الأدوات العظمية ويقتصر على الأدوات الحصوية في الإشارة إلى نتاج عصر الايوليت.

٣- عدة مصادر سوفيتية : الميثولوجيا ونشوء العبادات القديمة. ترجمة د. حسان إسحاق، دمشق، الابجدية للنشر، ١٩٩٣، ص ٣٥.

٤- تروي الأسطورة اليونانية إن بروميثيوس كان إلهاً مضاداً تمرد على الآلهة وأخذ النار واعطاها للإنسان الأول وعلمه كيف يستعملها، ويصف جوزيف كامبل في كتابه المذكور في الهامش رقم (٢) اقنعة الله الإنسان الأول بأنه يشبه بروميثيوس بسبب حيازته للنار ومكاسبها.

٥- السواح، فراس : دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني). منشورات دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٤، ص ٨٨.

6-Campbell, Joseph: The masks of god: Primitive mythlology. p. 339.

٧- انظر فرويد، سيجموند : الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الطليعة، بيروت (١٩٨٣). ويرى رينيه جيرار أن طقس التضحية والقربان كان وسيلة لتجنب العنف، لأن مصدر العنف وموضوعه هو الإنسان لذلك نرى بأن القربان يقف بين الإنسان والعنف الموجه لإنسان آخر، وبذلك يتحول مجرى العنف إلى القربان الحيواني. يراجع في ذلك كتاب القداسة والعنف لجيرار.

٨- انظر توينبي، ارنولد : تاريخ البشرية جـ١، ترجمة د، نقولا زيادة. الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٩.

٩- تنظر المصادر التالية :

Clark, Graham and Stuart piggott: Prehistoric Socictics, Landon. 1965.

Clark, Graham : Wolld prehistory, Landon 1960

Hawkes , Jacquetta and sir Leondotd woolley: the begining of Civilization, 1, London 1963.

١٠- حنون ، نائل : عقائد ما بعد الموت، ط٢ دائرة الشؤون الثقافية العامة بغداد، ١٩٨٦ ص ٣٢.

١١- انظر كورهان، آرليت لوروا : إنسان نياندرتال في كهف شانيدر. ترجمة جميل حمودي، مجلة سومر المجلد ٢٥، ١٩٦٩ ص ص ٢٧٤-٢٧٥.

وانظر أيضاً الماجدي، خزعل: الطب وعلاقته بالسحر والأسطورة والدين في تراث وادي الرافدين ، رسالة دكتوراه، بغداد ١٩٩٦.

١٢– هناك في السحر قانونان الأول هو قانون التشابه الذي يقضي بأن الشبيه ينتج الشبيه، أو أن المعلول ينتج علته وأن باستطاعة الساحر تحقيق الأهداف والنتائج التي يريدها عن طريق محاكاتها، أو تقليدها، أما القانون الثاني فهو قانون الاتصال.

١٣– انظر كتاب السواح، فراس : دين الإنسان ص ١٤٥ وانظر كتاب كورهان Gourhan, Leroi A.: Prehistoite de an occidental, paris, mazonod , 1971.

١٤– السواح ، فراس : دين الإنسان ص ١٥٠.

١٥– المرجع السابق ص ١٥٦.

16-Clark, Grahan and stuart piggatt: Prehistoric Societies, London 1965.

17-James, Edwin O. : Myth and Ritual in Ancient Near East, London 1958 P. 33.

18-Levy, Gertrude R. : The gate of horn, London 1935.

١٩– كما فعل ذلك جوزيف كامبل في أقنعة الله، وفراس السواح في دين الإنسان.

٢٠– انظر الماجدي، خزعل : الطب، وعلاقته بالسحر، والأسطورة، والدين في تراث وادي الرافدين. رسالة دكتوراه ، بغداد، ١٩٩٦ ، حيث يقسم حقول السحر إلى الحقول البراسايكولوجيه، والتعاطفية، والكاذبة.



الفصل الثالث

دين الميزوليت
(دين الرعاة)

دين الميزوليت
(دين الرعاة)

ذاب جليد فُرم في أوروبا وانتهى آخر عصر جليدي عرفه الإنسان حتى الآن. (العصر الجليدي الرابع)، وبدأ عصر غير جليدي دافئ نسبياً في أوروبا وموسمي المطر في الشرق الأدنى... وكان من علامات هذا العصر الجديد (الذي مازلنا نعيش فيه) أن شجع الإنسان على الهجرة والابتكار معاً. أصبح لهذا العصر (الميزوليت) تاريخان الأول أوروبي ، يمثل امتداداً للباليوليت الأعلى وتقاليده وثقافته، والثاني مشرقي ظهرت فيه تحولات نوعية مهدت لنقلة جديدة باتجاه العصر الحجري الحديث (النيوليت).

وسادت في كلا التاريخين الصناعات الحجرية الدقيقة (المايكروليث Microlith) التي تميزت بدقة الحجم والصنع.

وفي هذا العصر بدأت أولى محاولات الإنسان لتدجين الحيوان وتدجين وخزن الحبوب والثمار واختفت بالتدريج حيوانات الصيد الكبيرة التي اعتاد الصيادون قتلها بتعاون مجموعات منهم في أكثر المناطق وحلت محلها الحيوانات التي تعيش في الوقت الحاضر وبكلمة أخرى بدأ عهد الصيد بالانحسار نسبياً وظهر عصر الرعي والرعاة.

كذلك فقد ظهرت مناطق استيطان جديدة قرب الشواطئ والأنهار ومصباتها وعند العيون والينابيع وفي السهول الرملية بعد أن انتفت الحاجة إلى الكهوف والملاجئ الصخرية والغابات.

ويبدو إن هناك محاولات كثيرة بذلت لزراعة النباتات في هذا العصر ولكن الزراعة بالمعنى المعروف لم تحصل إلا مع بداية الألف التاسع ق. م. إن أول الحيوانات المدجنة كانت الماعز والاغنام والخنازير البرية [1].

ثقافات الميزوليت الغربي والشرقي

١- الميزوليت الغربي [2]:

أ- الثقافات المماثلة للعصر الحجري القديم.

١- الثقافة الأزيلية Azilian: في فرنسا وهم جامعو قوت دجنوا الكلاب فقط وأدواتهم الصوانية صغيرة، و استعملوا القرون والعظام وصنعوا الشص واستعملوا حصى الكوارتز المنقوش والمصبوغ بالأحمر.

٢- الثقافة الاستورية Asturian: في اسبانيا وقد عاشوا على القواقع وعملوا أدواتهم الحجرية من الحصى.

٣- الثقافة التاردينوسية Tardenosian: في معظم أوروبا وربما دخلت إلى شمال أفريقيا وميزتها استخدام الأدوات الصغيرة ذات الأشكال الهندسية كالمثلث والهلال.

٤- ثقافة صيادي غزال الرنه: وهم بقايا الجماعات الاوريكناسية المجدلينية والذين اتبعوا هذا الحيوان عند هجرته إلى الشمال بعد اعتدال المناخ ودفئه وعاشوا في الغابات وصنعوا الاقواس والسهام والشص.

ب - الثقافات القروية من العصر الحجري الحديث

١ - الثقافة الماجلموسية Maglemosean: عاشوا في غابات مستنقعية في الجزر البريطانية إلى فلندة والدنمارك والمانيا وجنوب السويد، أهم مهنهم صيد السمك والحيوانات وتدجين الكلاب.

٢- الثقافة الارتبولية Ertbolle: وتسمى أيضاً ثقافة فضلات المطابخ الذين عاشوا على شواطئ البحر في الدنمارك وصناعاتهم من اصداف المحار والصوان والعظام، وعاش في غاباتهم الغزال الأحمر، وغزال الرو، والخنزير الوحشي والثعلب الوحشي. وصنعوا السكاكين والصحون والاوعية، والجرار وكان فخارهم خاص وغامق اللون.

٣- الثقافة المقبضية Tanged-point : في منطقة البلطيق وسميوا بهذا الاسم لإنهم وضعوا نهايات الصوان في قبضة الرمح.وانتشرت هذه الثقافة في غرب روسيا والمناطق المطلة على البحر الأسود.

الميزوليت الغربي	الميزوليت الشرقي
أ-الثقافات القرية من الباليوليت ١- الازيلية ٢- الاسعورية ٣- التاردينوسية ٤- ثقافة صيادي غزال الرنة ب - الثقافات القرية من النيوليت ١- الماجلموسية ٢- الارتبولية ٣- المقبضية	أ- الثقافات الرافدينية الشمالية ١- الزرزية ٢- زاوي - جمي ٣- كريم شهر ٤- ملفعات وكردي جاي ب - الثقافات الشامية ١- الكبارية ٢- النطوفية ج - الثقافة المصرية (حلوان) د - الثقافة الإيرانية (كهف الحزام)

جدول (٦) يوضح ثقافات الميزوليت الغربي والشرقي.

٢- الميزوليت الشرقي :

أ - الثقافات الرافدينية الشمالية (٣)

١- الثقافة الزرزية : نسبة إلى كهف زرزي في السليمانية وقد وجدت أدواته الحجرية الخاصة في عدة أماكن في شمالي العراق، بعضها كهوف وملاجئ جبلية، وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات في الأرض المكشوفة. ومنها كهوف زرزي وباولي كورا وشانيدر B. وفيها ظهرت البوادر الأولى للزراعة التجريبية وتدجين الحيوانات.

٢- ثقافة زاوي - جمي : وفيها ظهرت أقدم قرية من نوعها في العالم وتقع قرية زاوي - جمي على ضفة الزاب الأعلى، ويتألف بقايا السكنى فيها من جدران من الطين غير المنتظمة. شيدت على أسس من حجارة الحصى الكبيرة، ووجدت كذلك معالم أكواخ مستديرة. وهذه أول إشارة في التاريخ لوجود البيوت السكنية، وعثر فيها على مواد منزلية بدائية كاحجار الدق، والسحق، الهاون، واحجار الرحى التي كانت تستعمل البذور، والاثمار، وفيها تم تدجين الاغنام،ويضاهي تاريخها الزمن المقدر للدور النطوفي الذي سنأتي عليه .

٣- ثقافة كريم شهر : قرب جمجمال عثر فيه على أدوات زراعية مثل المناجل المصنوعة من نصال الصوان، والمعازق أو الفؤوس الحجرية للحراثة واحجار الرحى.

٤- ثقافة ملفعات وكردي - جاي: تزداد يوماً بعد آخر أهمية موقع ملفعات التي يرجح أنها قبل جرمو كانت موقع الانقلاب النيوليثي، أو ترافعت معه وقد وجدت فيها قرية من بيوت محفورة في الأرض ذات جدران مدورة مشيدة بالحجارة غير المهندمة وذات تباليط من الحصى والحجارة.

ب – الثقافات الشامية

١– الثقافة الكبارية : نسبة إلى مغارة (كبارا) جنوب الجبال الفلسطينية وقد مثلته في الأردن،وادي الحمة ووادي الحسا والحسمى الشمالية ووادي المدمغ والخزانه ووادي جيلات،وتمتاز هذه الثقافة بصناعة الأدوات الصوانية، والمدبية، والمكاشط، والمخارز، والمسننات وتدجين الغزلان، والخنازير، والأرانب، والثعالب، والطيور.

٢– الثقافة النطوفية : نسبة إلى (وادي النطوف) شمال غربي القدس في كهف اسمه الشقية، وتعتبر الثقافة النطوفية أعلى ذروة ميزوليتية فقد استطاع الإنسان تعلم الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار الساذج، وكذلك تطورت الديانة النطوفية بشكل واضح.

ج – الثقافة المصرية وتركزت في منطقة حلوان.

د– الثقافة الإيرانية: التي وجدت في كهف الحزام الذي يقع على السواحل الجنوبية لبحر قزوين وهي على العموم تشبه تلك التي وجدت في فلسطين والعراق.

مظاهر دين الميزوليت

هل يمكن أن نطلق على عقائد وعبادات فترة الأربعة آلاف سنة، والتي هي عمر الميزوليت،اسم ديانة متميزة تقع بين ديانتي الباليوليت والنيوليت؟

هذا السؤال يمكن الإجابة عليه بدقة عندما ندرس طبيعة ثقافة الميزوليت عموماً وإمكانية تميزها عن ما سبقها وما تلاها، وللاجابة الدقيقة نقول إنها خليط من الاثنين وهي خليط نوعي لأن فيها عناصر ستختفي تدريجياً في ثقافة النيوليت. ويمكننا من حيث المبدأ دراسة مظاهر دين الميزوليت كما يلي:

١– نشاط العقائد السحرية وظهور دور المرأة فيها : لاشك إن العقائد أو الديانات السحرية ظهرت في معظمها أثناء الباليوليت إلا أن ممارساتها كانت تزداد نشاطاً كلما اتجهنا نحو النيوليت، وقد شهد عصر الميزوليت نشاطاً سحرياً واسعاً بسبب بدء استقرار

الإنسان في المستوطنات والقرى وحاجته للسيطرة التدريجية على عوامل الطبيعة عن طريق العلم الأول الذي هو السحر، وإذا كنا سنتفصل في شرح وتوضيح العقائد السحرية الأساسية وهي (الفتيشية والأرواحية، أو الإنيمية، والطوطمية) في كتاب مفصّل فإننا لابد أن نشير إلى أن الفتيشية تعني الاعتقاد بقوة الأشياء، وأن التمائم، والخرز، والاحجار كانت مادتها وكان الإنسان يعتقد أن قوة الكون كله تكمن فيها وأنها تؤثر على ما حولها ولذلك كان الإنسان يرتديها وهو يخوض في عمليات الصيد أو الرعي لتحافظ على حياته.

أما الأرواحية (الأنيمية) فهي الاعتقاد بان لأرواح تملأ العالم المحيط بالإنسان كله وإنها يمكن أن تحل في أي شيء، جامد أو نباتي، أو حيواني، وأنه لابد من اقامة الطقوس للتعامل الحسن مع هذه الأرواح.

أما الطوطمية فهي عبادة سحرية متطورة عن عبادة الحيوان التي سادت في الباليوليت ويحركها الاعتقاد بأن بعض الحيوانات والنباتات وبعض الأشكال المادية وظواهر الطبيعة هي الجد الأول والحامي لجماعات بشرية معينة تربطها أواصر القربى.

ولا شك إن المعتقدات الشامانية التي اتينا على ذكرها في الباليوليت استمرت هنا واصبح الأشخاص الخارقو القوة، بإمكانهم الاتصال بالارواح وتسخير هذه الارواح لأعمال كثيرة كالصيد واستنزال المطر والشفاء من بعض الأمراض ومواجهة الكوارث وحل النزاعات، وربما أصبح الشامان في هذه الفترة الزعيم الديني، والاجتماعي للجماعة. (انظر مناظرالصيد، والرقص الميزوليتي، شكل ١١، ١٢، ١٣).

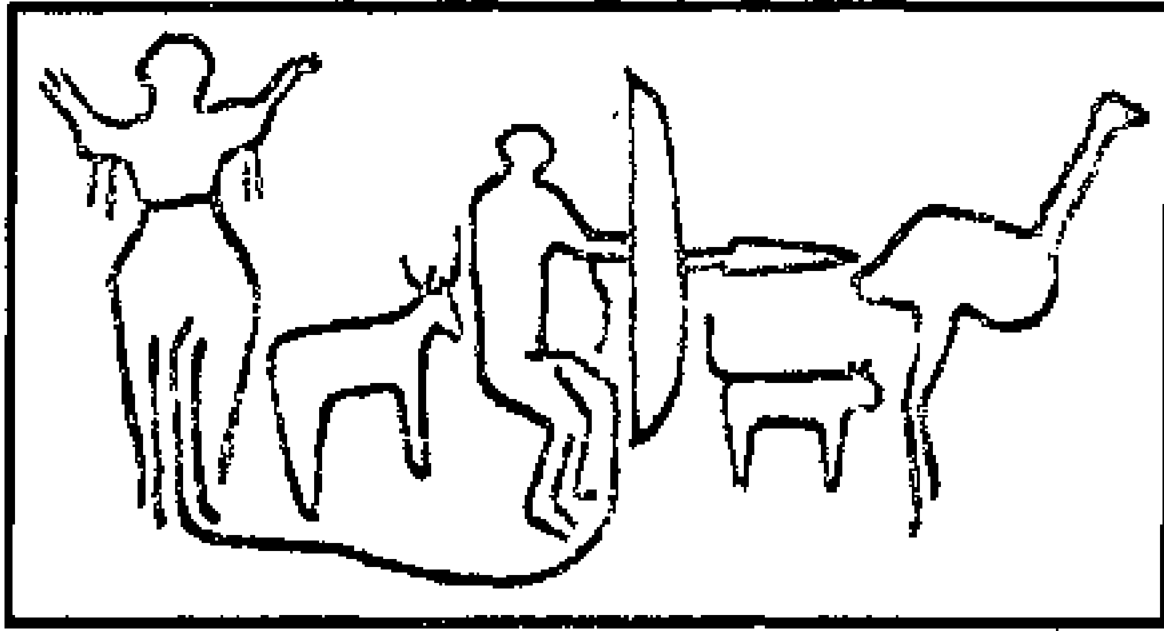
ومن المعتقدات الشامانية ظهرت عبادة زعماء القبائل، الذين أضفيت عليهم صفات خارقة، ووجهت لهم طقوس ومراسيم وشعائر زادت من قوتهم.

ولا نستبعد أن معتقدات عبادة الطبيعة وظواهرها كالشمس والقمر والنجوم والبرق والمطر وجدت في مثل هذا العصر ولكنها لم ترتفع عن العبادة المباشرة لهذه الظواهر دون ان ترقى إلى مفهوم الألوهية.

وكنتيجة للعبادات الشامانية والزعماء ظهرت مع الوقت عبادة الاجداد التي تنشأ

عن التقديس أو الاحترام المبالغ به لأجداد القبيلة الأوائل ويأخذ هذا التقديس شكلاً صلباً كلما تقادم الوقت بسبب ازدياد التهويل والمبالغات والأساطير عن هؤلاء الاجداد ورغبة القبيلة في التماسك والتراصف حول مركز روحي لها.

وفي الممارسات السحرية يظهر دور المرأة استمراراً لبدء اكتشاف قواها الأنثوية التكاثرية الذي شهدناه في الباليوليت الأعلى، بعد أن كان السحر حكراً على الرجل، ويتجسد هذا الدور ويتعزز من خلال دور المرأة الجديد الذي حتم عليها البقاء في القرى لرعاية ابنائها، وعنايتها بالحبوب والبذور والفواكه ودورها في تهيئة الطعام وفي النقش على الحجر الذي يعود إلى نهايات الباليوليت وبدايات الميزوليت (شكل رقم ٨) نرى مشهدين الأول للرجل وهو يطلق سهمه من قوسه على طرائده،والثاني للمرأة وهي تمارس طقساً سحرياً يمد الرجل بالقوة حيث تظهر المرأة رافعة ذراعيها للأعلى لتطلق قوتها السحرية نحو الرجل عن طريق أعضائها الجنسية التي يربطها باعضاء الرجل الجنسية خيط واضح، وتبدو المرأة في الشكل أكبر حجماً وأكثر هيمنة على المشهد.



شكل (٨) ساحرة الميزوليت – شمال أفريقيا

وهناك لوحات ميزوليتية مشابهه للصيد عثر عليها في قرية جاوه في الأردن.

كذلك نظن بأن عبادة الجماجم التي سنلمح امتدادها في ثقافة أريحا الينوليثية وجدت قبل ذلك في حضارة ازيلية أوروبية في اوفنت في بافاريا في مدافن وضعت في الأولى ست جماجم مقطوعة من جثثها، وفي الثانية (٢٧) جمجمة جميعها مرتبة نحو جهة الغرب، ومغطاة بالصبغ الأحمر وفي بعض الجماجم لاتزال عظام العنق موجودة مما يدل على قطعهم لها مع الرقبة (٤).

٢- **الميغاليت** Megalith: لعل الانصاب أو الشواخص الميغاليثية (وهي احجار كبيرة) هي من أكثر الأشياء جدلاً بين العلماء حول بدايتها ومرجعية عصرها... فهذه العبادة التي نلمحها منتشرة في الكثير من الاصقاع الأوروبية في الألفين الثالث والرابع قبل الميلاد، كانت من أصل مشرقي يرى العلماء أنه يعود أما إلى عصور نيولتينة أو ميزوليتية. ولكن الأخيرة هي الأرجح.

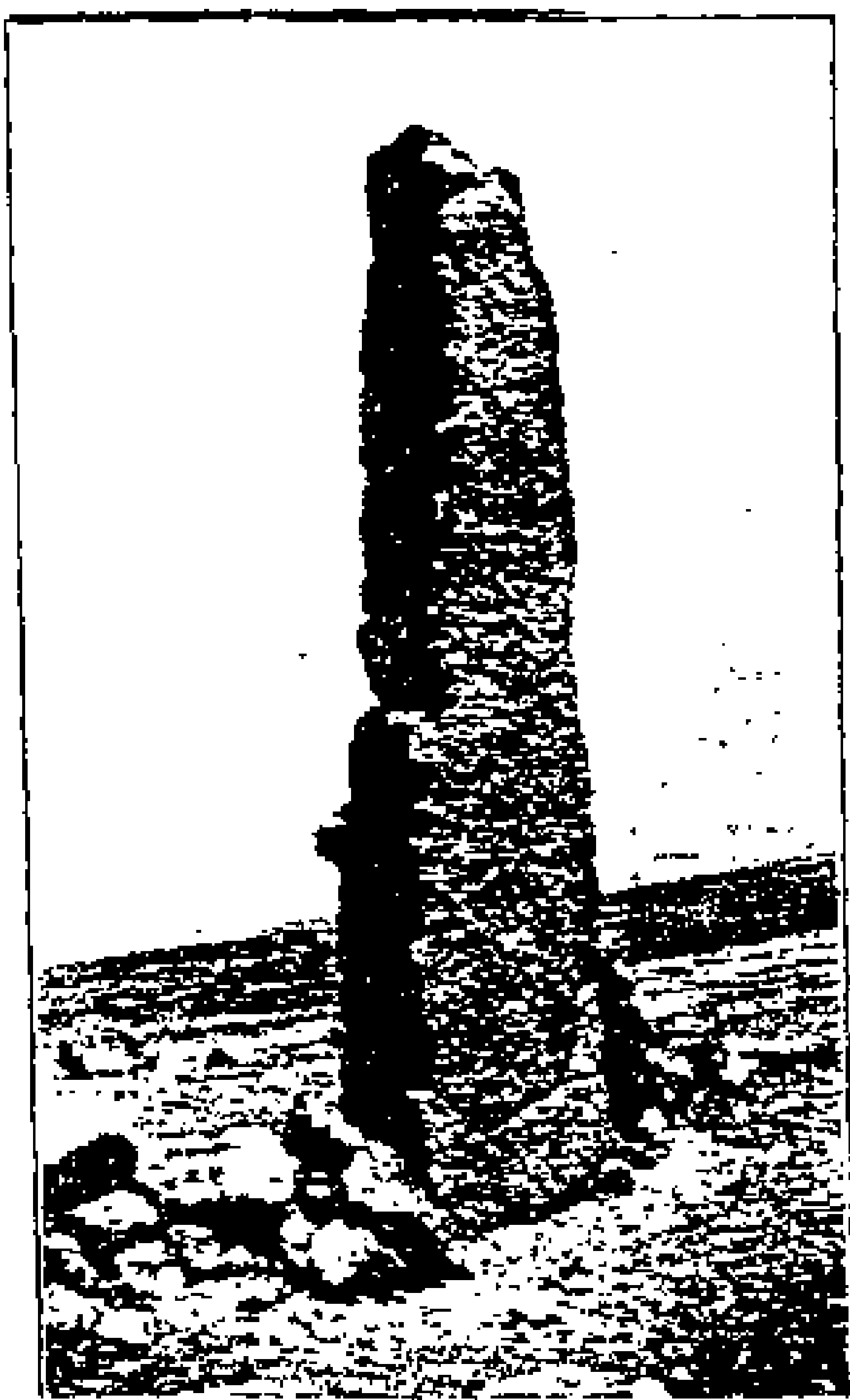
لقد نشأت هذه الاحجار الميغاليثية (حجر= lith، كبير = Mega) كواحدة من أماكن العبادة أو كمقابر تشير إلى شخصيات مهمة. فهي بلا شك اشارات دينية لكننا مازلنا نجهل أن كانت تعبد لذاتها، أو لأنها تشير إلى شيء آخر.

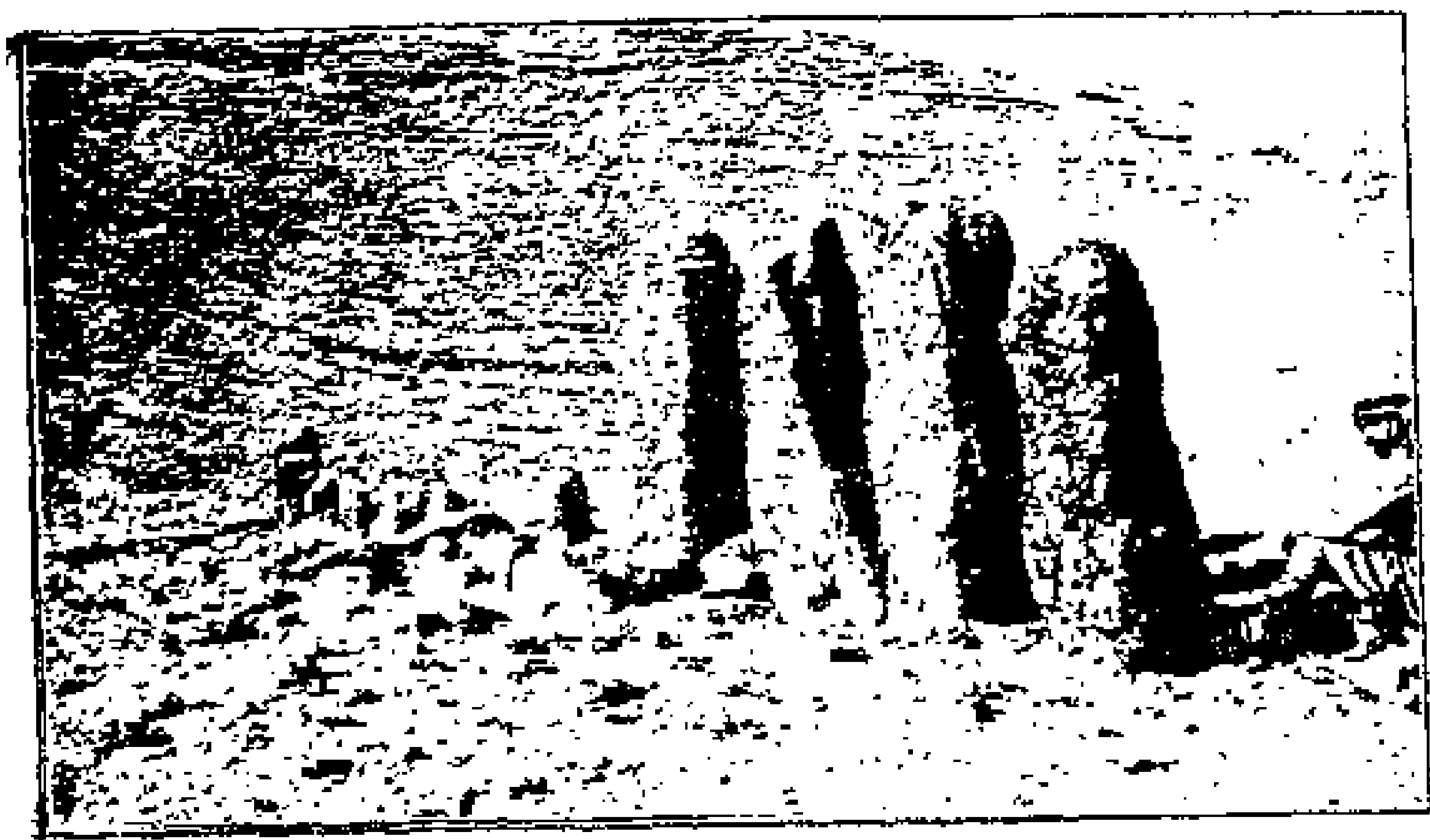
وتظهر الأنصاب الحجرية (المغاليث) بشكل خاص في بلاد الشام (فلسطين، والأردن) (شكل ٩) وقد تشغل الجذر الأول لهياكل العراء التي ظهرت في فترات لاحقه، ويمكن تصنيف الميغاليث إلى ثلاثة أنواع:

١– الدولمن (المناضد الحجرية) Dolmen : وهي كلمة بريتونية حديثة تشير إلى احجار غير عاليه تشبه المنضدة، وقد صارت الدولمن فيما بعد أكثر تعقيداً وتتألف من غرف متعددة ملحقة بها.

٢– المنهير Menhir: وهي كلمة بريتونية أيضاً معناها الحجر الطويل حيث نراها كأحجار طويلة قد تصل إلى (٥ قدم) منتصبة بمفردها، وقد نراها مرتبة على شكل دائرة اطلق عليها اسم كرومليش Ctomlech.

٣– الاحواض أو الدوائر الحجرية : وتكون على شكل احجار مستديرة تشبه الاحواض الكبيرة.





شكل (٩) أنصاب ومناهير مختلفة وجدت في الأردن وفلسطين.

وقد سرى الاعتقاد بأن هذه الانصاب قد بنيت من قبل عمالقة من البشر ونجد صدى لهذا في العهد القديم وترفضه الادلة الحديثة. لقد دلت الميغاليث بالإضافة إلى كونها أماكن عبادة إلى طريقة معنية في دفن الموتى ويتربع ذلك على نظام من المعتقدات الدينية والمثولوجية التي كانت غالباً ما تقرن بالتضحية والقرابين الحيوانية وربما البشرية. ورغم أن الديانة الميغاليتية لم تحظ بدراسة واسعة إلا أنها تؤشر واحدة من أهم عقائد الإنسان القديم حول الموت وما بعده فهي ترتبط بالمدافن والمعابد والقبور الضخمة قبل ظهور المعابد بشكلها المعروف وقد وجدت الكثير من هذه الانصاب في الأردن قرب تليلات الغسول، وفي حسبان وشرقي جرش وحوالي اربد(٥).

٣- إسكاتولوجيا الميزوليت :

إذا كانت الميغاليت قد شكلت جانباً واحداً من عقائد الإسكاتولوجيا الميزوليتية (عقائد الموت)، فإن هناك تطورات طفيفة قد حصلت في الجوانب الاخرى، فالثقافة النطوفية تدلنا على مدافن بشرية تحتوي على قلائد محارية وقد صبغت الهياكل باللون الأحمر (شكل ١٠).



شكل (١٠) ضريح نطوفي قديم في اريحا. تمثل الفجوات المستديرة على الأرض المطلية بالجص حفراً للتخزين، وتعتبر الجاروشة دليلاً على إعداد الأغذية النباتية وعلى زراعتها أصلاً في الألف التاسع قبل الميلاد.

وبدأت تظهر في الميزوليت المواد المنزلية والاسلحة الحجرية في المدافن والمقابر باتجاه وضوح أشد بعقائد ما بعد الموت. لكننا لانستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك.

٤- الدمى الحيوانية والبشرية :

يعود النحت لأول مرة بعد انقطاع طويل... وقد امتازت الثقافة النطوفية به في وقت مبكر فهناك تماثيل لحيوانات كالكلب، أو الأيل والتي يظهر إن الإنسان قد دجنها في هذه المرحلة، وهناك أيضاً، رأس الحيوان المنقوش على المنجل من الثقافة الكبارية (شكل ١٤).

أما التماثيل البشرية فنجدها في أشكال شبه بشرية من عين الملاحة (شكل ١٥) وفي أشكال بشرية واضحة من عين مغارة الواد (شكل ١٥) وفي عينان ورأس العزال، لكن التمثال الصغير لـ (العاشقان) من عين صخري شكل (١٦) هو الأكثر إثارة وجمالاً وهو يدل على عبادة أو عقيدة الإنسان ازاء الجنس.

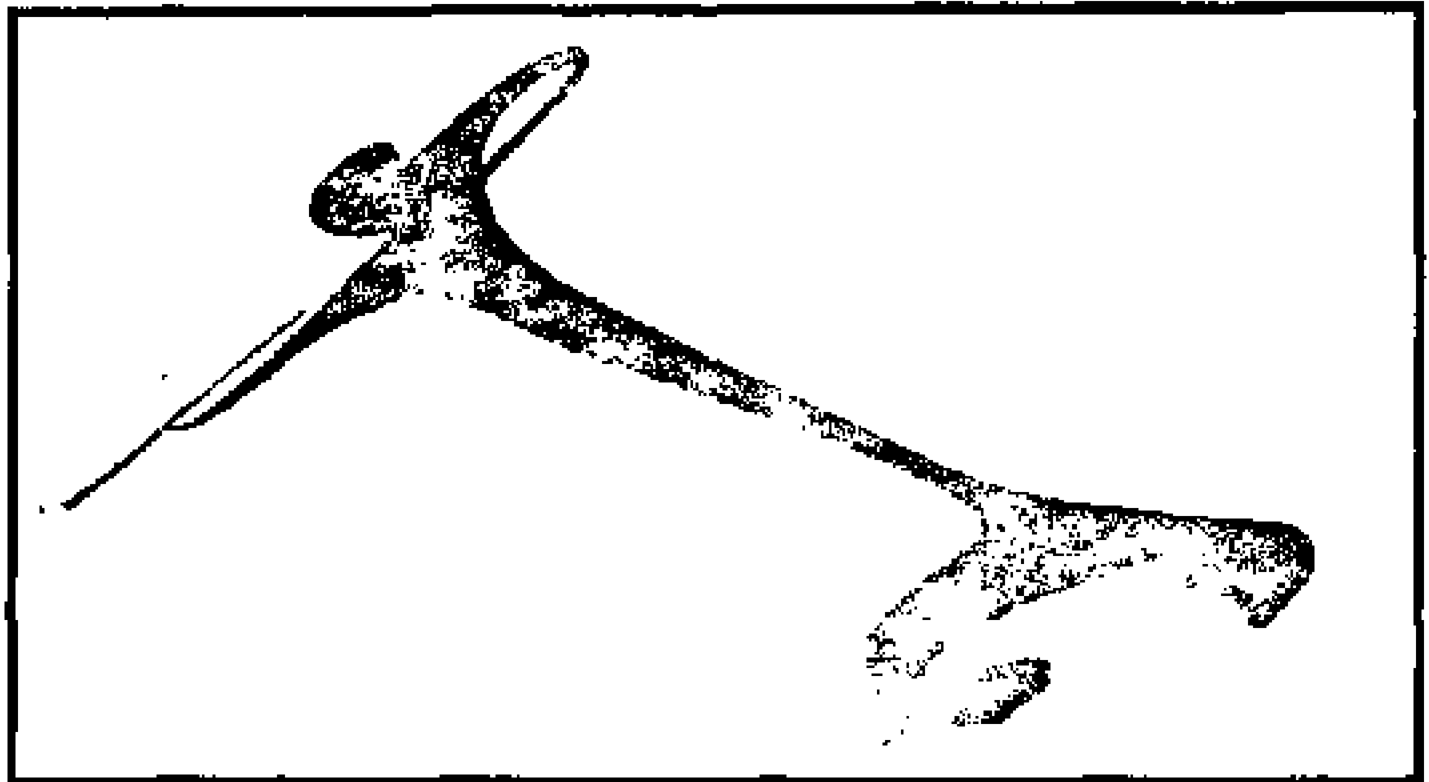


شكل (١١) منظر صيد ميزوليتي - كاستاليون

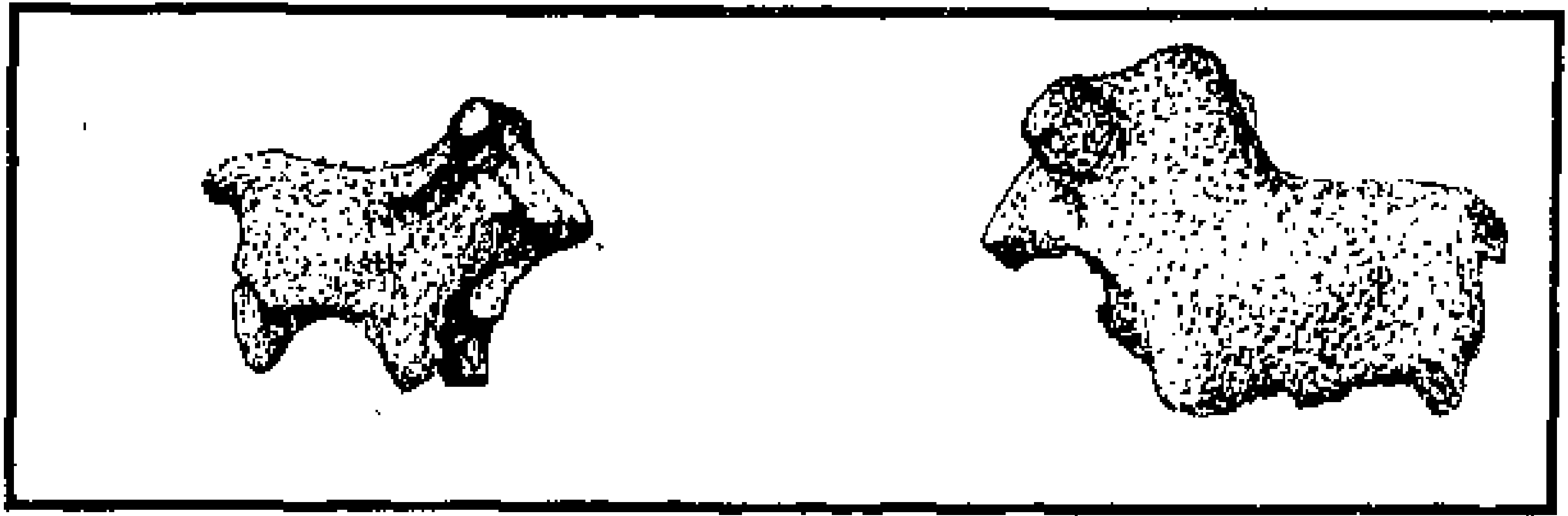
شكل (١٢) نساء يرقصن بمظهر ساحرات من الميزوليت - كاستاليون



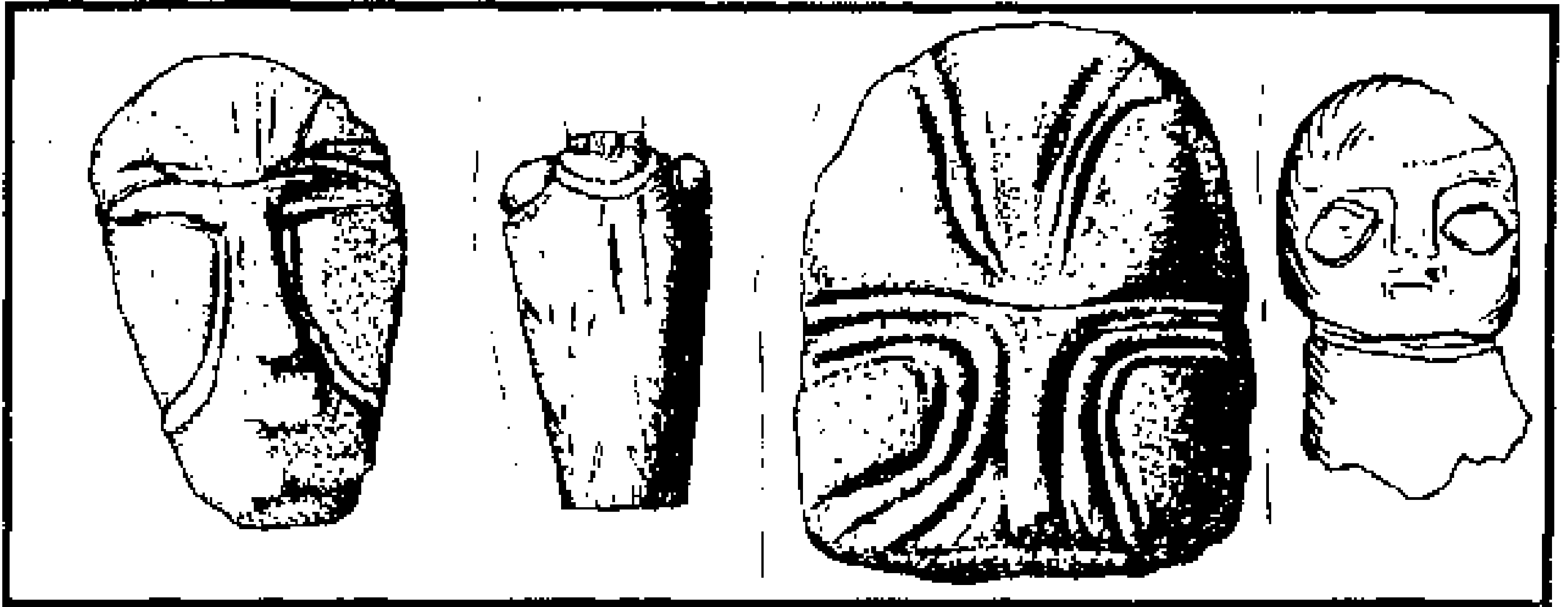
شكل (١٢) نساء يرقصن بمظهر ساحرات من الميزوليت - كاستاليون



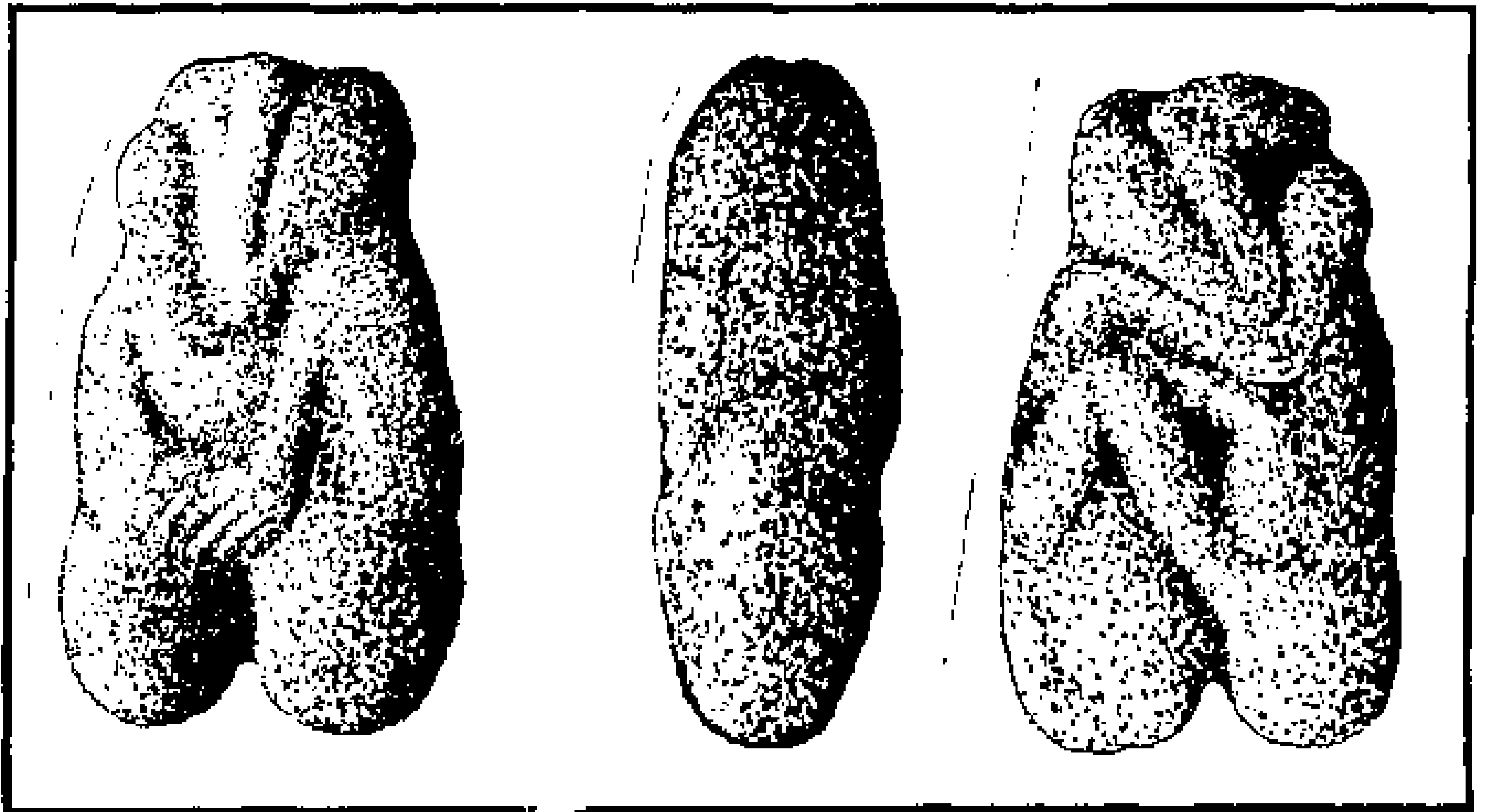
شكل (١٣) رجل مع رمحه من الميزوليت كاستاليون



شكل (١٤) حيوانات طينية من المنحطة.



شكل (١٥) تماثيل نطوفية بشرية من عين الملاحة ومن مغارة الواد.



شكل (١٦) تمثال (العاشقان) من عين صخري.

هوامش ومصادر

١- انظر الدباغ ، د. تقي والجادر، د. وليد : عصور قبل التاريخ مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٣، ص ص ١٢٥-١٢٩.

2-Silverbery, Robert : The morning of mankind, New York 1967,-

Burkitt, Miles :The old stone Age, New York 1963.

Coon, Carleton S. : The seven caves, New York 1957.

٣- باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. دار البيان ، بغداد، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٣ ص ١٨٣.

٤- الأحمد ، سامي سعيد : العراق القديم ط ١. كلية الآداب. جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٨ ص ١١٧.

٥- الماجدي ، خزعل: ميثولوجيا الأردن القديم. وزارة السياحة والآثار في الأردن عمان ١٩٩٧.



دين النيوليت
(دين الفلاحين)

ثقافات النيوليت : أقسامها ومواقعها

كان تدجين الحيوانات، وخزن وتدجين الحبوب البرية في نهاية الميزوليت قد وصل إلى ذروته، وكان هذا يشير إلى تدخل الإنسان عن وعي وقصد في تربية بعض أنواع الحيوانات التي كان ينتفع منها مباشرة، وكان هذا التدجين الحيواني تقدمة ضرورية لتدجين النباتات الذي هو أيضاً، تدخل الإنسان عن وعي وقصد في تربية بعض أنواع النباتات التي كان ينتفع منها مباشرة، وهو ما ندعوه بالزراعة.

إن اكتشاف الزراعة كان ومازال أعظم اكتشاف عرفه الإنسان فقدكان السبب الرئيس وراء كل حضارة الإنسان حتى يومنا هذا، فإذا كانت الكتابة قد حولت عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية فإن الزراعة قد اوقفت الخطوات البطيئة المملة للعصور الحجرية القديمة وجعلتها تتسارع باتجاه الكتابة وانعطاف التاريخ.

باكتشاف الزراعة، أصبح تدجين وتربية الحيوانات عملية واسعة ساهمت بدورها في تطوير الزراعة ونموها، وأول خطوة جديدة بعد الزراعة هو زيادة الاستيطان، وتكون القرى وبدء انعطاف الحياة البشرية نحو الاستقرار وظهور البيوت بشكل واسع وهو

ماجعل الإنسان يتحول من طريدة سهلة للطبيعة إلى مستمكن ومتربص بها، ثم إن الجماعة الإنسانية بدأت تجتمع في محيط واحد ومتجانس عماده الأرض التي تنتج اصطناعياً (أي بعد أن يبذرها الإنسان) محصولاً وفيراً يجعل من هذه الجماعة المؤتلفة مستمرة في العيش دون أن يفكر أفرادها في التنقل بحثاً عن الطعام.

وقد كان لكل هذا أثره على التكوين النفسي والروحي والديني للإنسان، فبعد أن كانت العشيرة هي الأساس، أصبحت العائلة بديلاً أقرب من العشيرة وأصبحت الأم هي مركز العائلة لأنها المنجبة والمربية وربة البيت، أما الرجل فما زال صياداً، أو راعياً، ومازال دوره في عملية الإنجاب مجهولاً لايعرفه هو ولا تدرك المرأة أهميته. لأن الوقت بين اجتماع المرأة والرجل وظهور أول علامات الانجاب ثم الولادة كان كبيراً، ولم يكن يسمح لعقد الصلة بينهما في ذهن ذلك الإنسان البدائي المتطلع تواً لحياة الاستقرار والزراعة.

وسنرى تفصيلياً كيف انعكست الزراعة والفلاحة عموماً على المعتقدات الدينية والروحية بحيث أدت إلى تطور نوعي عما سبق، وأصبحت فكرة الخصوبة هي جوهر ديانة النيوليت طيلة الثلاثة آلاف سنة التي استغرقتها.

يعتبر شمال وادي الرافدين، وأراضي فلسطين هي المناطق الأولى التي حصل فيها هذا الانقلاب الزراعي الخطير، وذلك لأسباب عديدة منها أن الميزوليت كان قد نضج ووصل إلى ذروته في هذين المكانين تدل على ذلك المكتشاف الآثارية لهما، ولكن الراجح أن شمال وادي الرافدين انتظم تطوره وتدرجه في عصر النيوليث بينما اقتصرت فلسطين وبلاد الشام على ظهور النقلة الأولى، وعدم انتظام ادوار وثقافات النيوليت كما هي في وادي الرافدين يعطينا الانطباع بأن النيوليت الرافديني كان نوعياً واسع الانتشار مطرداً في تطوره.

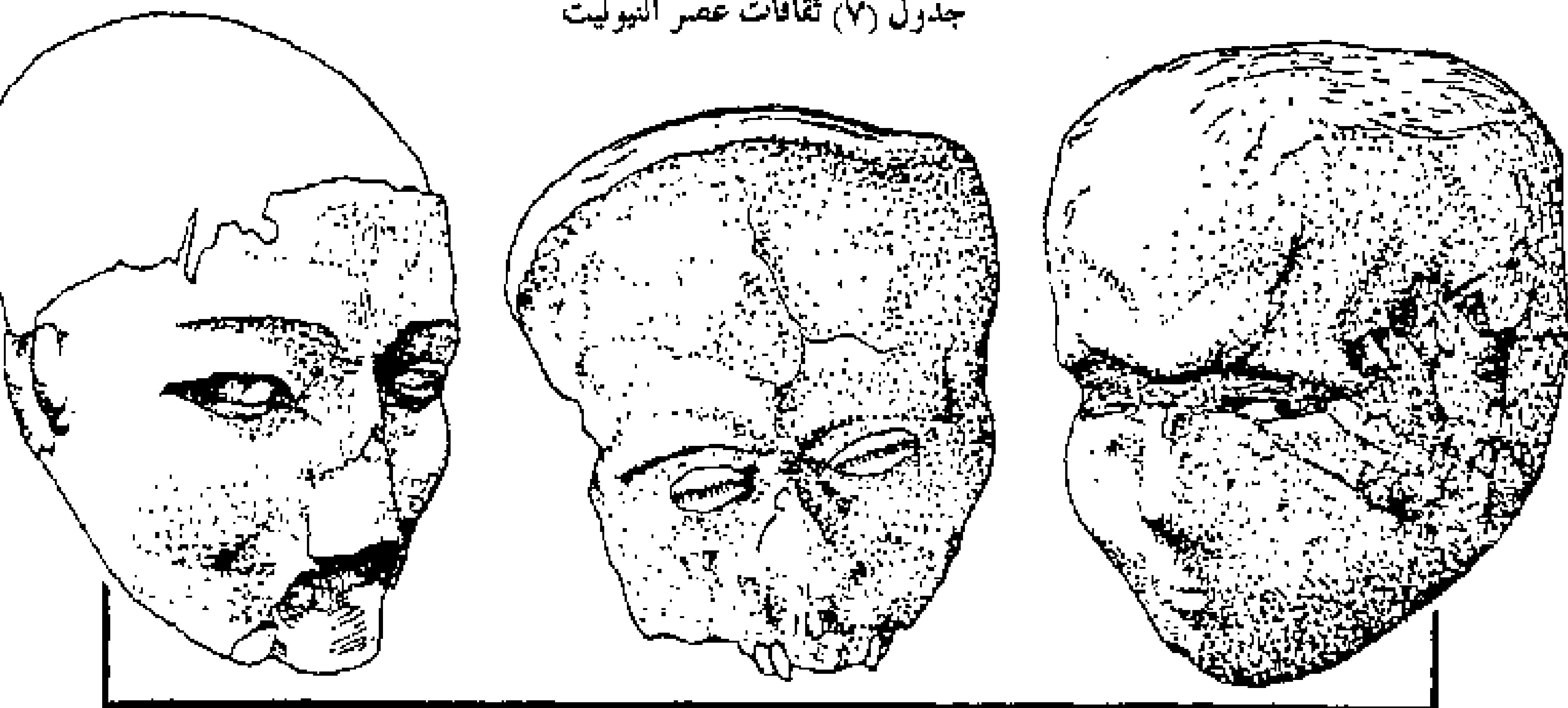
صحيح إن الميزوليت التطوفي وامتداداته إلى أريحا النيوليتية، كان متميزاً ولكن هذا لا يلغي عمق الثقافات الميزوليتية العراقية (زرزي، كريم شهر، ملفعات)، التي جادت بلقى وآثار لاتقل أهمية عما جاد به الكرمل، أو اريحا، ثم أن جرمو التي هي امتداد للميزوليت العراقي وتدشين كبير ومهم للنيوليت العراقي حملت معها آثاراً في غاية

الأهمية إضافة إلى ما اكتشف حديثاً في موقع قريب من جرموهو (تمر خان) شمال بلد مندلي، والذي وجدت في آثار تشبه آثار جرمو وتعود لنفس فترتها.

وإذا نظرنا حول شمال وادي الرافدين فإننا سنجد آثاراً نيوليتية مهمة وليس ثقافات أو حضارات نيوليثية مطردة، كما هو في إيران والاناضول والشام وسيوضح الجدول التالي تسلسل وتدرج ثقافات النيوليت العراقي، وما يقابلها من مواقع آثارية (تابعة لتلك الثقافات في آثارها)، كما أننا لا نجد مطلقاً خلال طبقة النيوليت ظهور أي آثار مصرية نيوليتية، فقد ظهر النيوليت المصري في مقابل الكالكوليت العراقي وانتظهم خلاله.

ثقافات وادي الرافدين النيوليتية	مدتها (سنة)	فترتها ق.م.(سنة)	الشام	الاناضول	إيران
ما قبل الفخار (جرمو)	١٨٠٠	٨٠٠٠-٦٢٠٠	أريحا	جاينوتبة	تبة سيالك
جرمو	٢٠٠	٦٢٠٠-٦٠٠٠	أريحا	تبة كوران	كنج داره
الصوان	٢٠٠	٦٠٠٠-٥٨٠٠	تل الرمد، تل اسود	شتال حيوك	بوص مورده
حسونه	٧٠٠	٥٨٠٠-٥١٠٠	المريبط، المنحطة	شتال حيوك	علي كوش
سامراء	٢٠٠	٥١٠٠-٤٩٠٠	البيضا، تليلات الغسول	حاصلر	تبه سراب

جدول (٧) ثقافات عصر النيوليت



شكل (١٧) جماجم منفصلة عن اجسادها في أريحا (نيوليت ما قبل الفخار)، وهي تدل على (عبادة الجماجم).

مظاهر دين النيوليت

١ – مظاهر قديمة جديدة

أ – تقديس الحيوان : استمر تقديس الحيوان وعبادته، وهي عبادة شائعة في عصري النيوليت، والميزوليت، ورغم أن الانقلاب الزراعي أظهر ميلاً واضحاً لتقديس وعبادة النباتات وعناصر الخصب النباتي إلا أن هذا لم يلغ عبادة وتقديس الحيوان، وقد ظهرت أكثر صور هذا التقديس متجلية في المنحوتات الطينية والفخارية للحيوانات المختلفة كالماعز، والابقار والخرفان والكلب، التي وجدت في جميع مناطق النيوليت في الشرق الأدنى، ولم تنقطع الديانات الطوطمية في هذا العصر، إضافة إلى عبادة الحيوان ونرجح أن رصيدها النباتي ازداد وظهرت معه طواطم طبيعية أخرى.

ب – عبادة الجماجم : تظهر لنا الجماجم التي عثر عليها في أريحا (شكل ١٧) أهم مظهر ديني في مرحلة ما قبل الفخار النيوليتية وهي جماجم محشوة من الداخل بالطين ومطلية الوجه بالجص، ومطعمة العيون بالأصداف، وقد عثر على (١٠) جماجم منها تدل أشكالها على أن جزءاً من طقوس إبقاء ذكرى الأفراد بعد الموت كما يرى ذلك سيتون ليود[١]، أما كوفان فيرى أنها تحمل دليلاً على ما يمكن تسميته بعبادة الجماجم التي تجعل من الرأس مقراً للروح، أو وعاء للقوة المقدسة، ويمكننا أيضاً حسب كينون الاستنتاج بأن هذه الجماجم لم تجمع من الاعداء الموتى بل إنها، حفظت كأوعية لقوة مقدسة غير محدودة وعلى الارجح فإن إجلال أرواح الأفراد الموتى كان الدافع لتوسطهم بهذا الشكل[٢].

ويرى فراس السواح أن ظهور التشخيص في مثل هذه الجماجم، ومحاولة الإنسان تشكيل ملامح وجه إنساني هو بدء ظهور فكرة الإله حيث «دخل الفكر الديني مرحلة التشخيص وأخذ الإنسان ينظر إلى القوة من خلال تمثيلات مشخصة وشيئاً فشيئاً تحولت القوة إلى تشخيصات ذات قوة، وتكسر مبدأ القوة السارية إلى عدد من القوى، وظهرت الآلهة»[٣].

ج – الأضاحي البشرية والحيوانية والنباتية : لا نملك دليلاً تاريخياً دقيقاً يحدد ظهور فكرة الأضاحي البشرية لكننا نرجح أن هذا الطقس ظهر مع دين الباليوليت، وربما

كان الدافع الاقتصادي واحداً من أسباب ظهور هذا الطقس، وليس السبب الرئيس، إذ أن خوف الإنسان من المجاعات وخشيته من عدم توفر الغذاء جعله يضحي بأبنائه بصورة طقسية دينية، وقد تزايد «الاقبال على تقديم الفديات تبعاً لنقصان القوت حتى أنها بلغت في قسوتها ومظهرها الدموي حداً عظيماً، عندما بدأت المجتمعات تعتمد في مأكلها على النبات بصفة مستمرة، فلضمان وفرة المحاصيل استبدلت الفديات البشرية بالفديات الحيوانية» (٤)، ومع انتشار الزراعة ورسوخها كأعظم عامل اقتصادي في حياة الإنسان وبدء تمثل نتائجها روحياً وترافق الأضاحي مع مواسم البذار والحصاد، فالأرض والبذور بحاجة إلى دماء مقدسة تذبح فيها الحيوانات التي كانت مثار تقديس في العصر اليزوليتي وكذلك ينظر إلى مواسم الحصاد «كما لو كانت تنحر فيها آلهة زراعية وتستشهد في سبيل انقاذ البشرية من المجاعة فيقتات الناس من أجسادها، وكما كانت تقوم حول الفريسة في العصر الحجري القدم منادب ومعاز تنتهي بولائم فكذلك كان الحال بالنسبة إلى مناسبات الحصاد، إذ كانت هي الأخرى بمثابة معاز يردد فيها المزارعون اغان ذات صبغة حزينة، فتتحول الحقول في أثناء جمع حاصلاتها إلى ما يشبه الجنائز، يتظاهر فيما الناس بالحزن لاضطرارهم إلى قتل آلهة أو أرواح النباتات ليخفوا سرورهم وكثرة ما يجنونه من أجساد تلك الآلهة التي تكون حاصلاتهم» (٥).

لقد سادت الأضاحي الحيوانية، والنباتية في عصر النيوليت، وكانت الذبائح الحيوانية تعلّق على قمم الاشجار المثمرة من اكباش وعجول وغيرها، لضمان غزارة إنتاجها. وقد بقيت هذه الصورة في فن العمارة، حيث سادت في العصور التاريخية وحضاراتها، وفي الهياكل الدينية، والمعابد اعمدة على شكل جذوع اشجار لها تيجان على شكل رؤوس حيوانية وكأن هذه الرؤوس علقت فدية لهذه الاشجار.

٢- دمى وأشكال الالهة

أ - الإلهة الأم وتطوراتها

لاشك إن ظهور الإلهة الأم (Mother Godess)، في الشرق الأدنى مع بدء النيوليت هو أهم مظاهر ديانة هذا العصر. ولم يكن ظهورها بالأمر المفاجئ لأننا نميل إلى عقد الصلة بين ظهورها المبكر في الباليوليت الأعلى في أوروبا، وظهورها اللاحق في النيوليت في الشرق الأدنى... ونرى أن عدم استمرار ظهورها خلال الفترة بين هذين العصرين متأت من عدم ارتباطها في الباليوليت الأعلى بالزراعة والخصب الكوني واقتصارها على الخصب الفردي والولادة... مما ضيق شخصيتها وقزم انتشارها، ويبدو أن الزراعة كانت عامل نشر وتداول واتساع لعبادة الإلهة الأم.

لقد وجد الإنسان في المرأة البدينة المعافاة الخصيبة الحامل رديفاً للأرض الخصبة المثمرة، والمرأة كما هو معروف مكتشفة الزراعة وحافظة البذور، ولذلك رفعها إلى مرتبة الألوهية... وأصبحت الإلهة الأم لاحقاً تبدو وكأنها سبب اخصاب الأرض في العقيدة الدينية.

لقد قام الإنسان أولا بتشبيه الأرض بالمرأة البدينة كإلهة، ثم قام بعد ذلك بمحاكاة هذه الإلهة فأصبحت المرأة، زعيمة القوم، وكانت صفاتها بالضرورة القوة، والخصب والصحة، لأنها تناظر الإلهة الأم، وظهرت طقوس العبادة التي تحاكيها أيضاً.

إن فعلي التشبيه والمحاكاة يحملان جوهر الدراما، ونرى كذلك أن عبادة الإلهة الأم جرى في العصر النيوليتي في العراء، وكانت الأرض التي يريد الإنسان زراعتها مسرحاً لها بالدرجة الأساس ولذلك كانت تماثيلها المخروطية الشكل ذات النهاية المدببة السفلى تنبت في الأرض أثناء عمليات الزراعة، أما التماثيل الهرمية الشكل ذات النهاية السفلى المسطحة، أما الدمى القادرة على الجلوس على الارداف، فكانت توجد، غالباً في القرى والبيوت، تبركاً بالإلهة الأم وكانت هذه العبادة تشتمل على طقوس مختلفة تختلط معها الكثير من العناصر الدرامية والغنائية والدينية.

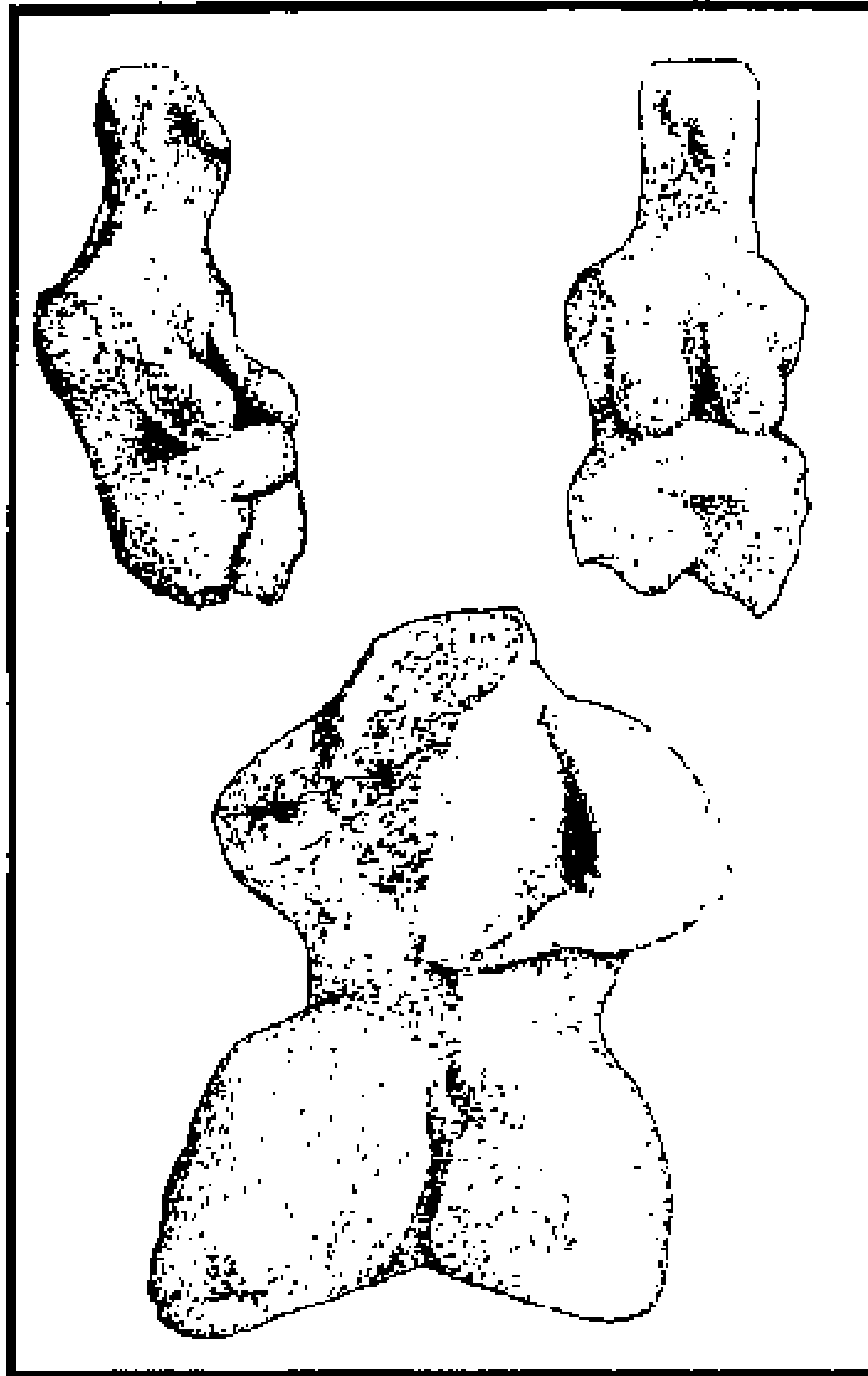
لقد رأى الإنسان أن (المقدس)، أو (القوة العظمى) للوجود يكمن في صفات

الاخصاب والولادة التي هي من خصائص المرأة، ثم حاكى هذه القوة العظمى بالأنثى (الأرض والمرأة) ذات الطبيعة الإلهية، وبذلك ظهرت الإلهات الأم في مناطق النيوليت في تواتر واضح احتفظ ببصمات كل مرحلة في شكل وصفات هذه الإلهة الأم.

لقد ارتأينا أن ندرج مراحل تطور وظهور الإلهة الأم التي هي جوهر الدين النيوليتي حسب تسلسل الثقافات النموذجي لهذا العصر الذي أتينا على ذكره.

أولاً : الإلهات الأم لما قبل الفخار (الألف الثامن قبل الميلاد)

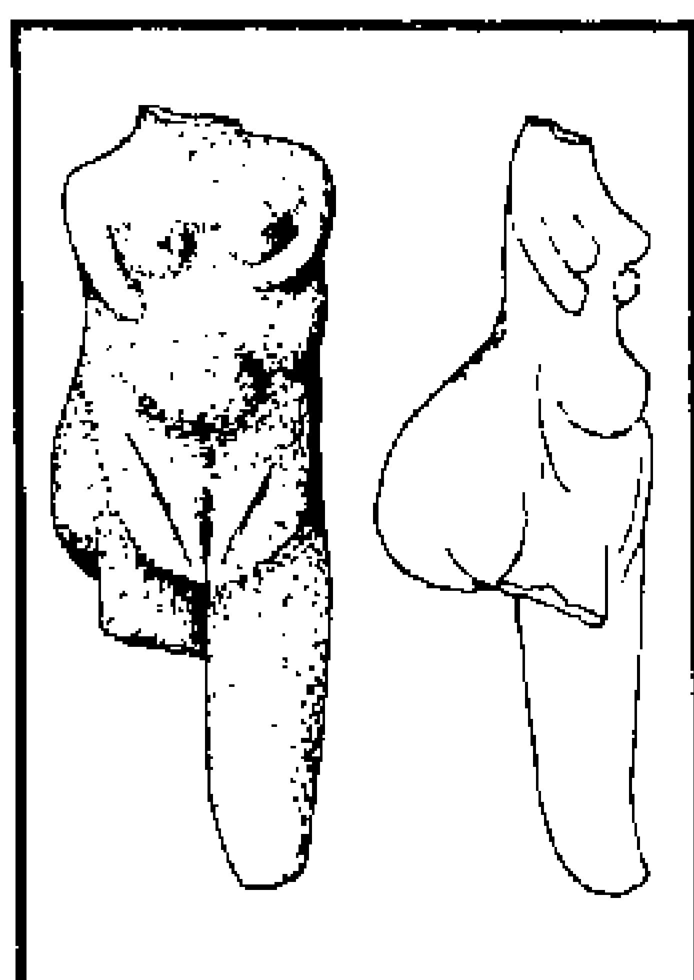
١- إلهة تل أسود السورية : وتظهر هذه الإلهة جالسة، بدينة وتضع احدى يديها تحت ثدييها وفيها ما يدل على عدم دقة في الصنع، واعضاؤها الأنثوية غير واضحة، شكل (١٨)



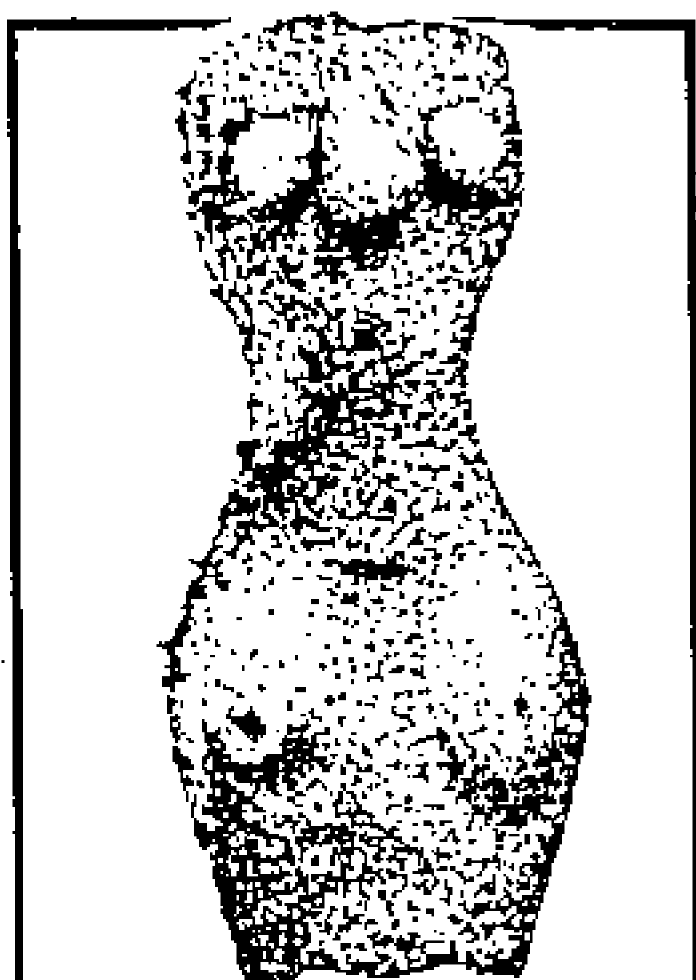
شكل (١٨) إلهة تل أسود

٢- إلهة المريبط السورية : وهي إلهة عديمة ملامح الوجه شكل (١٩) وتبدو اثداؤها صغيرة قياساً لجسدها وعضوها الأنثوي واضح وتضع يديها تحت ثدييها الصغيرين، وهذا الوضع يشكل الجذر الذي ستظهر به الإلهة عشتار في أكثر أوضاعها شهرة وهو يدل على الأنوثة والعطاء، وهناك دمية أخرى تظهر أعضاؤها الجنسية واضحة

٣- إلهة المنحطة: وهي منطقة في الضفة الغربية للأردن، وتظهر فيها هذه الإلهة شبيهة بالحيوان ضخمة العيون والأنف، ويظهر ثدياها واضحين . (شكل ٢٠)

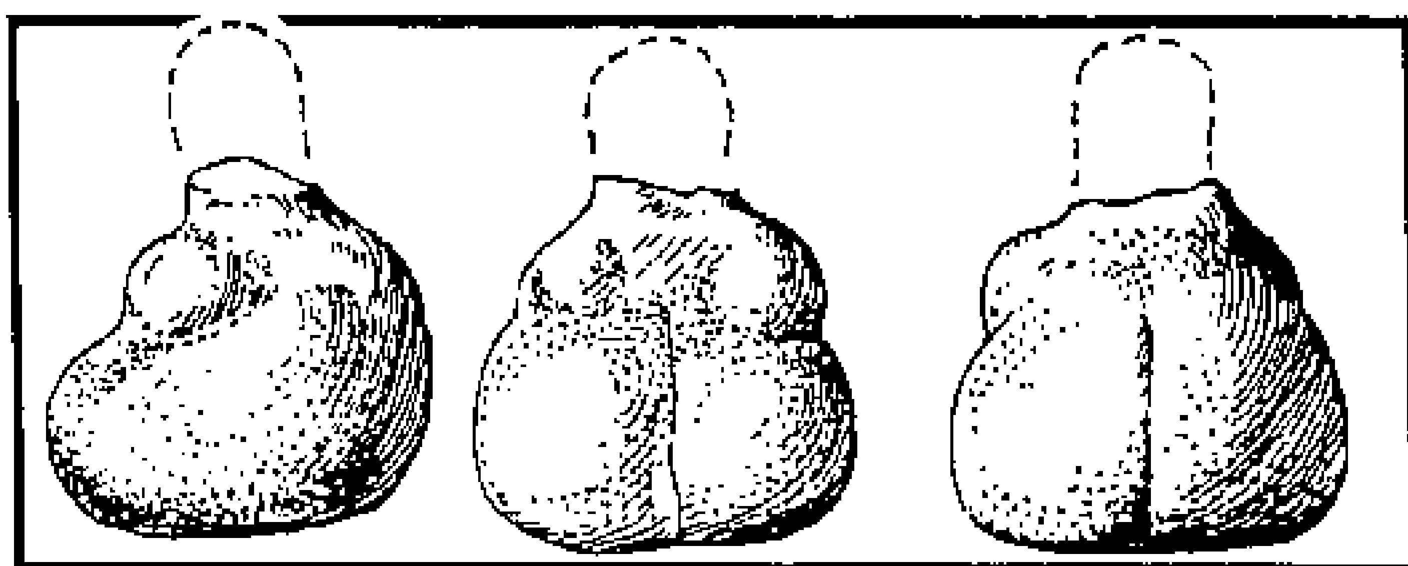


شكل (١٩) إلهة المريبط.



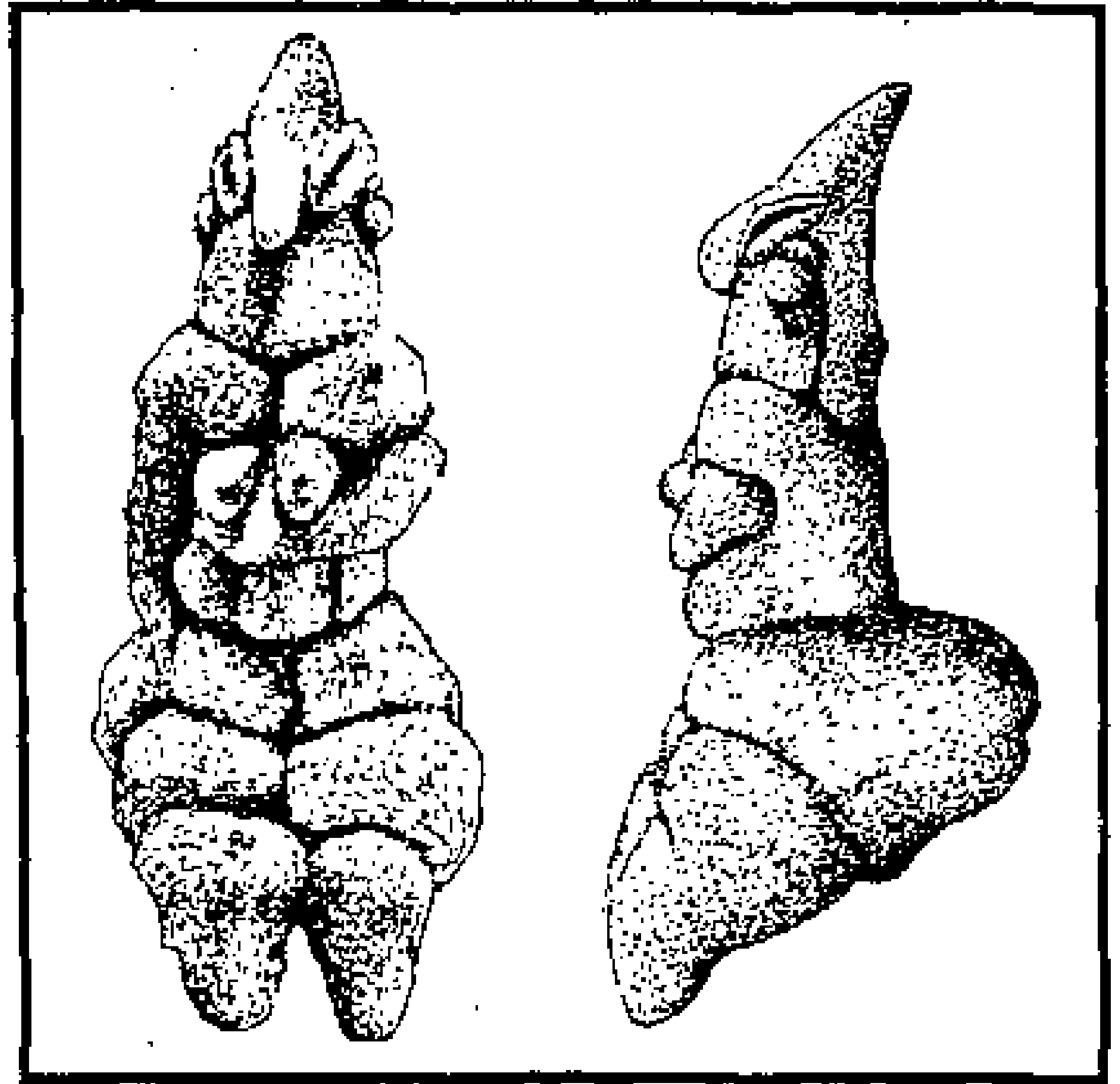
شكل (٢٠) إلهة المنحطة

٤- إلهة البيضا: وتظهر في مجموعة من الدمى الصغيرة الضخمة الأثداء والعجيزة شكل (٢١)



شكل (٢١) إلهة البيضا.

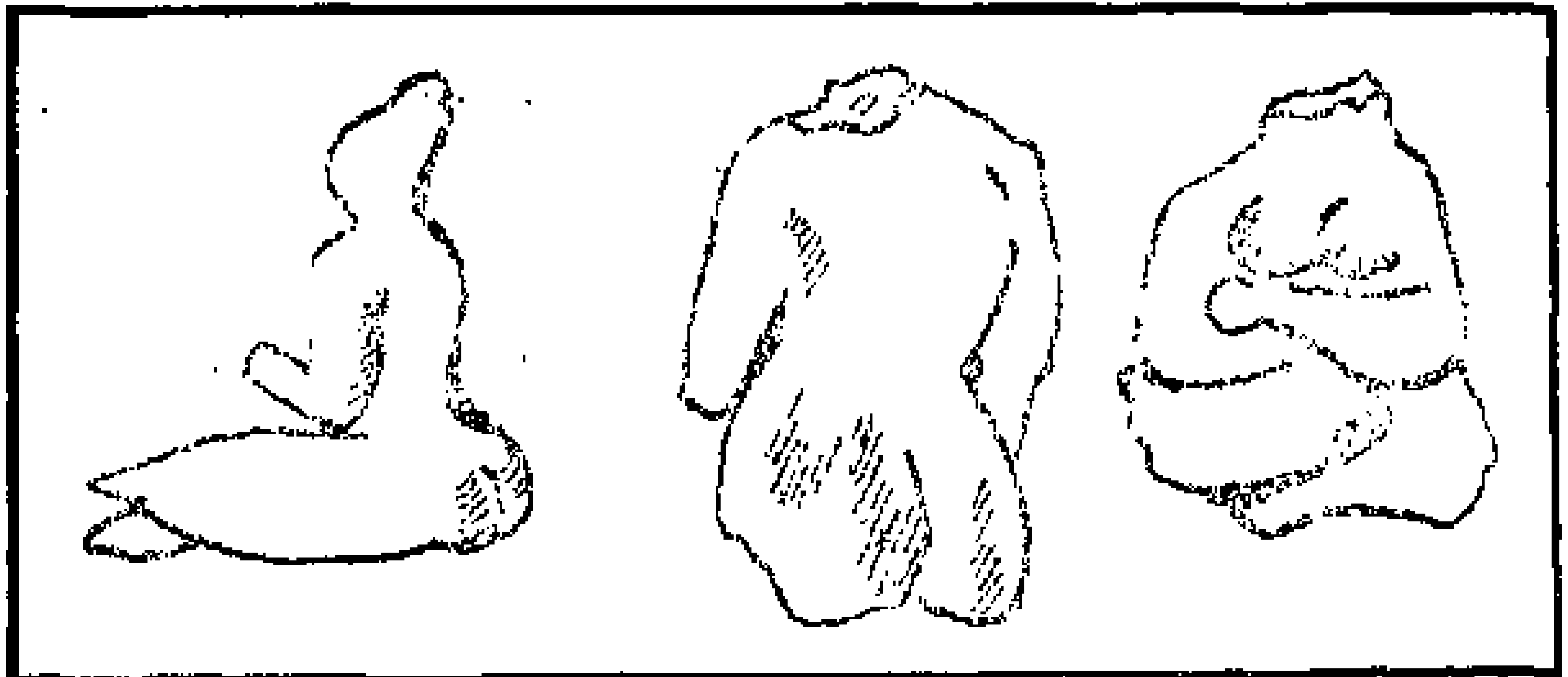
٥- الأم الرهيبة (Mere Terrible) : وهي من المنحطه أيضاً لنوع من الأم الرهيبة المشكلة من مجموعة من القطع ولها عيون تشبه الافعى وانف طويل وأثداء واضحة وعجيزة ضخمة، ونرى أن شكلها مشوب بصفات حيوانية وشيطانية وذكورية. (شكل ٢٢)



شكل (٢٢) الأم الرهيبة

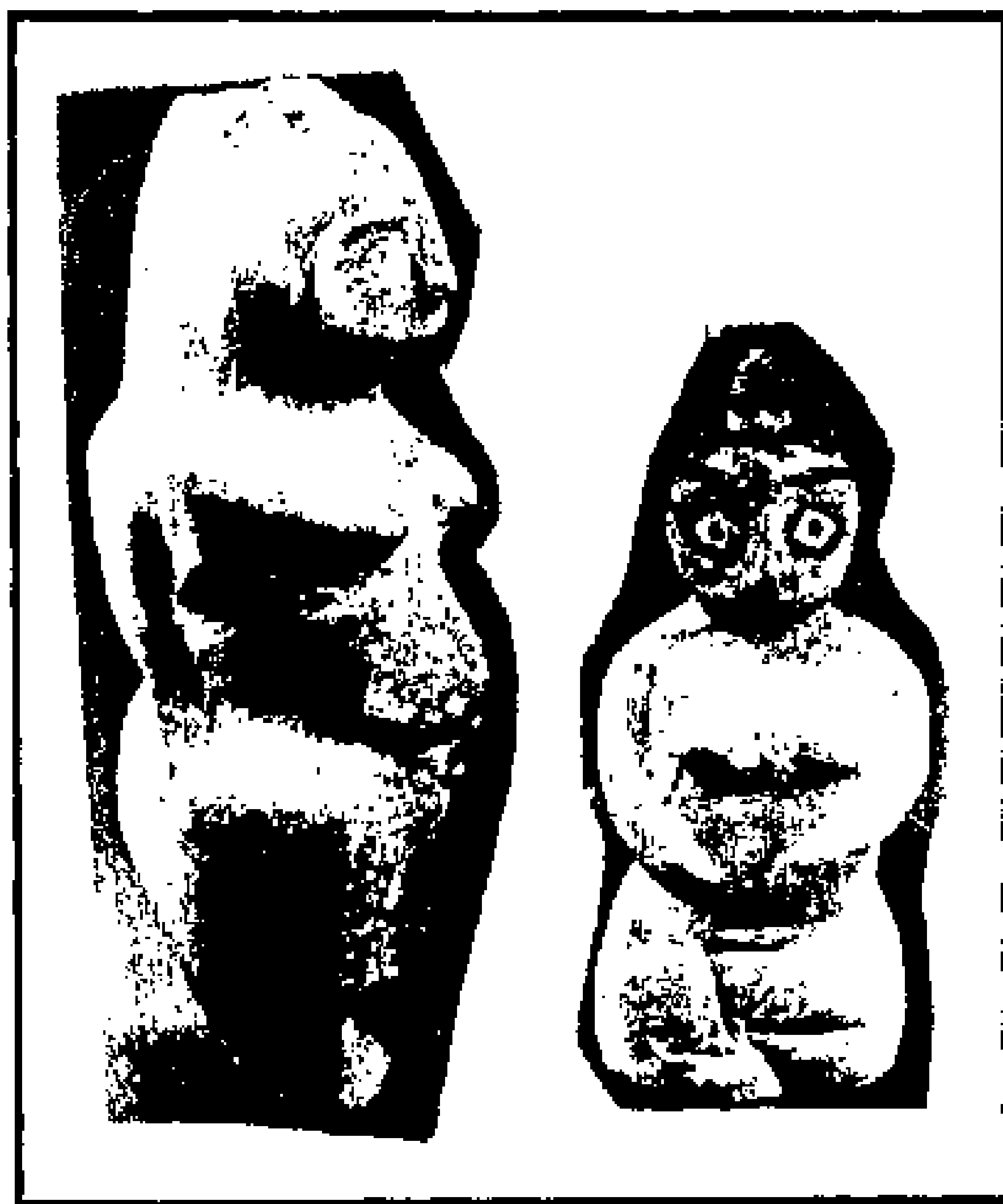
ثانياً : الإلهة الأم لما بعد الفخار

١- إلهة جرمو : وقد عثر على مجموعة من الدمى الطينية التي تمثل إلهات اغلبها في وضع الجلوس ولها أعضاء أنثوية بارزة، وبعضها يبدو واقفاً وهناك اقنعة أنثوية وربما تكون إلهية. وهناك ما يشير إلى تشوه واضح في الأعضاء والوجه في بعضها (شكل ٢٣)



شكل (٢٣) نماذج من إلهة جرمو

٢- إلهة الصوان : أظهر تل الصوان نمطاً متقدماً من الثقافة النيوليتية فقد تطورت الإلهة الأم وظهرت منها دمى كثيرة وتظهر الإلهة الأم بدينة نسبياً، يظهر رأسها متوجاً بالقار دلالة على الشعر، وبعضها عيون صدفية وحواجب واضحة ولها أثداء صغيرة قياساً لجسدها وبطن ممتلئة وأفخاذ بدينة وهي في الغالب تضع يديها متشابكتين على بطنها وهي أما في وضع الجلوس أو الوقوف،و يشار لعضوها الجنسي احيانا بمثلث، واغلبها منحوتة من المرمر (شكل ٢٤).

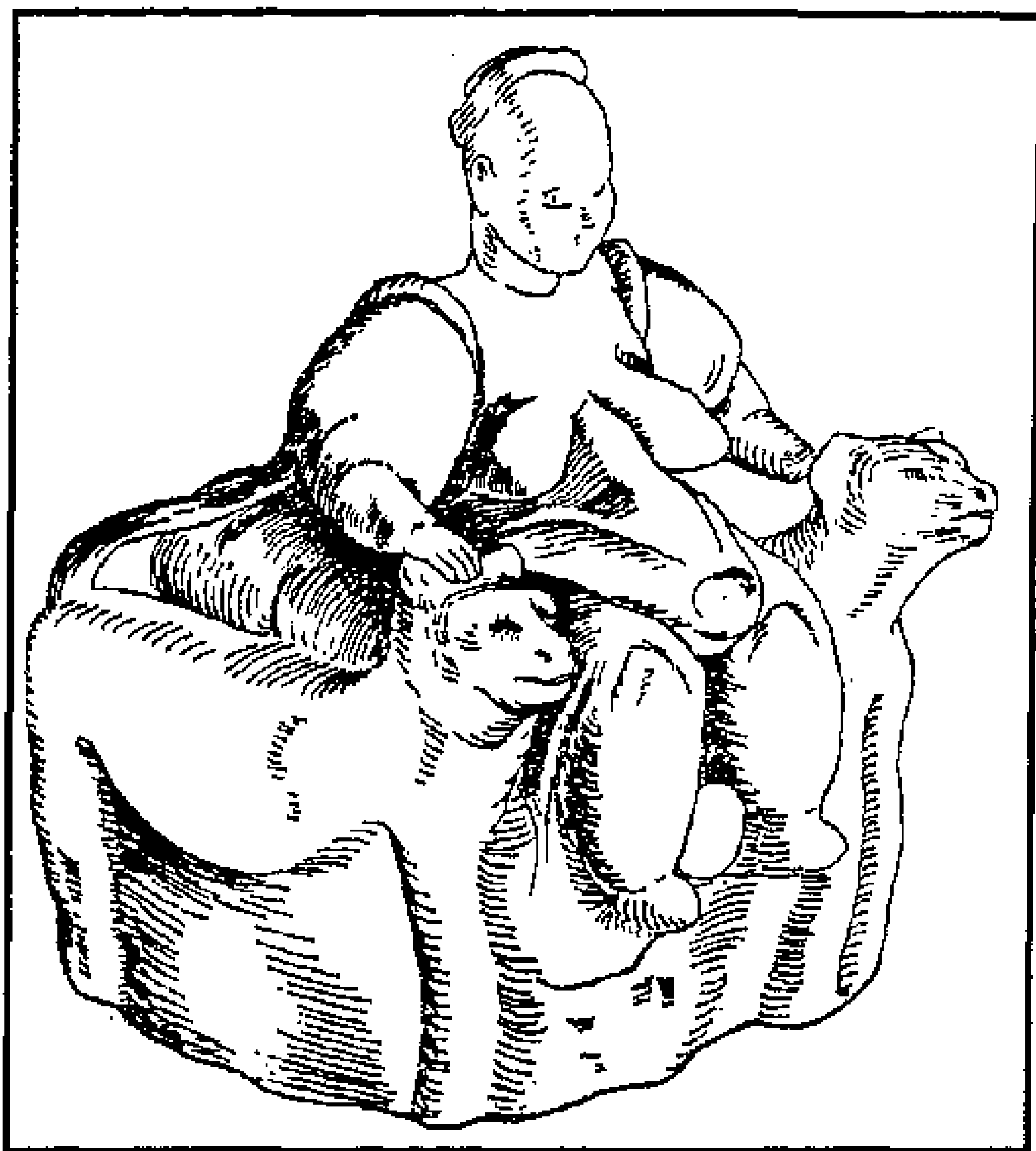


شكل (٢٤) نموذجان من إلهة الصوان

٣- إلهة شتال حيوك : تشكل المكتشفات الآثارية في موقع شتال حيوك في جنوب الأناضول عام ١٩٥٨، من قبل جيمس ميلارت اعظم كشف آثاري لمرحلة النيوليت حيث اعتبر هذا الموقع أكبر موقع نيوليتي وأكثرها تطوراً، وكانت الحالة النادرة للمواد التي وجدت فيه وللابداعات الفنية مثار دهشة لانظير لها. كانت شتال حيوك

مستوطنة للمزارعين ومربي الماشية، ومن ضمن سكانها عدد من الحرفيين الماهرين. وكنت التجارة حرفة أساسية لسكانها . ويمكننا أن نصف تماثيل الإلهة الأم إلى ما يلي:

أ – **الإلهة الولود** : يشكل تمثال الإلهة الأم الاناضولية في شتال حيوك نمطاً فريداً لم نعهده سابقاً، فهي هنا جالسة في وضع ولادة على عرش وتمسك بيديها رأسي لبوتين كانهما مسندين لهذا العرش ويظهر ثدياها متهدلين شكل (٢٥).



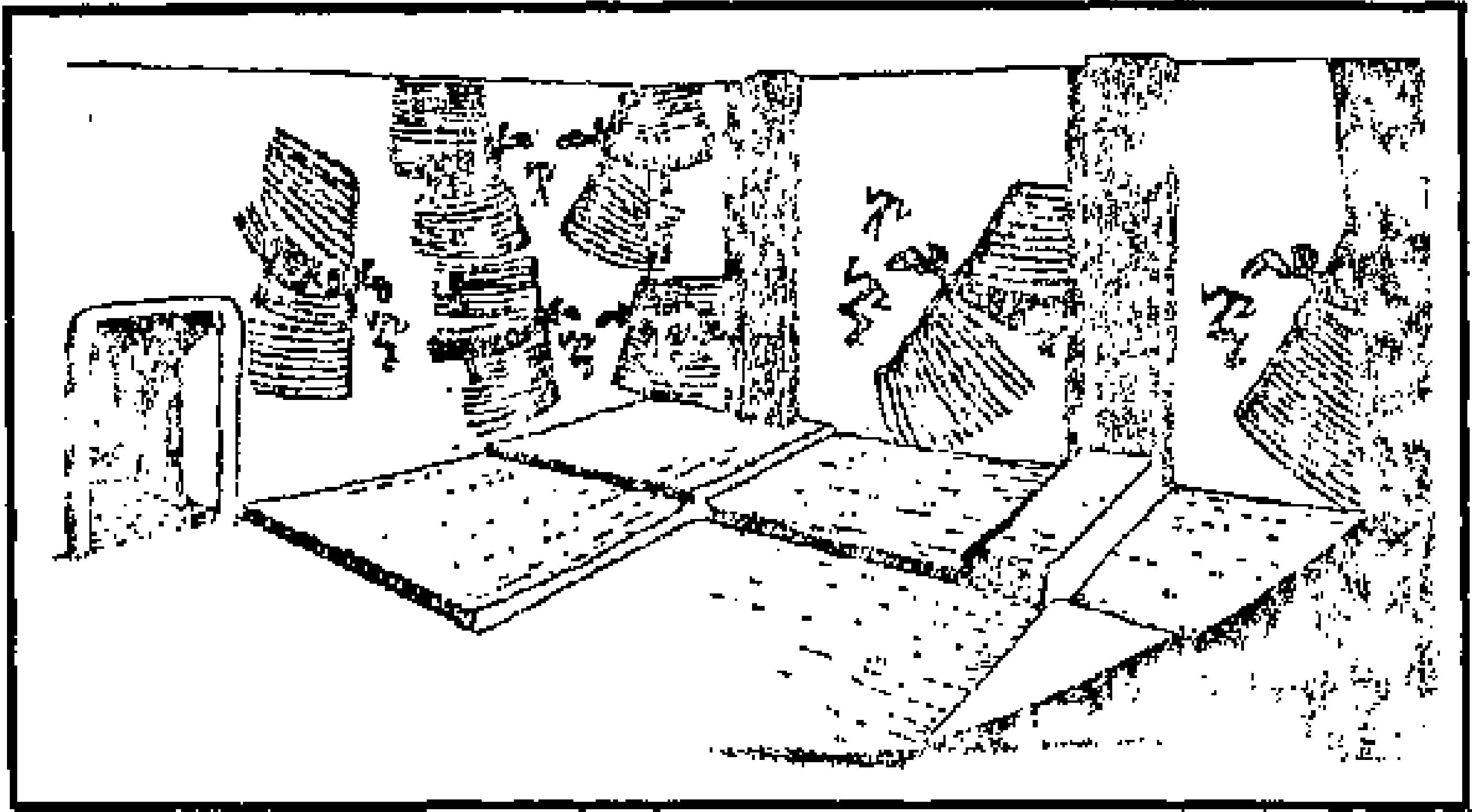
شكل (٢٥) الإلهة الولود / شتال حيوك ٦٠٠٠ ق. م.

ب – إلهة الفهود : وتظهر بشكلها المعروف وهي جالسة على الأرض وتحمل على كتفيها زوج من الفهود ويشير هذا إلى علاقتها الحميمة بالحيوان ويمكن القول إنها سيدة الحيوان ومظهرها يدل على ترويضها للبرية والوحش شكل (٢٦)



شكل (٢٦) إلهة الفهود / شتال حيوك ٦٠٠٠ ق.م.

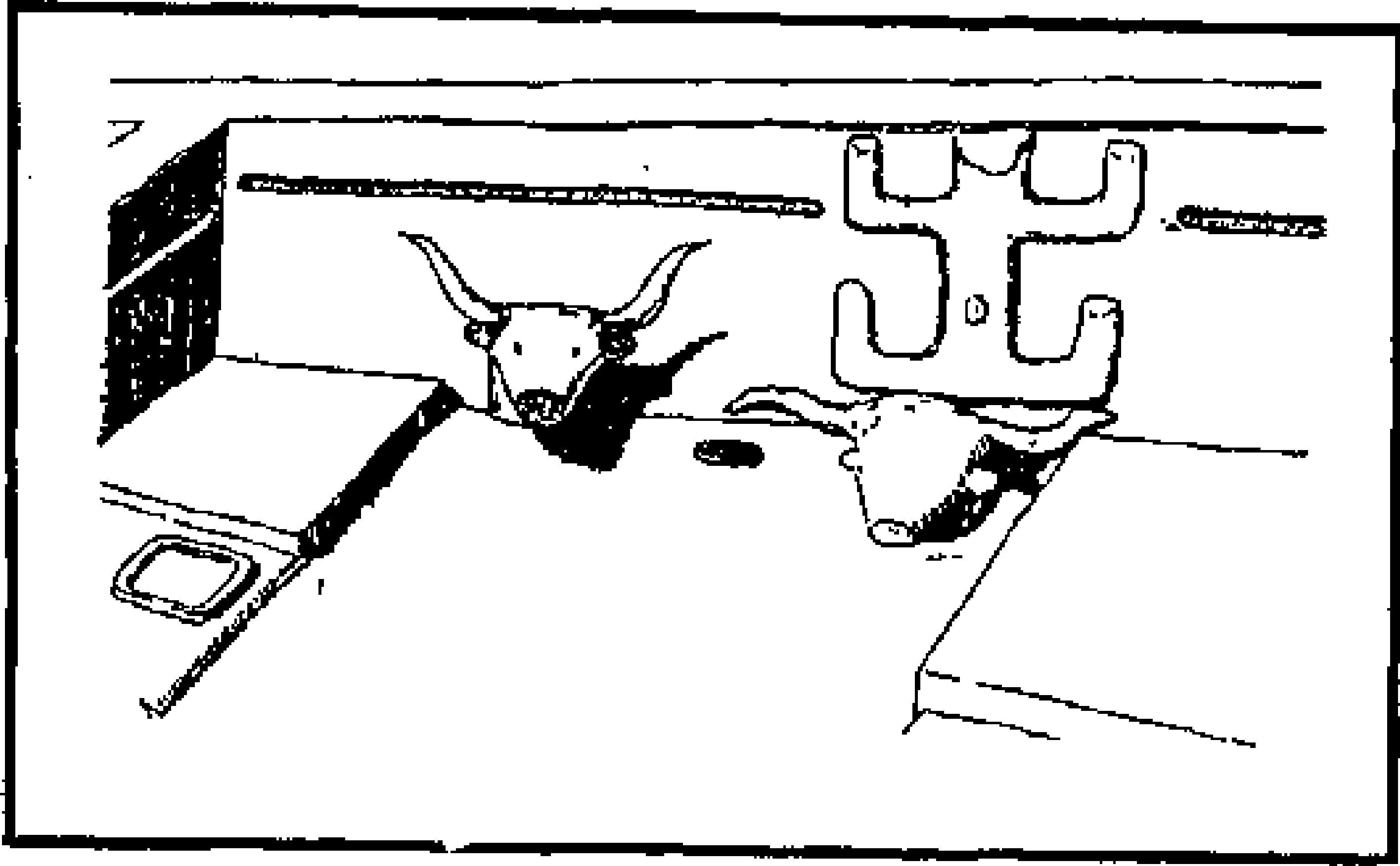
ج – إلهة النسور : تظهر النسور في جداريات مستوطنة شتال حيوك شكل (٢٧) وكأنها تنقض على جثث الموتى «ويستدل علماء الآثار، اعتماداً على هذه الرسوم، وعلى دراسة بقايا الهياكل العظمية لسكان تلك المستوطنة على أن الموتى كانوا يوضعون على مصاطب عالية في أماكن بعيدة خاصة، تأتيها النسور فتلتهم لحم الجثث وتترك الهيكل العظمي سليماً، وكانت المصاطب العالية تحمي الجثث من الكلاب والضباع، وما عليها من حيوانات القمامة، وتتركها وقعاً على طيور الأم الكبرى، فإذا انتهت النسور من عملها، حملت الهياكل العظمية إلى مستودعات خاصة تترك فيها إلى فصل الربيع، حيث تأخذ كل عائلة موتاها فتدفنهم في منزلها تحت مصاطب النوم والجلوس، كما كانت أرضيات المعابد تستخدم، لدفن الموتى ذوي المكانة الخاصة»(٦).



شكل (٢٧) إلهة النسور على جدار معبد في شتال حيوك ٦٠٠٠ ق.م.

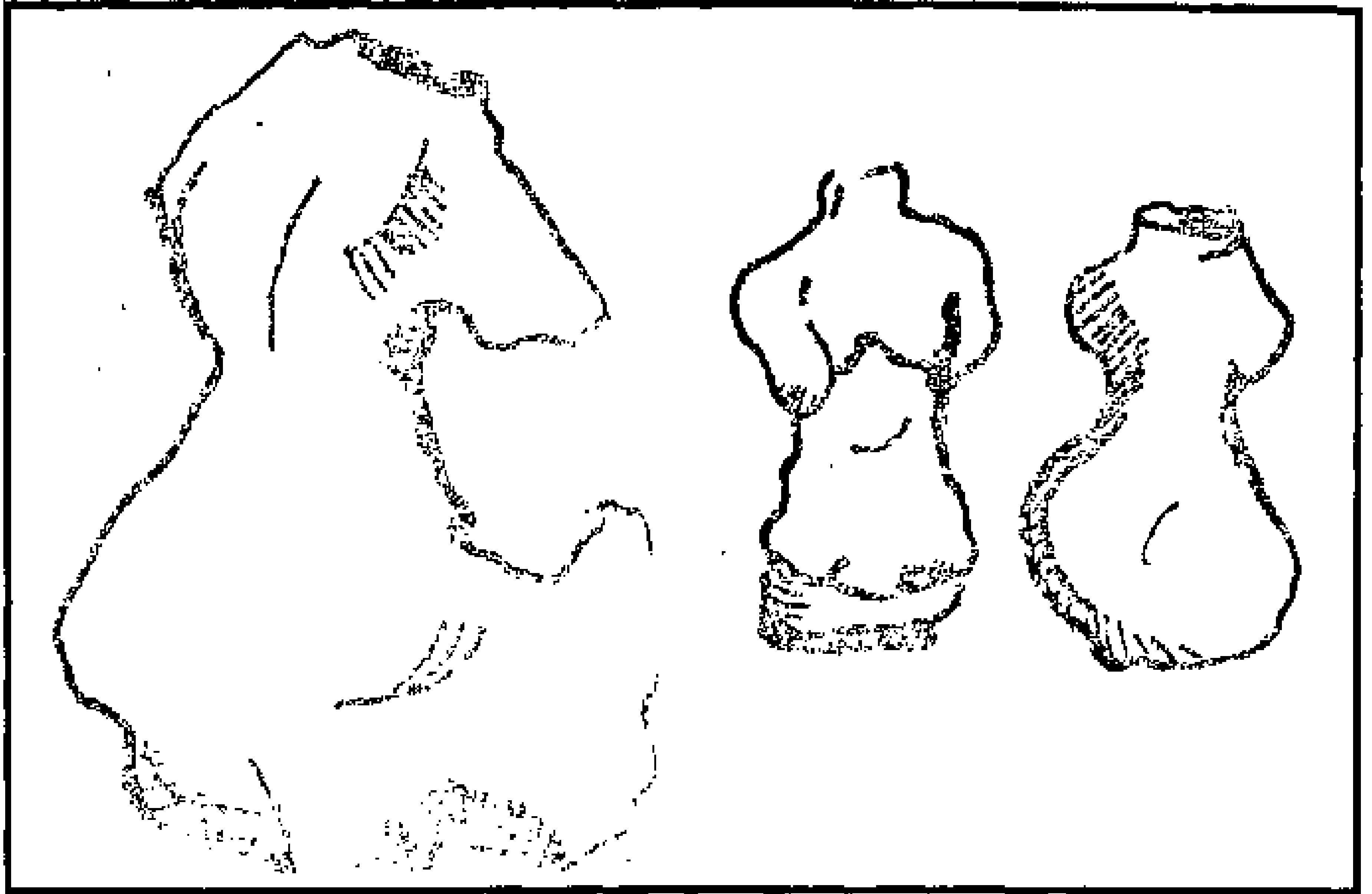
د – **الإلهة المزدوجة** : ونجدها وقد ازدوجت في شكلين متناظرين أحدهما يحمل أثداء والآخر لايحمل، لكي تلد منهما الآلهة الابن – الثور الذي تحتها وكأنه خارج منها.

هـ– **الإلهة الصليب** : وتظهر على شكل غائب الملامح يشكل جذعها المستقيم العمودي، وفيه سره وتشكل ايديها المرتفعة للأعلى المستقيم الأفقي الذي يمنحها شكل الصليب، وكذلك تشكل أرجلها المستقيم الأفق الثاني كساقين مبسوطتين. شكل (٢٨).



الشكل (٢٨) الإلهة الصليب : نحت على جدار معبد في شتال حيوك.

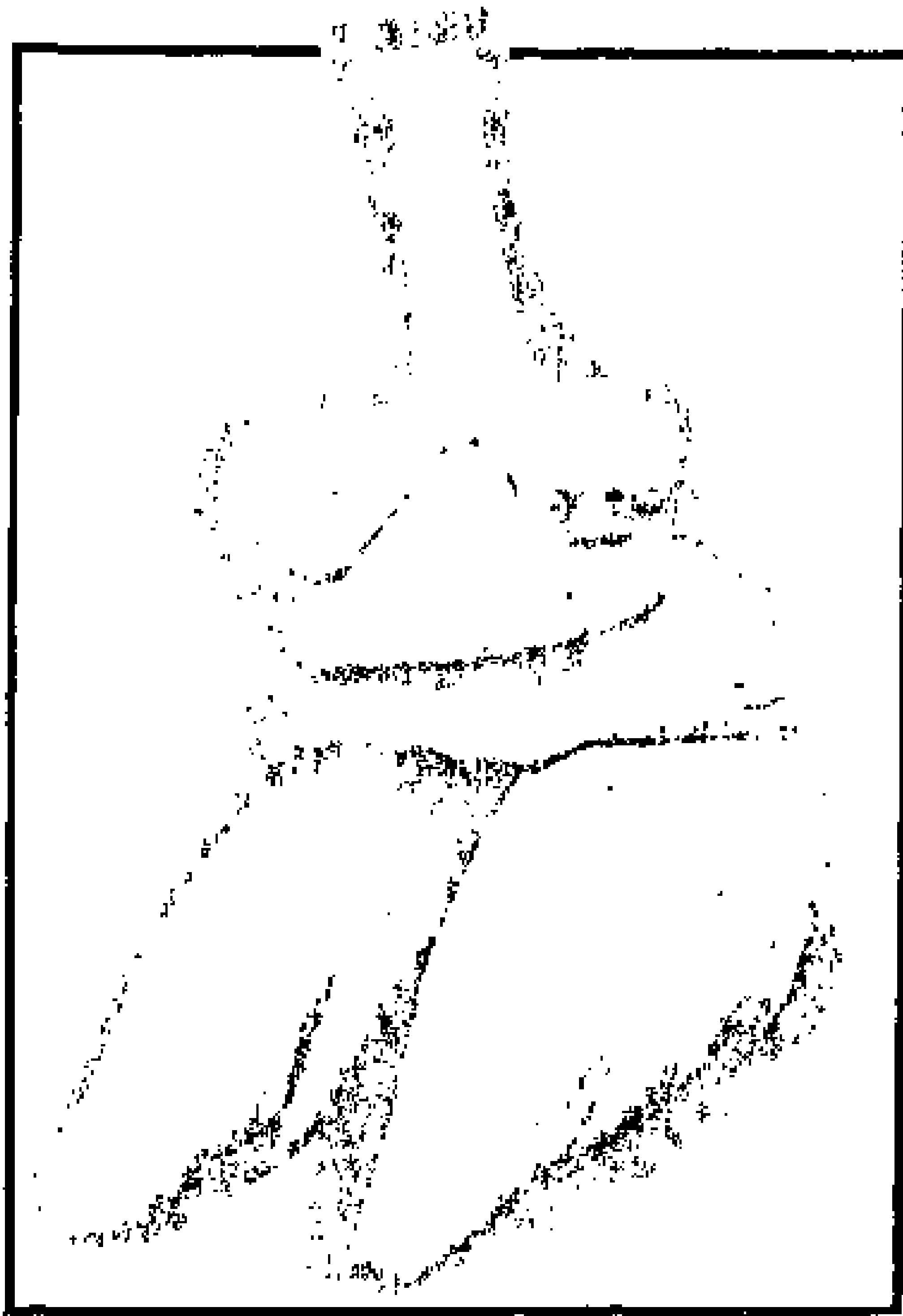
٤- إلهة حسونة (الألف السادس ق.م.) : عثر على مجموعة من الدمى الطينية مكسورة الرؤوس والأيدي وتمثل الإلهة الأم وتظهر أعضاؤها الأنثوية واضحة (شكل ٢٩) ويمثل رسم على عنق جرة امرأة أو إلهة مرسومة بملامح مكتنزة وتظهر خدودها مخططة بثلاث خطوط عمودية (يظن بأنه وشم)، وشعرها منسدل على جانبي وجهها بأربع خصلات في كل جانب.



شكل (٢٩) نماذج من إلهة حسونة ٦٠٠٠ ق. م.

٥- الإلهة الاناضولية (الألف السادس ق.م) : وتظهر هذه الإلهة الممسكة بثدييها كواحدة من أجمل التماثيل المعبرة عن الخصوبة فهي إلهة ذات ملامح واضحة بعيون محززة حتى موقع الآذن وانف طبيعي ولها جسد أنثوي ممتلئ الصدر والبطن والعجيزة والافخاذ. ومصنوعة من البلور البركاني الذي يرصع به الصلصال المرن قبل تجفيفه في النار، وقد وجدت على جسدها آثار وشم صبغة حمراء.

٦- إلهة تبه سراب (الالف السادس ق.م) : عثر عليها في موقع زاكروس المتأخر في إيران، وهي تمثال صلصالي صغير برأس مستطيل يشبه الساق وثديان بارزان وبطن ذي فخذين كبيرين شكل (٣٠)



شكل (٣٠) إلهة تبه سراب ٦٠٠٠ق.م.

٧- **إلهة يارم تبه (الألف السادس ق.م)** : وهي منطقة رافدينية تمثل عصر حسونة وعثر فيها على تمثالين متميزين من الصلصال ينفرد أحدهما برأس مندفع بطوله إلى الوراء والجزء الأسفل يمثل عجيزة كبيرة وله تنورة ذات اهداب، ويظهر العضو التناسلي في أسفل التمثالين (شكل ٣١).

٨- **إلهة جوخه مامي (الألف السادس ق. م)** : وهي تمثال بوضع الجلوس وتضع يديها على عضوها التناسلي ولها ثديان بارزان.

٩- **إلهة سامراء** : لم يعثر على الكثير من الدمى الإلهية في سامراء ولكن هناك تمثالاً صلصاليا فريداً يمثل رأساً كبيراً لامرأة أو إلهة بملامح واقعية (شكل ٣٢).



شكل (٣١) إلهة يارم تبه ٦٠٠٠ ق.م.



شكل (٣٢) إلهة سامراء ٦٠٠٠ ق.م.

١٠- إلهة حاصلر (حوالي ٥٠٠٠ ق.م) عثر على جرة من الفخار الملون يحسم إلهة وعلى جسدها خطوط عرضية وتبدو كأنها تمسك أثداءها.

ب - الإله الأب (الذكر)

رغم الحضور الطاغي للإلهة الأم خلال النيوليت إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور الإله الأب (الذكر) في جميع ثقافاتها تقريباً، ولكن بنسبة أقل، وهذا يدل على الاهتمام الروحي الفائق بالأنوثة من جانب وعلى عدم فهم دور الرجل في عملية الاخصاب، ورغم ذلك فقد شكل حضوره بشكل مجسم (شبيه بالإلهة الأم)، أو حضور رموزه كالقضيب والثور والحمام والفأس المزدوج دالة كبيرة على أن الدور النيوليتي لم يكن مطلقاً للإلهة الأم بل أن ثالوث أريحا المبكر يحيلنا إلى فكرة جديدة تماماً.

أ - عصر ما قبل الفخار (الالف الثامن ق. م):

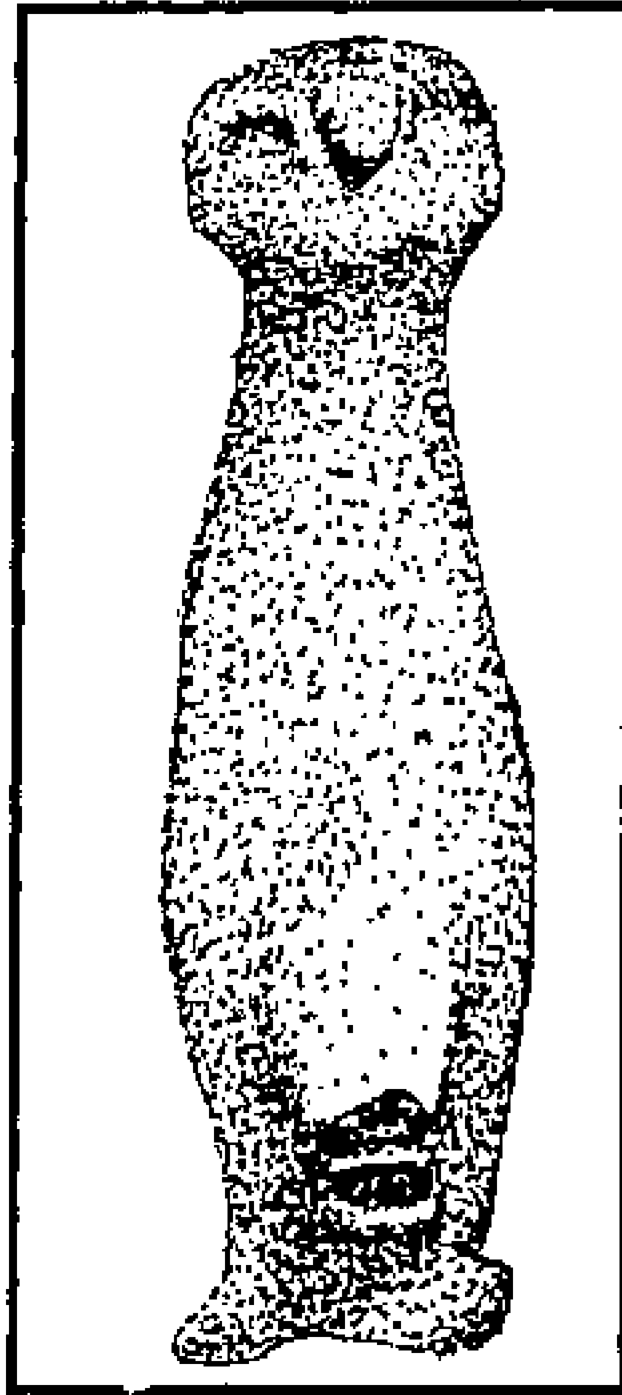
إله المنحطة : وهو تمثال صغير بعيون كبيرة وانف كبير، وجسد إصبعي، ويظهر عضو الذكر في أسفل التمثال قرب القدمين، ويشوب هذا التمثال مسحة خنثوية إلا أن عدم وجود ثديين يجعله يميل باتجاه الذكر.

ب - عصر ما بعد الفخار (الالف السابع والسادس ق.م):

١- تماثيل القضيب Pallus في جرمو: وقد وجدت مع تماثيل الإلهة الأم، وقد ظهرت في تل الصوان أيضاً فيما بعد.

٢- إله الصوان : في (الالف السادس ق.م): وقد وجد مع مجموعة كبيرة من تماثيل الإلهة الأم وكان مصبوغاً باللون الأحمر (شكل ٣٤).

٣- إله هيجيلار الاناضولي: في (الألف السادس ق.م): وقد تمظهر هذا الإله بعدة أشكال هي:

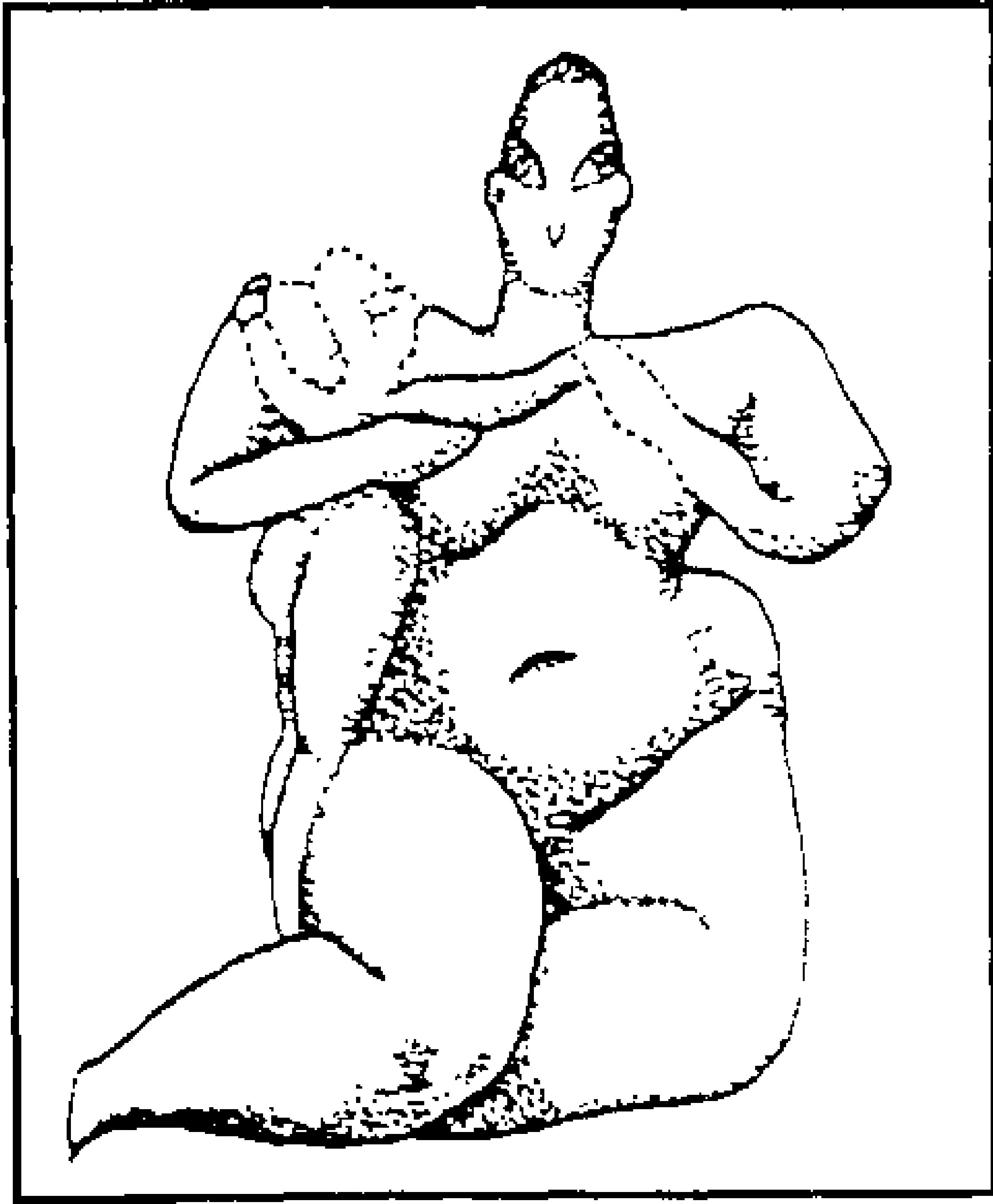


شكل (٣٣) إلهة المنحطة



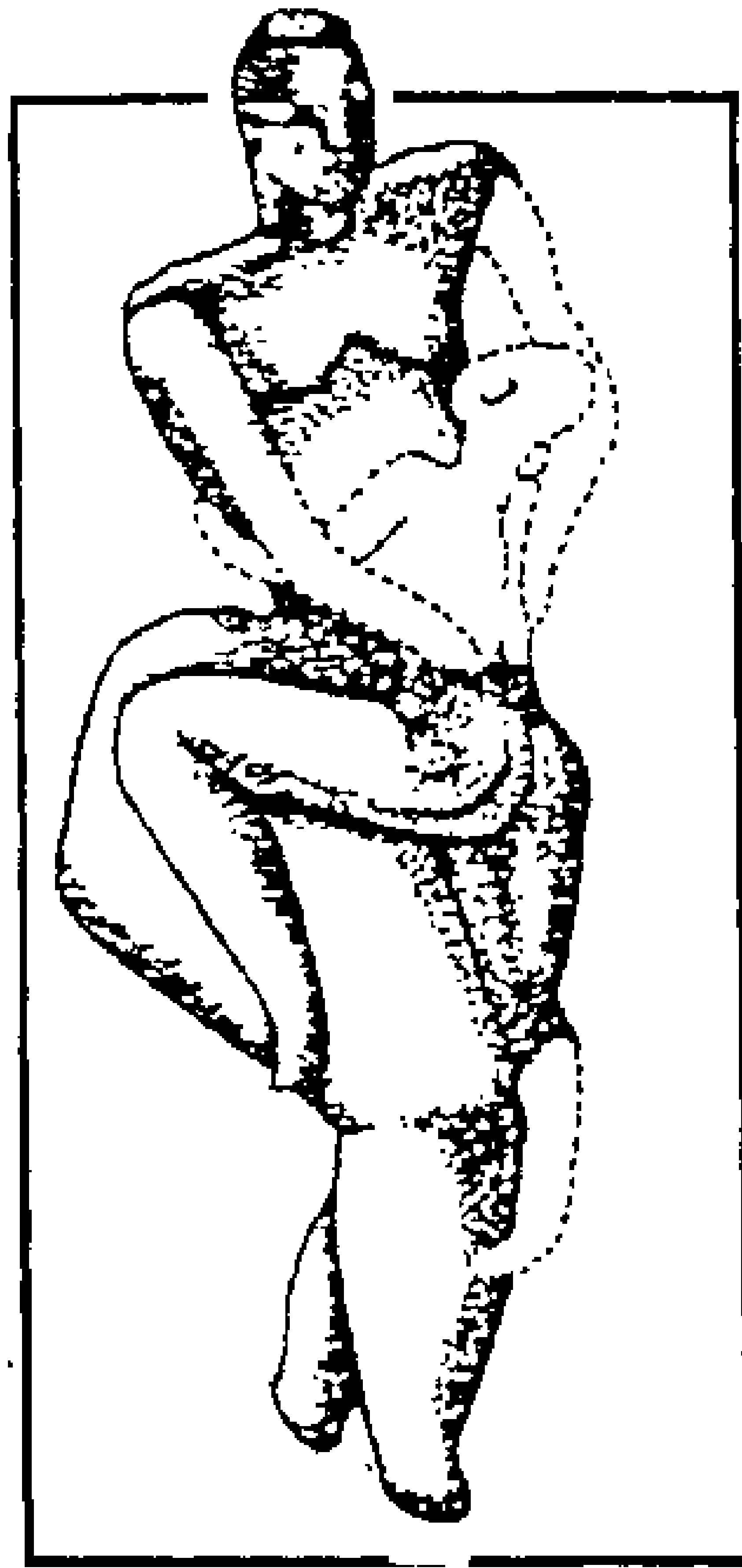
شكل (٣٤) إلهة الصران.

أ- **الإله الابن** : حيث نجد تمثال الإلهة الأم الاناضولية وقد احتضنت ابنها إلى صدرها، وهذه أول إشارة لظهور الإله الإبن (شكل ٣٥).



شكل (٣٥) الإله الإبن الاناضولي.

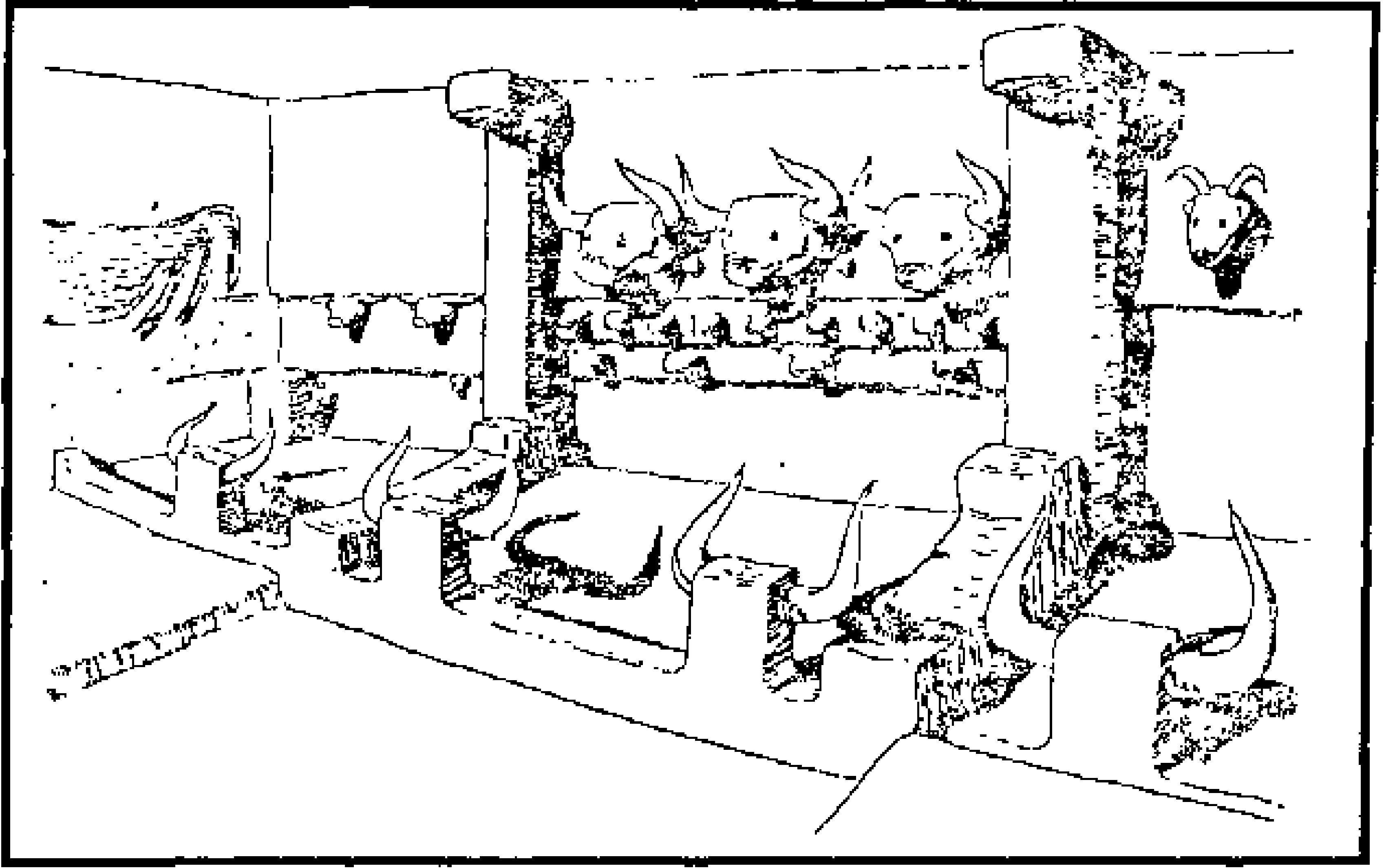
ب - **الإله العاشق** : حيث نجد الإله الابن في طور جنسي وكأنه ما زال طفلاً ملتصقاً بالأعضاء الجنسية للالهة الأم. ويبدو هنا انه مازلا تابعاً في الأهمية والدور لها . (شكل ٣٦)



شكل (٣٦) الإله العاشق الاناضولي

٤- إله شتال حيوك:في (الالف السادس ق. م): و قد تمظهر هذا الإله بمظهرين هما:

أ - **الإله الثور**: لايكاد معبد من معابد شتال حيوك يخلو من الثور والوحش، ويظهر في أكثر من حال فمرة يظهر وكأنه يولد من الإلهة الأم، ومرة يظهر منفرداً وقد علق رأس الثور أو قرونه على الجدران أو في المصاطب. وظهور الثور كمعبّر عن الإله الذكر له دلالة زراعية واضحة فالثور هو الذي يحرث الأرض والذي يرتبط بالإلهة الأم ويساعد في ذلك طبيعة الثور الذكورية وصفاته الخصيبة شكل (٣٧).



شكل (٣٧) الإله الثور في شتال حيوك ٦٠٠٠ ق. م.

ب - **الإله الفهد** : تظهر الفهود في شتال حيوك مرافقة للإلهة الأم، أيضاً وفيها مايدل على أنها ترمز للإله الذكر أيضاً.

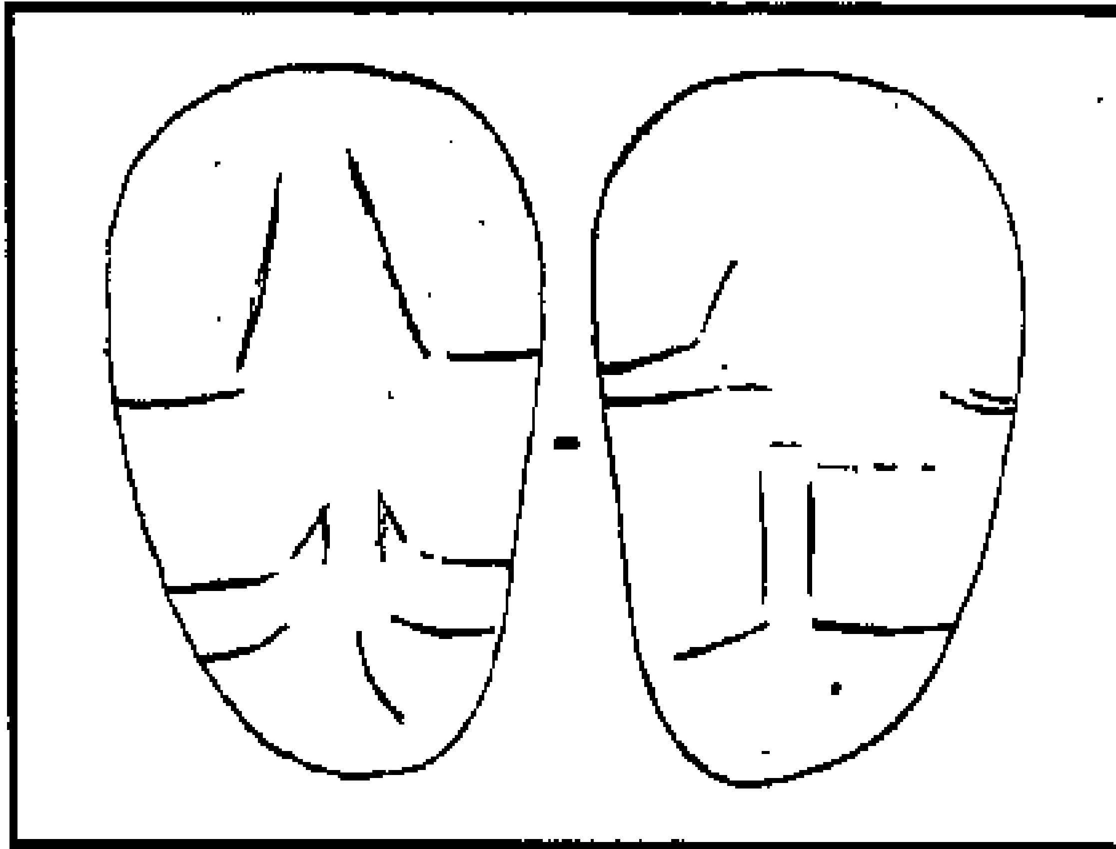
وهكذا نجد أن التجسيد في حالة الإله الذكر أقل منه قياساً بالأنثى، وأن التجريد والرمز يترافق معه، فهو يتحول بطريقة رمزية إلى قضيب، أو ثور أو فهد، وسنرى أن هذا سيستمر في عصر الكالكوليت ليرمز للإله الذكر (الهواء) والفأس وغيرها، ويعتبر مثل هذا الترميز نوعاً من سلب الإله الذكر الحضور الموازي للإلهة الأم المتجسدة بقوة ووضوح في كل ثقافات النيوليت. ثم إن هذا التجريد من جانب آخر سيساعد على ظهور فكرة المقدس لاحقاً بطريقة روحية أعلى تصل إلى صيغة (الإله)، وأعلى من التجسيد الذي يحد من خواصها المطلقة والبعيدة، سيترافق هذا مع صعود الذكر وإطاحته بمركزية الأنثى. وبذلك بتضافر التجسيد والتجريد لوضعه في المركز الإلهي المقدّس .

ج – الإلهة الخنثى (الأنثى / الذكر)

نعود إلى ذات السبب المتمثل بطغيان الإلهة الأم ومحاولة جمعها للصفات الذكرية أيضاً، حيث تبرز مجموعة من التماثيل التي تظهر هذه الإلهة باعضاء مزدوجة ذكورية وأنثوية وقد سماها البعض فينوس الذكرية (Venus- Phallus).

أ – مرحلة ما قبل الفخار:

إلهة المنحطة وشارها غولان: (الالف الثامن ق. م) وهي تماثيل بدائية حصوية غائبة الملامح شكل ٣٨

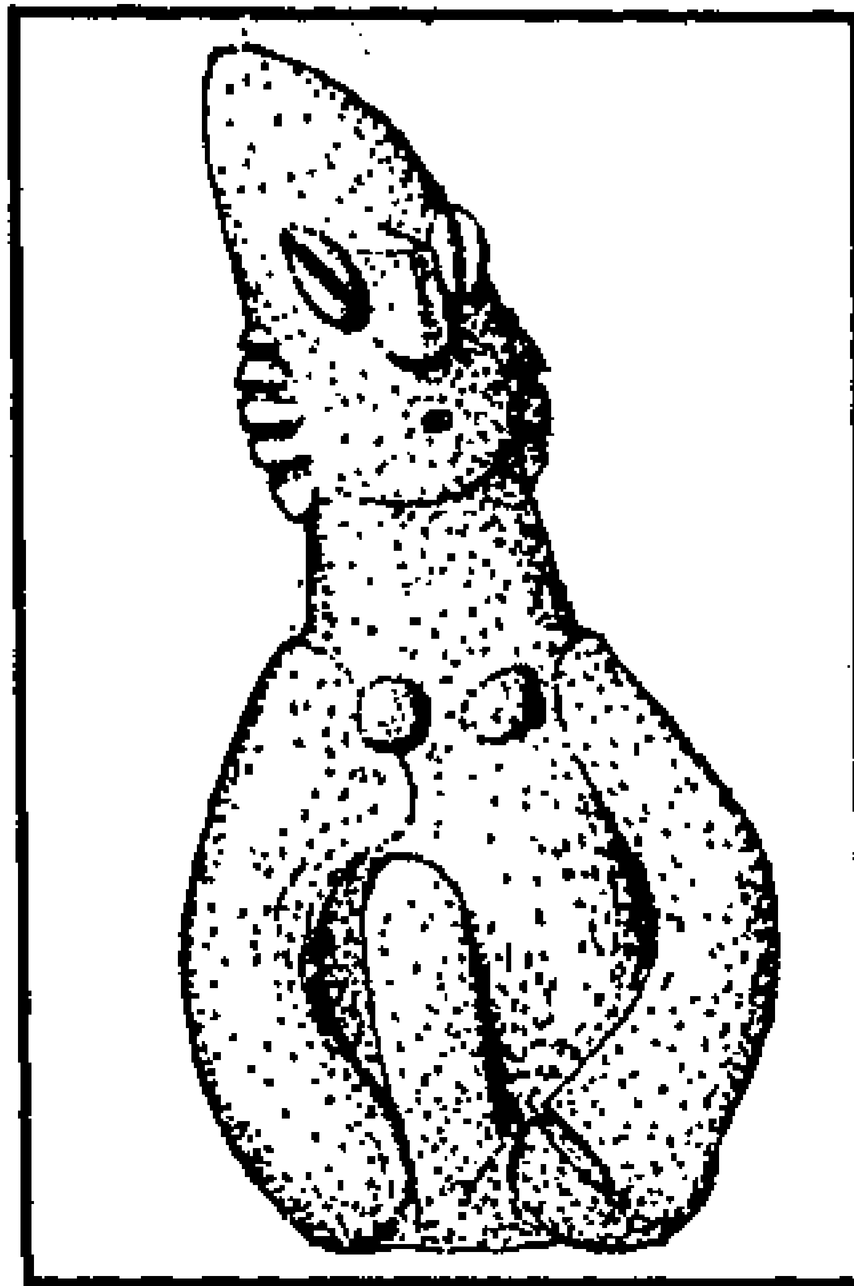


شكل (٣٨) إلهة المنحطة وشارها غولان.

ب – مرحلة ما بعد الفخار

١ – **إلهة تل الرمد:** وتظهر بعضو ذكري واضح ونهود صغيرة ورأس افعواني واضح وتشير إلى مثلث أنثوي ذكري حيواني شكل (٣٩).

٢ –**إلهة تبه سراب:** وتظهر الإلهة الأم جالسة وقد استعاضت عن ساقيها بقضيب ذكري كامل، وبرأس افعواني وجسد أنثوى واضح (شكل ٤٠).



شكل (٣٩) الإلهة الخنثوية لتل الرمد.



شكل (٤٠) الإله الخنثوية لتبه سراب.

د – الثالوث الإلهي (الاقنوم)

١– ثالوث أريحا: يظهر الثالوث الإلهي مبكراً في أريحا، فقد ظهرت «مجموعات ثلاثية من التماثيل تتكون كل منها من رجل وامرأة وطفل، والواقع أن ذلك التمثيل الأخير يضفي صورة حية على تجسيم التعبير عن ظاهرة الخلق الجديد»(٧)، ونرى أن مثل هذا الثالوث نشأ منعكساً من ظهور العائلة واستقرارها والتي تتمثل في ثلاثة أطراف هي الأم والأب والابن والتي تجسدت بصور إلهة تؤثر في مجريات الفلاحة والزراعة والخصب وظواهر الطبيعة.

٢– ثالوث عين غزال : ظهرت في ثلاثة مخابئ مهيأة للدفن في منطقة عين غزال الأردنية تماثيل جصية ثلاثية Plaster Statues حيث تظهر مجموعة ثلاثية من البشر تشكلوا من مادة جصية بهياكل قصبية ويتراوح طولها بين (٤٠ –٨٠) سم وقد تجمعت بطريقة ثلاثية (بعضها يدل على ذكر وأنثى وابن) ويرجع تاريخها إلى النيوليت قبل الفخاري حوالي ٧٥٠٠ ق. م.

٣– ثالوث شتال حيوك : إن المظهر الثلاثي للإلهة هو منظر مألوف تعج به معابد وأماكن شتال ويتألف غالباً من الإلهة الأم (وهي أما على شكل صليب أو نسر) والإله الأب (وهو على شكل صليب أو ثور)، والإله الإبن (وهو على شكل رأس ثور في الغالب).

٣– الرموز الدينية

اختتم النيوليت عصره بثقافة سامراء (٥١٠٠– ٤٩٠٠ ق.م) والتي غلب عليها ظهور الرموز الدينية بطريقة شاملة، وكانت لهذه الرموز بدايات أولية في ثقافة حسونة عندما نحى الرسم نحو التجريد واختزلت الكثير من المعالم وسادت الخطوط والدوائر والنقاط والأشكال الهندسية محل التجسديات... لكن الرموز والتجريد بمعناهما الواسع ظهرا في فنون وديانات سامراء، وفي نفس هذه الفترة نلمح رموزاً في منطقة الشرق الأدنى متأثرة بثقافة سامراء. ونحن نرى أن ظهور الرموز مع نهاية النيوليت وبداية الكالكوليت كان له الأثر الكبير في اختراع الكتابة لاحقاً في نهاية الكالكوليت (مرحلة البروتولتريت) لأن هذه الرموز نشطت العقل البشري باتجاه امكانية تدوين سهل

لمشاهداته من الأشياء حوله، كذلك أود أن اشير إلى أن الرموز التي أسماها يونغ برموز الإنسان المنطلقة من لاوعي الإنسان والمعبرة عن ذاكرة جماعية بعيدة، هذه الرموز عراقية قديمة في أصلها، منشؤها الرافدين الشمالي، لكن يونغ في كتابه (رموز الإنسان)[٨]، يرجعها في اقصى حد إلى الثقافتين المسيحية، أو اليونانية واحياناً إلى الثقافات الهندية والصينية،لكن حقيقة الأمر أن هذه الرموز ذات منشأ رافديني وسنمر على بعضها الآن، رغم أن لنا وقفة مفصلة في كتاب منفصل مكرس لهذا الموضوع:

١- المندالا : المندالا في أبسط تعريف لها هي «دائرة تنقسم إلى اجزاء متناظرة تنشد كلها نحو المركز، أو تشع عنه في تكوين جمالي متماسك، وترمز المندالا إلى حركة الوجود حول مركز واحد، ويبدو لنا مركز المندالا وكأنه المطلق الذي تدور حوله التفاصيل» [٩]، ويشير رمز المندالا قديماً وحديثاً إلى فرد مركزي عظيم يحيط به الكون، أو إلى انبعاث هذا الكون منه، وسواء كان هذا المركز هو الله، أو الإنسان، فإنه في كلا الحالتين يشير إلى الكلية والكمال. وقد تظهر المندالا في «عبادة الشمس البدائية، أم في الدين الحديث، في الأساطير، أم الأحلام، في المندالات التي يرسمها رهبان التبت، في التصاميم الأساسية للمدن، أم في المفاهيم الكروية للفلكيين القدماء. فإنها تشير على الدوام إلى مظهر للحياة مفرد واعظم جوهرية في كليتها النهائية».

لقد شكلت المندالا والصليب المتلازمان رمزاً لما كان يسمى بتربيع الدائرة وهو الأمر الذي شغل اليونان والعرب لاحقاً وكانت تلعب دوراً كبيراً في علم الكيمياء القديم، كذلك كانا أعظم رمزين للمسيحية وخصوصاً في القرون الوسطى، ولا يمكننا أغفال الأهمية الكبرى للمندالا في تصميم المدن، وإن تلازما في حقيقة الأمر ليدل دلالة رمزية واضحة على تلازم الكون (المندالا) والجسد الإنساني (السواستيكا) ودوران الجسد في الكون بطريقة إخصابية لاتنتهي سواء عن طريق الجنس في حركة الرجل مع المرأة، أو في رقص المتصوفة الذي تتشكل فيه فردياً، أو جماعياً أشكال المندالا والسواستيكا معبرة على الكليّ والمخصب في آن.

إن ظهور المندالا والسواستيكا المبكر في ثقافة سامراء ليدل على انتقالة مهمة في وفن الإنسان العراقي القديم وبدء تمثله للرموز الكبرى التي أصبحت فيما بعد رموزا شاملة للإنسانية كلها عبر التاريخ وما زالت.

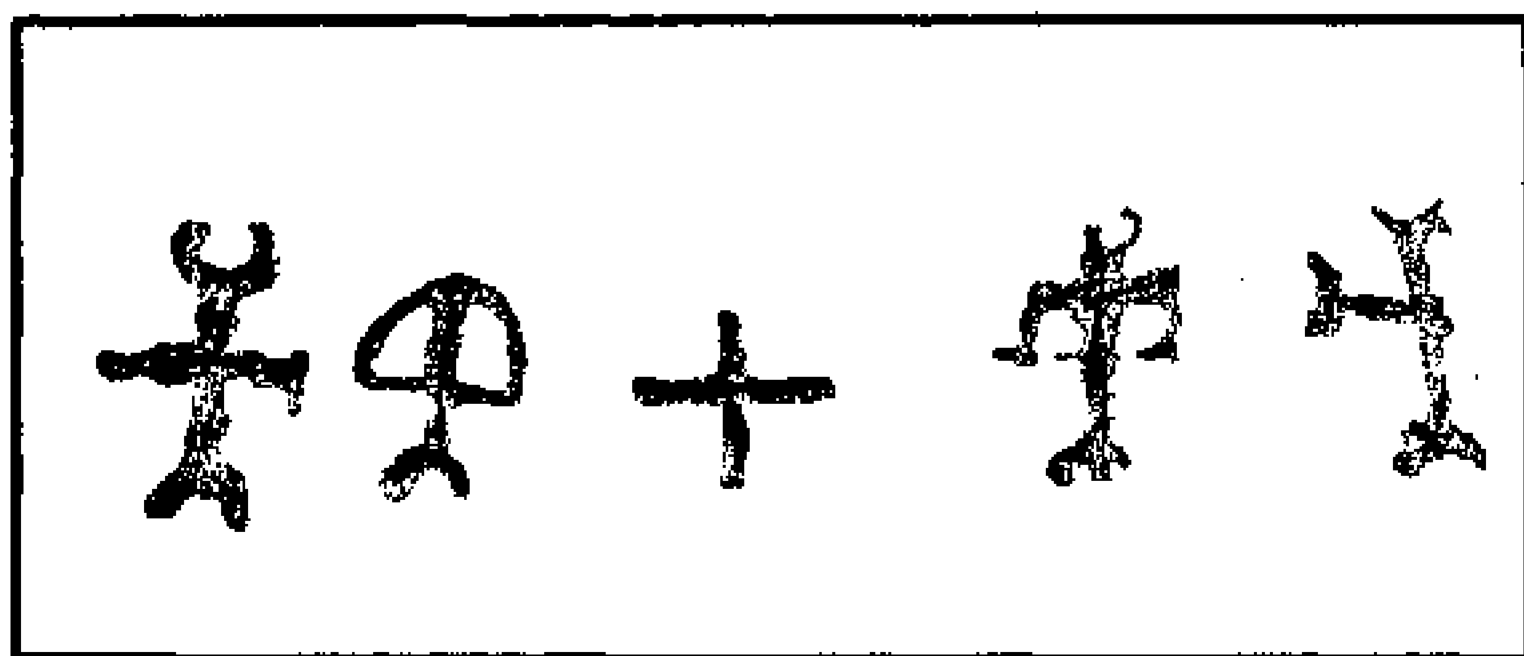
ونرى المندالا مجسدة في أغلب النقوش الفخارية لثقافة سامراء وقد نرى المندالا وهي تحيط الصليب أو الصليب المعقوف (السواستيكا)، أو نصفه أو الزهرة أو الاشكال الأخرى.

٢- **الصليب** : يرمز الصايب إلى الخصب في النيوليت، وهو إذ يعبر عن تقاطع عمودين صغيرين في الغالب مثل علامتي الجمع أو الضرب (+ ، ×) فإنه ينطلق من تصور اقدم يعبر عن لقاء ذكري أنثوي، أو عن الاطراف الأربعة للإنسان أو الجهات الأربعة للمكان، أو عن لقاء العضوين التناسليين الذكري والأنثوي، وربما عبر قبل ذلك عن النار، وتكونها من احتكاك عمودين حجريين في عصر الباليوليت، وبذلك يعبر عن الطاقة كما عبر عن الخصب في النيوليت. وقد ظهر الصليب في بعض فخاريات حسونه مبكراً ثم ظهر باشكال أخرى،و كما يلي :

أ – **صليب حسونه** : ويظهر على بعض فخارياتها.

ب – **صليب سامراء** : المعبر عنه بعلامات الجمع والضرب التي تحيط اطر فخاريات سامراء، أو توجد في داخلها. وهناك طبق فخاري يظهر فيه الصليب في المركز واضحاً وآخر في الاطراف.

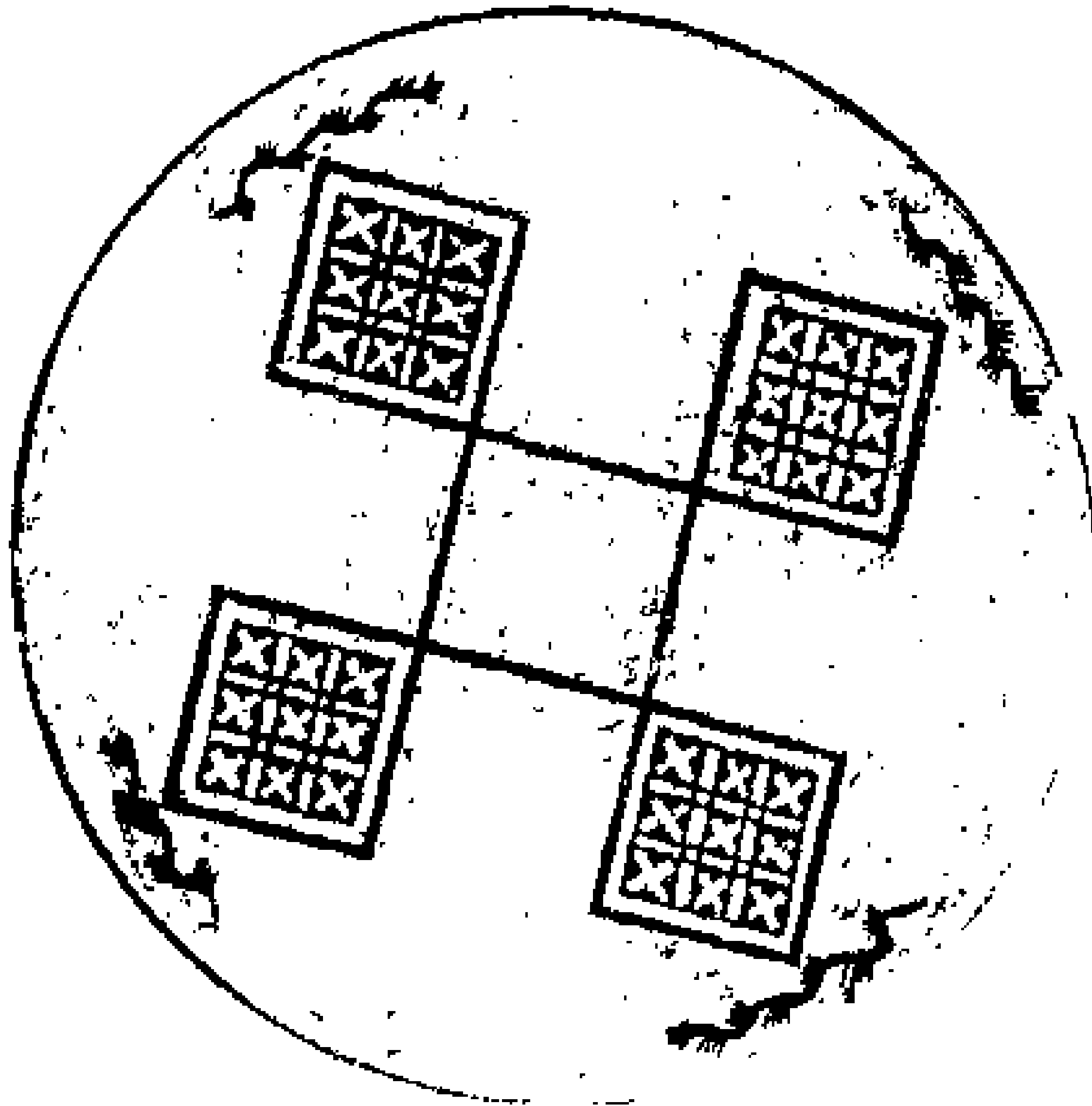
ج – **صليب الاناضول** : الذي وجد على جدران معابد يعود تاريخها إلى الالف السادس ق.م باشكال متعددة تشير احيانا إلى الإنسان والهلال وغير ذلك.



الشكل (٤١) صليب العصر النيوليتي، نقش على جدار معبد- جنوب الاناضول الالف السادس قبل الميلاد.

د – صليب شتال حيوك للإلهة الأم: وقد تحدثنا عنه.

٣- **الصليب المعقوف** (السواستيكا Swastika): كان المعتقد السائد بأن الصليب المعقوف الذي هو رمز للنازية مأخوذ من أحد الرموز الآرية التي ترجع إلى الثقافة الهندواوربية ولكن حقيقة الأمر تفيد إلى أن هذا النوع من الصلبان قد ظهر في الالف السادس ق.م. في الثقافة العراقية القديمة في سامراء وهو يشير إلى الخصب المتحرك أو الخصب الذي يأتي بعد حركة أو طقس ويمكننا في ثقافة سامراء تمييز أربعة من الأواني الخزفية التي فيها ما يشير إلى خطين (عمودي وافقي) منكسرين يدلان على الحركة حول مركز معين وتشكل صليبا معقوفاً حول هذا المركز وهي :

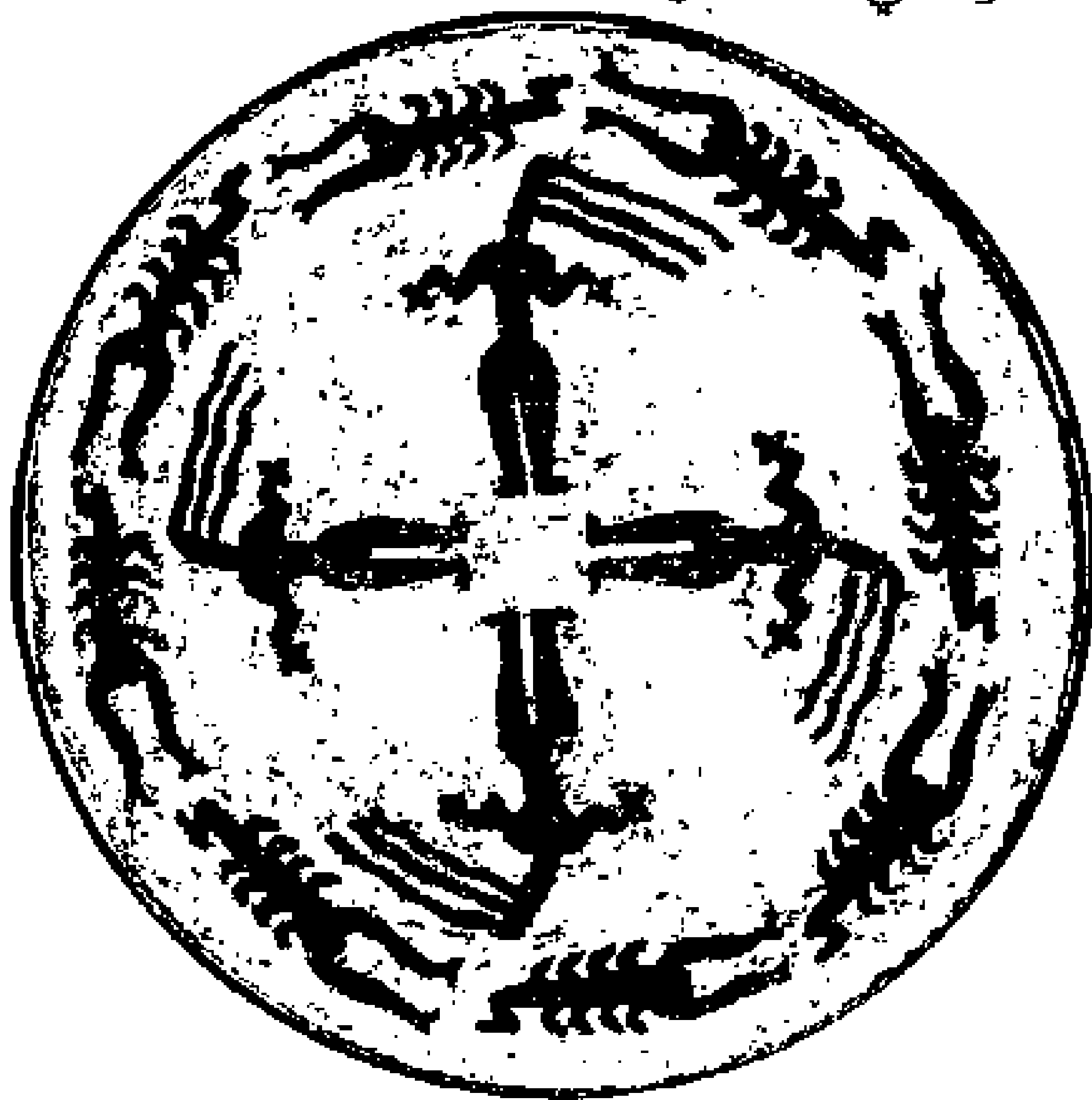


شكل (٤٢) الصليب محشواً بصلبان صغيرة/ الالف السادس / سامراء

أ – منظر النساء الأربع العاريات وهن يؤدين طقس استنزال المطر (الاستسقاء) (شكل ٤٣) على شكل رقصة دائرية ذات طابع سحري حيث تنثر كل واحدة منهن شعرها إلى جهة من الجهات الأربعة، ويتضح لنا أن هذا الطقس يجري في منطقة صحراوية مجدبة بدليل وجود ثماني عقارب حول النساء الأربع أي بمعدل عقربين للمرأة الواحدة، ويلتقي رأس كل عقرب مع أطرافها السفلى عند رأس المرأة الناشرة الشعر... وتبدو العقارب كما لو أنها في حركة دائرية لاتنهتي، ويأتي نثر الشعور

كحركة سحرية تدل على تحريك الهواء إعتماداً على المبدأ السحري الخاص بالتشابه، حيث يؤدي تحريك الهواء في منطقة معينة، عن طريق شعر المرأة الخصيب، والى تحريك الريح بصورة عامة، وهذا يجلب الغيوم والغبار فتمطر السماء. وقد سمي هذا الطقس لاحقاً بالسومرية (آكيتي)، الذي هو جذر لكلمة (آكيتو) وهو عيد رأس السنة البابلي حيث «إن اقدم صيغة لكمة اكيتو جاءتنا بحدود (٢٤٠٠ ق.م وعلى شكل (آ - كي - تي). العلامة (آ) تعني الماء ومجازاً المطر و (كي) تعني الأرض، و(تي) فعل بمعنى يقرب فيكون بذلك معنى الكلمة كاملاً تقريب الماء إلى الأرض. أي الاستسقاء. ولكن مما تجدر الاشارة إليه بهذا الخصوص هو أن العلامة (آ) كثيراً ما كانت تكتب بعلامة أخرى وتلفظ كذلك (آ) ولكنها تعني (العمل، الجهد، الساعد) وسبب هذا التغيير في نوعية العلامة (آ) يرجع إلى انتقال هذا الطقس إلى القسم الجنوبي من العراق لأن القسم المذكور لم يكن بحاجة إلى الاستسقاء بقدر حاجته إلى العمل وبذل الجهود من أجل شق القنوات وبناء السدود. ولذلك كتبت العلامة الأولى من كلمة اكيتو بشكلين الأول على أصل العيد والثاني ينسجم وحاجة المنطقة الجديدة التي يسكنها السومريون»[١٠].

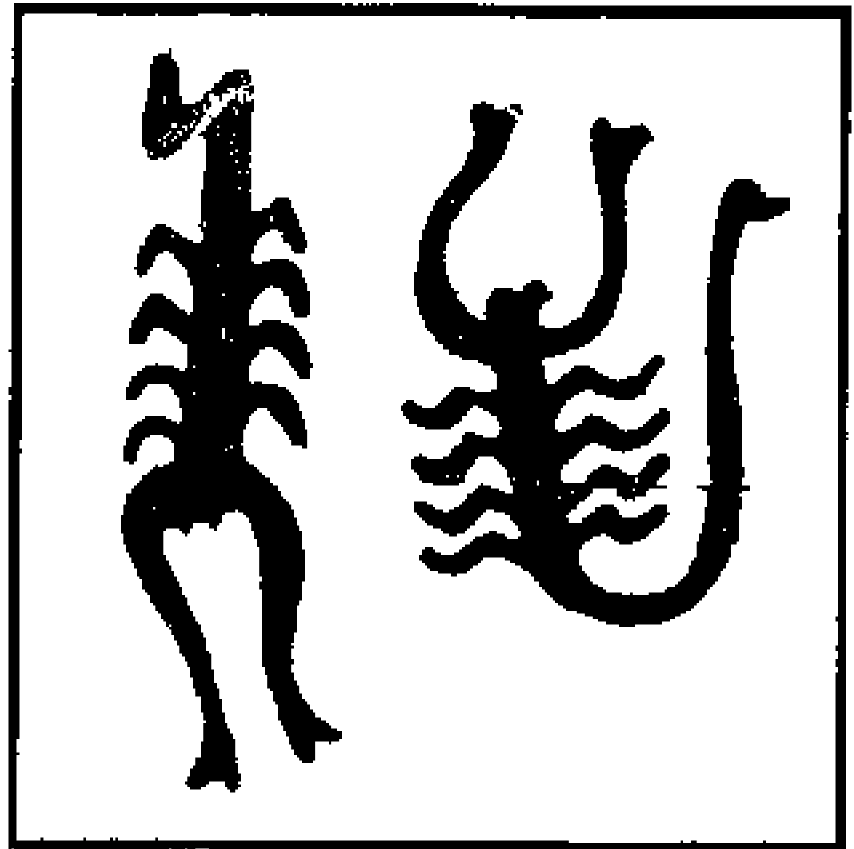
وقد تكرر مشهد النساء العاريات بدون العقارب في فخاريات أخرى، وتكرر مشهد الراقصات الاربع بإضافة خامسة في طبق آخر وتداخلت اشكال الصليب المعقوف مع اشكال الصليب الأخرى في هذا الطبق.



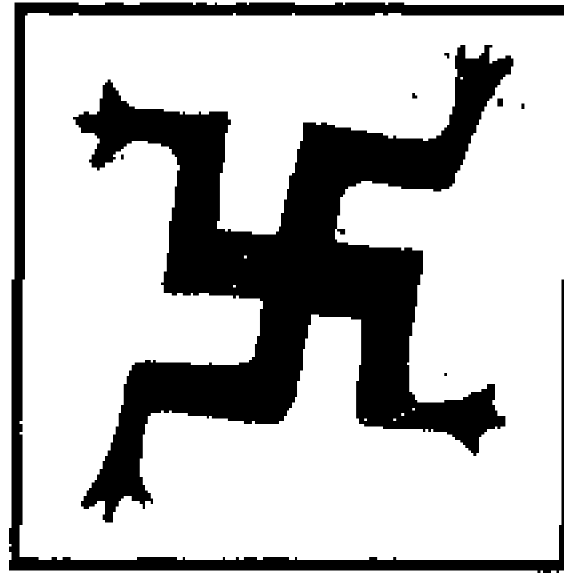
شكل (٤٣) مندالا وسواستيكا الراقصات الأربع - رقصة أكيتو

ب - منظر العقارب الأربع وهن يرقصن أو يتحركن حول مركز سواستيكي (شكل ٤٤) وتزين المنظر أربع علامات برق سنتحدث عنها. ويظهر رمز العقرب في هذا الشكل ليدل على الإلهة الأم، لأن العقرب كما هو معروف تؤكل من قبل ابنائها الذين يخرجون من البيوض في جسدها، فهي بذلك رمز للأم التي يعتاش أبناؤها على جسدها فهي كالأرض (الإلهة الأم)، وتشير علامات البرق إلى شكل صليبي أيضاً، وكذلك يبدو المركز وكأنه سواستيكا بشرية متحركة. (سواستيكا ذات الاذرع الصليبية) (شكل ٤٥).



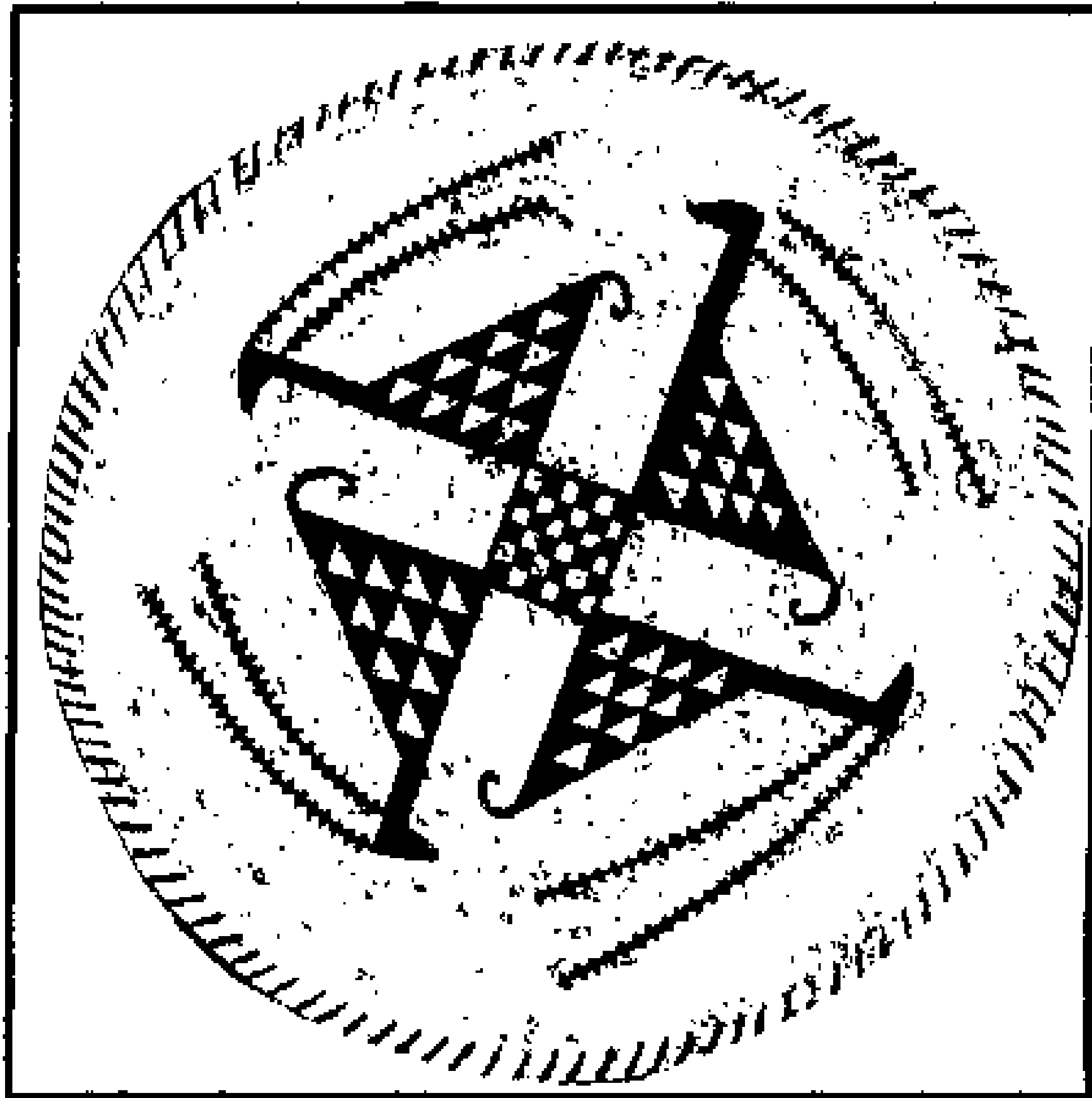


شكل (٤٤) مندالاوسواستيكا العقارب الأربع (الإلهة الأم) والسواستيكا المركزية ذات الأذرع الصليبية وتظهر رموز العقرب بشكلين احدهما ساكن والآخر راقص

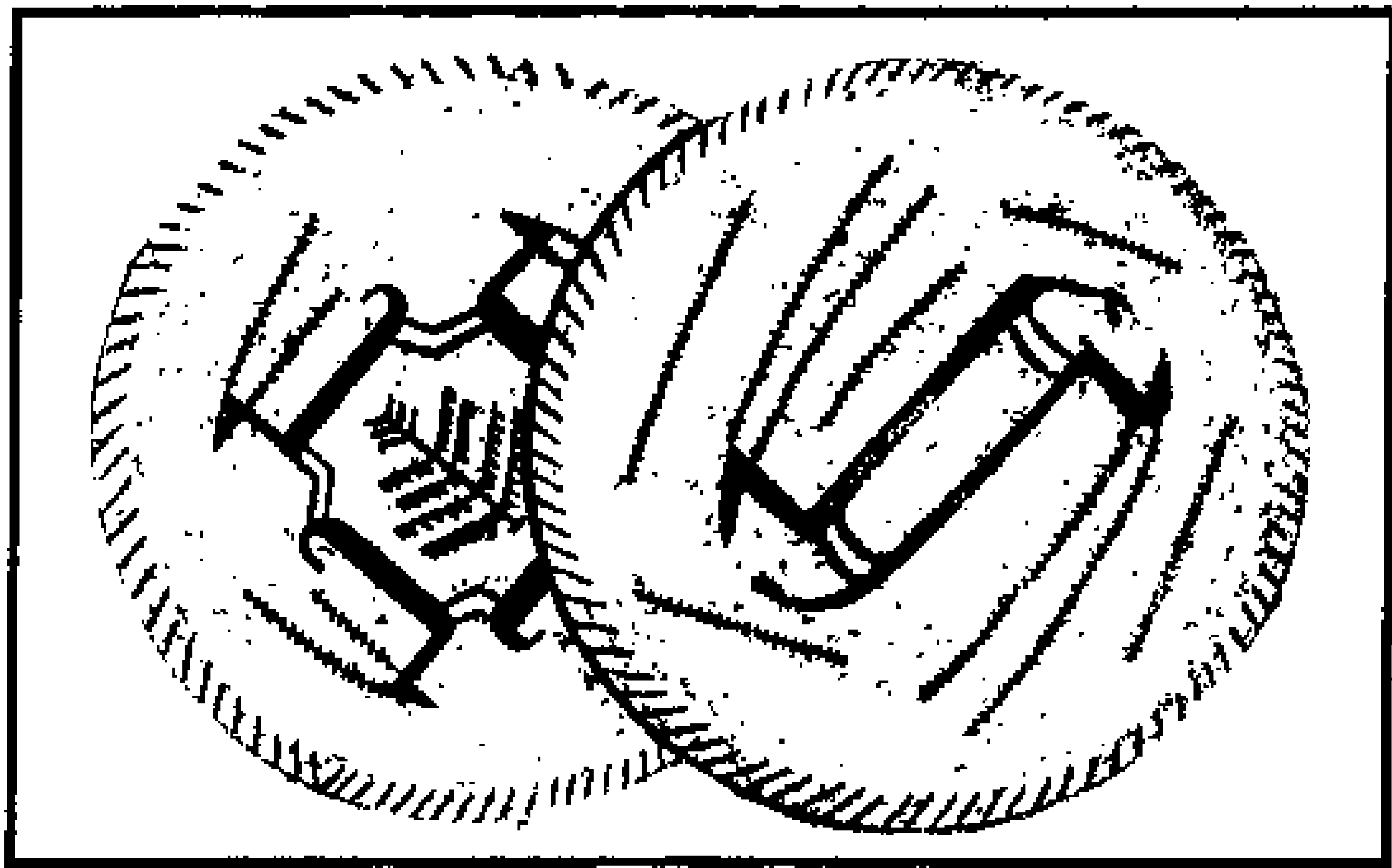


شكل (٤٥) سواستيكا متحركة ذات اذرع

ج- الجداء الأربعة اللائي يدرن حول بركة من الماء (شكل ٤٦) أو حول شجرة في المركز (شكل ٤٧أ) وتشكل قرونهن في الحالين أذرع السواستيكا. والجداء والبركة والنبتة كلها رموز خصب.

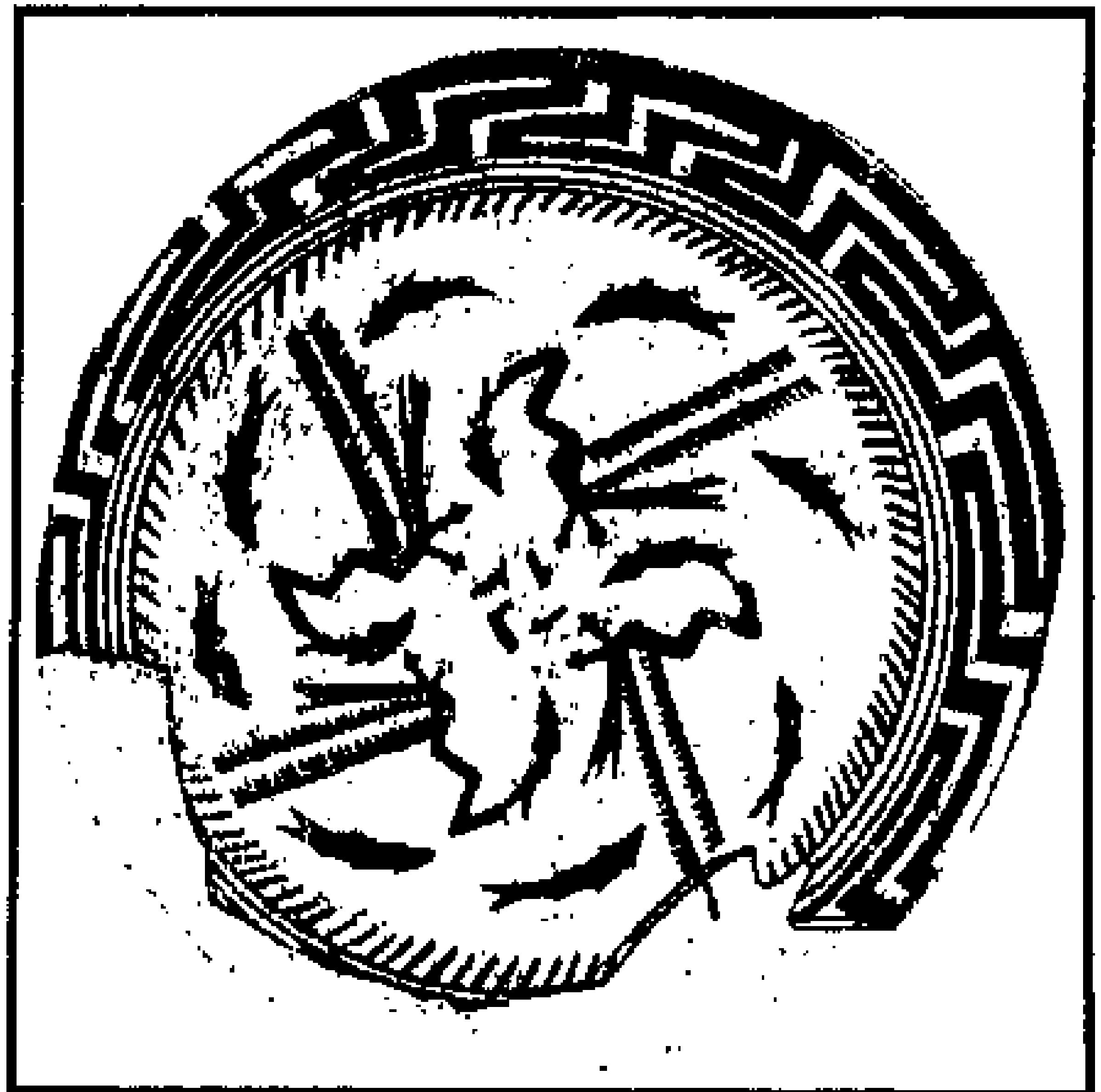


شكل (٤٦) سواستيكا الجداء حول البركة

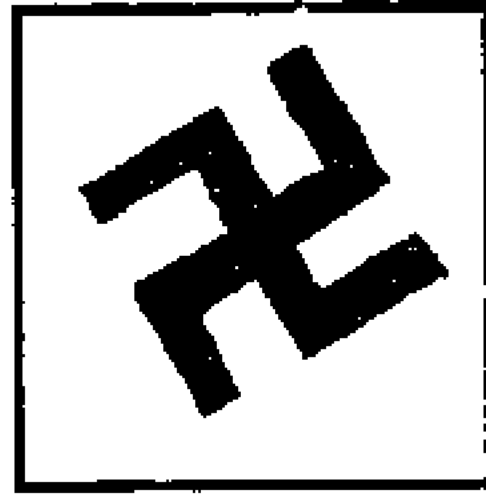


شكل (٤٧) أ. سواستيكا الجداء حول الشجرة ب. نصف سواستيكا

د – سواستيكا الأسماك: ويظهر في (الشكل ٤٨) حيث أربعة طيور بأجنحة طويلة وذيول وفي منقار كل منها سمكة ويحيط بهن ثماني سمكات تسبح باتجاه معاكس لعقرب الساعة، ويظهر في مركز الشكل رمز الصليب المعقوف وأضحاً جداً وكذلك تشكل أجنحة الطيور أذرع السواستيكا الأربع، (شكل٤٩).



شكل (٤٨) سواستيكا الاسماك

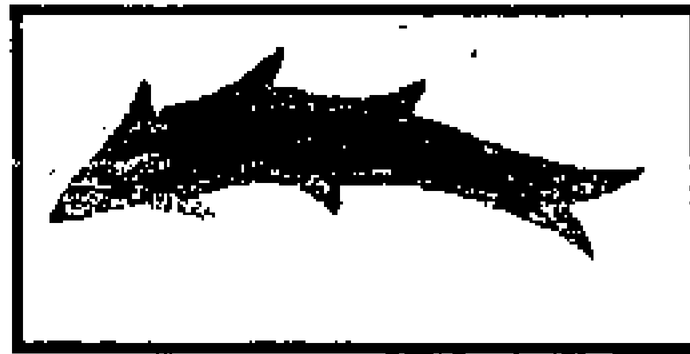


شكل (٤٩) السواستيكا: قلب الشكل السابق

٤- نصف السواستيكا (S) : وهي على شكل الحرف اللاتيني (S) . والذي يرمز إلى الحركة والخصب ويمثله اناء خزفي من سامراء فيه جديان بقرون متقابلة عكسياً (شكل ٤٦ ب).

٥- رمز العضو التناسلي الأنثوي (رأس الرمح أو المثلث المشطور): ونراه مكرراً في طبق فخاري من سامراء في حركة دائرية، وهي سهام تتحرك منتظمة وعشوائية وتكاد تشبه حركة وشكل الحيامن في نفس الوقت الذي تشير إلى شكل الفرج خصوصاً إذا نظرنا إلى السهام الصغيرة جداً، والتي تشبه الحيامن.

وفي هذا الجو الجنسي والخصبي (اللاشعوري) نلمح طيوراً تطير وتتبعها السهام باتجاهها حتى ليكاد المنظر بأكمله يبدو منظر صيد للطير في الوقت الذي يدل أيضاً على مشهد ذي رموز جنسية. (شكل ٥١).

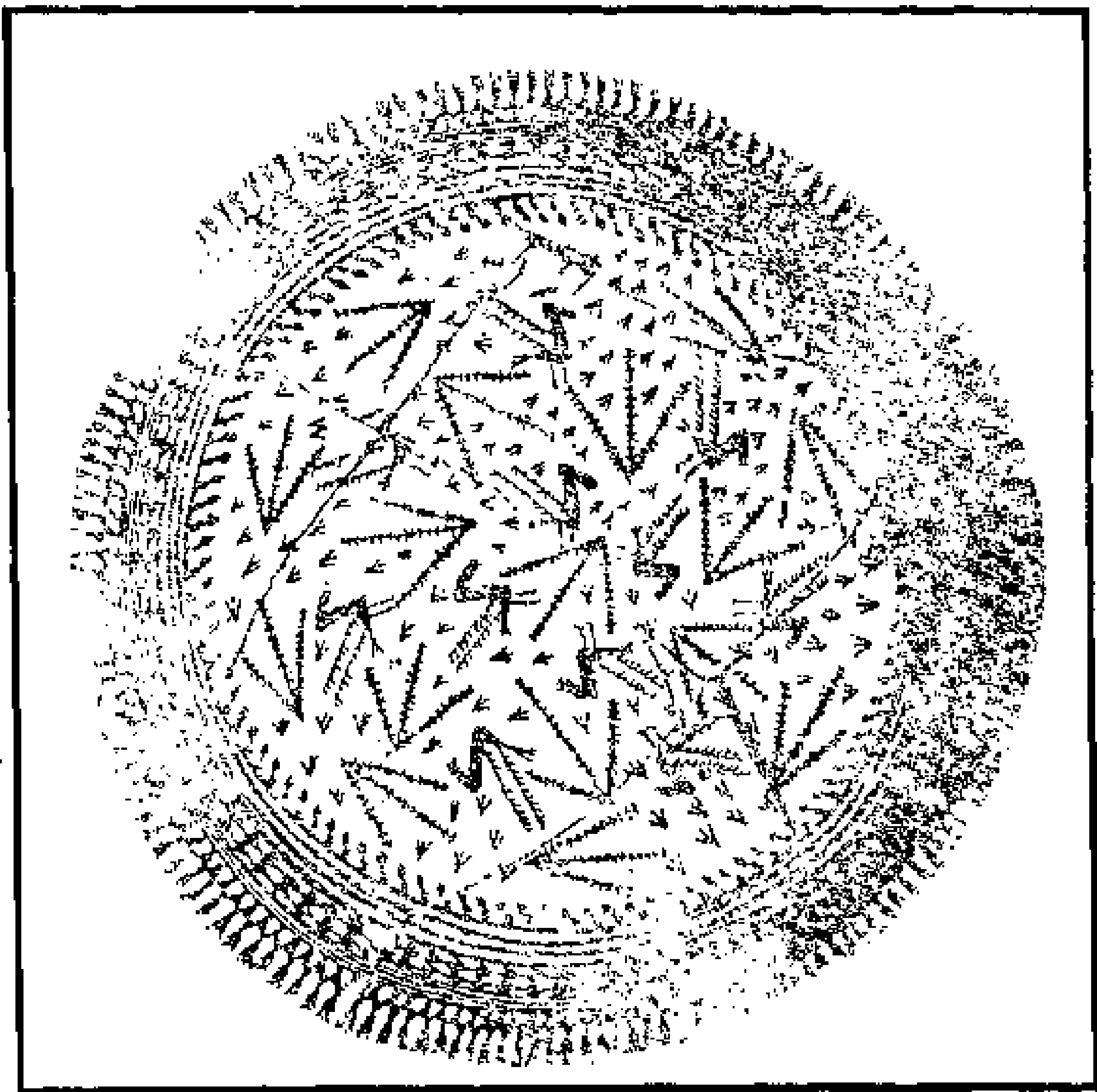


شكل (٥٠) السمكة، رمز الماء والالهة الأم

٦- **رمز العقرب** : وتشير إلى الإلهة الأم، وأن صغارها يعتاشون عليها ويأكلونها مباشرة بعد ولاذتهم فترمز إلى الأم والأرض (شكل ٤٤)

وقد تأخذ هذه العقارب صفة الأضاحي التي بموتها يموت الجدب ويسقط المطر وينمو الزرع. وسيظهر رمز العقرب في أعياد الآكيتو السومرية والبابلية مع الافعى التي هي رمز الإلهة الأم أيضاً [١١].

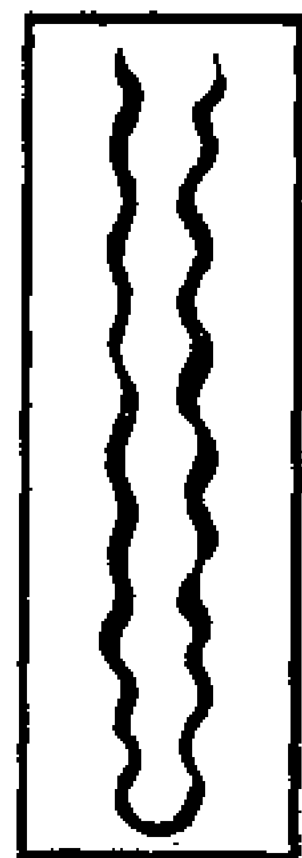
٧- رمز السمكة :ويدل رمز السمكة على الماء أو المطر وهو احد رموز الخصب حيث تظهر بعض الأواني الفخارية تحمل ثماني سمكات تدور بإتجاه معاكس لعقرب الساعة حول أربع سمكات مطعونه بمركز سواستيكي. وقد تشير إلى الإلهة الأم أيضاً.



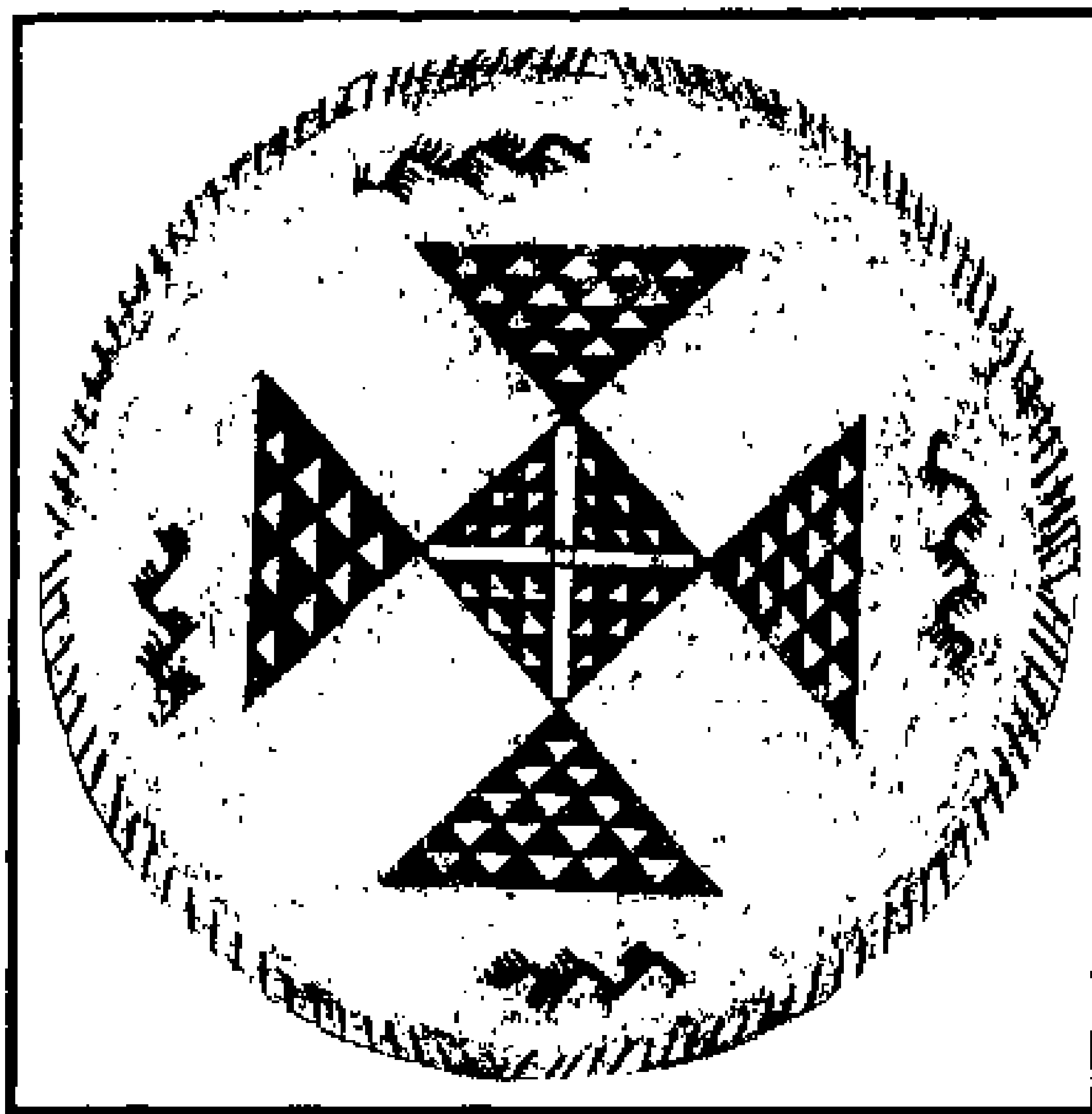
شكل (٥١) السهام والطيور

٨ – **رمز الجدي (الماعز)** : ويدل على الخصب أيضاً ويظهر بشكل (ثنائي أو رباعي، وله قرون مزدوجة مسننة، أو قرون شجرية مسننة وبصلبان صغيرة ولها ذيول مقوسة أو ذيول مثلثة مشطورة وبعضها يأكل العشب. وتدور حول ماء أو شجرة في تشكيلات سواستيكية أو نصف سواستيكية.

٩– **رمز البرق:** وهو من الرموز الملفتة للنظر ويظهر مبكراً على أطباق فخارية من سامراء بشكل حرف U المتعرج الذراعيين (شكل ٥٢) وهو يشير إلى الاستسقاء ومحاولة انزال المطر ويظهر هذا الرمز للبرق لاحقاً في الديانة السومرية والبابلية ممثلاً للإله أدد وهو إله ذكري قوي يرمز للقوة والخصوبة في آن واحد.

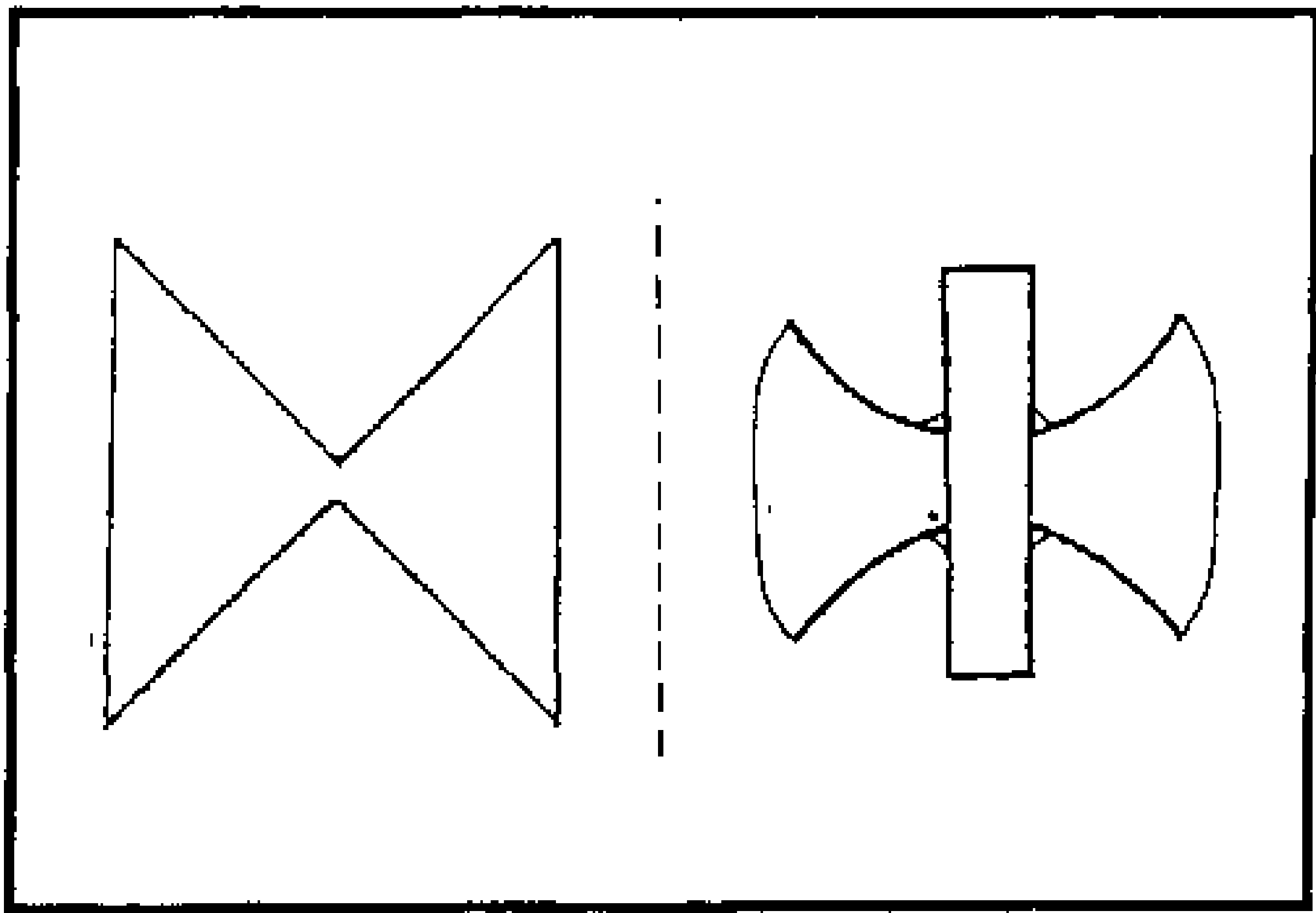


شكل (٥٢) رمز البرق

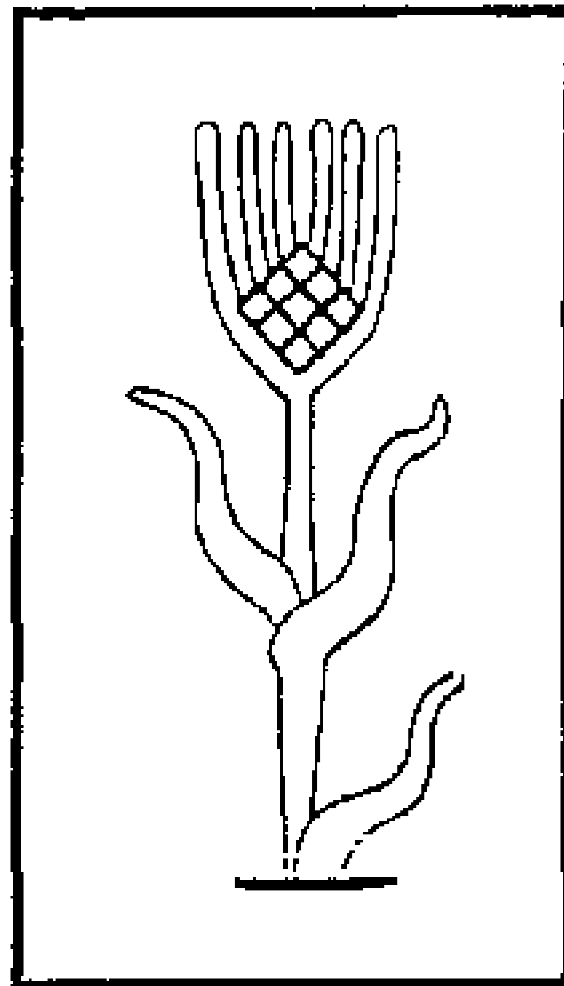


شكل (٥٣) الصليب المالطي وفيه رمز المثلثين المتقابلين، مع صليب مركزي

١٠ – **رمز المثلثين المتقابلين** شكل (٥٣، ٥٤) . سيتحول هذا الرمز لاحقاً إلى فأسين متقابلين، وقد شكله هنا الجديان المتقابلان من أرجلهما رمزاً مبكراً سنلمحه في الثقافة اللاحقة لثقافة سامراء واضحاً يشير إلى الفأس المزدوجة وهي رمز الإله الذكر في حلف والذي سيصبح رمز الإله انليل... إله الهواء. أما هنا في سامراء فسنراه، في عدة أشكال بصورة عفوية وقد يأخذ نفس الدلالة.



شكل (٥٤) الفأس المزدوجة والمثلثان المتقابلان رموز الهواء



شكل (٥٥) رمز السنبلة

١١- رمز الطير : يظهر في الأطباق الفخارية مطعوناً أو تتجه إليه السهام وهو يدل على الهواء وعلى الإله الذكر.

إن رموز العقرب والجدي والبرق والمثلثين والطير والسمكة كلها تشير إلى آلهة ذكورية، أو رموز ذكورية بدأت تظهر مقابل الرموز الأنثوية والإلهة الأم وهذا يشير إلى الانقلاب الذكوري الذي سيتضح مع أول ثقافة من ثقافات الكالكوليت.

ويمكننا أن نصنف هذه الرموز إلى هوائية (كالبرق، والطير، والمثلثين) وهي تشير إلى الإلهة الأب (إله الهواء)، ومائية (كالسمكة)، وهي تشير إلى إله الماء (الإله الابن) والجدي (إله الخضرة الابن) والعقرب (الإلهة الأم)، وهي ظنون مبكرة لبانثيون نيوليتي رمزي لا نملك أدلة مكتوبة عنه.

١٢- **رمز السنبلة** : ويظهر مبكراً في فخار حسونة ويشير إلى الخصب والنبات.

١٣- **الرموز الهندسية** : لايخلو طبق فخاري من أشكال هندسية مختلفة بعضها يدل على أشياء محددة مثل الخط المتموج الذي يشير إلى النهر والماء والخطوط المنكسرة والمتعرجة والمتدرجة، والأشكال المثلثة والمربعة والمعينة، والأشكال الدائرية التي ظهرت مبكرة في ثقافة حسونة وتشير ربما إلى الشمس أو القمر، وهناك الأشكال القوسية التي تشير إلى الهلال وقرون الثور، وأشكال هندسية مركبة الغرض منها تزيين محض.

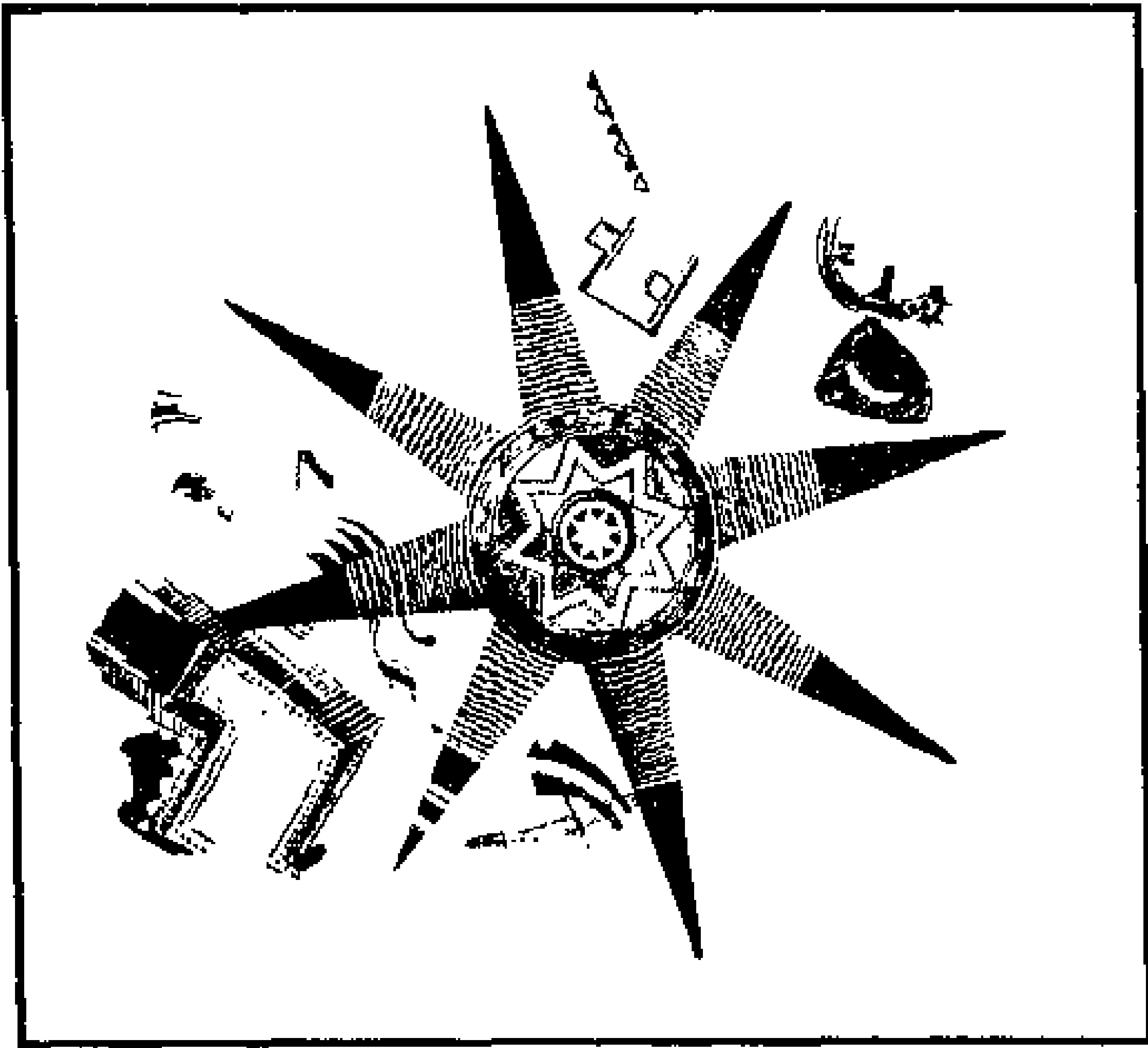
١٤- **الرموز الكوكبية** : ظهرت رموز الكواكب في نقوش الفخاريات النيوليتية وهي تدل على أول إشارة لدخول الكواكب كعناصر عبادة إضافة لعناصر الخصب التي تعرفنا عليها وسيكون هناك ربط لاحق بين عناصر الكواكب والخصب مع إدراك أهمية المطر والأنواء الجوية في الزراعة، وبذلك لم تعد خصوبة الأرض (الإلهة الأم) هي الأساس في العبادة النيوليتية كلما اتجهنا إلى نهايتها بل بدأت تظهر عناصر أخرى، كالمطر والهواء والبرق والشمس والكواكب وكل هذه العناصر تحشدت بشكل ذكوري باتجاه الديانة الأنثوية النيوليتية لينتج عنها التحول الكبير في الكالكوليت نحو صعود الديانة الذكرية؛ ومن هذه الرموز ما يلي:

أ – **الشمس** : وتظهر على شكل دوائر في ثقافة حسونة وسامراء ربما دون إشارة واضحة جداً لوظيفتها.

ب- القمر : وهو عنصر أنثوي في الديانة النيوليتية الشمالية وسنوضح ذلك لاحقاً، لكنه يتحول إلى عنصر ذكري مع ظهور شكله كهلال لأنه يشير إلى قرني الثور ويدل على الإله الإبن المولود من الإلهة الأم (القمر). وهي دورة القمر (البدر - الهلال - المحاق).

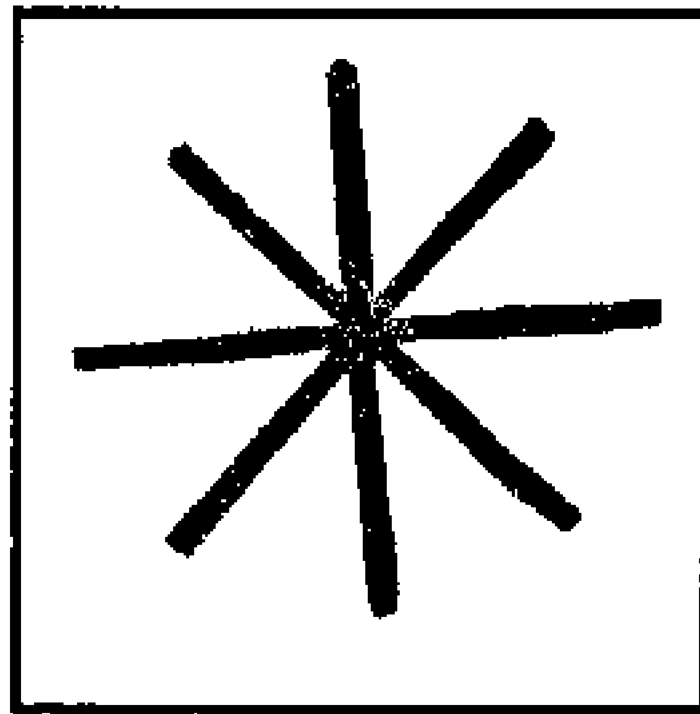
ج - النجمة الرباعية : تظهر عرضاً على حافات الأواني الفخارية .

د - النجمة السداسية : وتظهر على اجساد الجرار الفخارية لتل حسونة وتبدو وكأنها متحركة حيث تميل أشعتها إلى الحركة باتجاه عقرب الساعة وتتزين هذه الأشعة بنقاط.



شكل (٥٦) نجمة الغسول الثمانية

هـ - **النجمة الثمانية** : وتأتينا هذه النجمة من الأردن (تليلات الغسول) شكل (٥٦) وهي واحدة من أندر وأجمل اللوحات الجدارية في الشرق الأدنى بأكمله، والتي تعبر عن أواخر عصر النيوليت، وربما ظهرت فكرة الإله الذي اريد تشخيصه بالإلهة الأم في بداية النيوليت، على شكل نجمة ثمانية في نهاية النيوليت وهذا يشير أيضاً، إلى انتقال الإلوهية من الأرض إلى السماء وقد تشير نجمة الغسول إلى الشمس ، ولكنها في الغالب تشير إلى النجمة ذات الأشعة الثمانية، و نجمة الغسول في حقيقتها ثلاث نجمات ثمانيات واحدة بداخل الأخرى... وكأن هذا الرقم (٣) يعكس الكثرة من النجمات ولنتأمل في جدل التعدد والتوحد هذا، المعبر عنه برمز سماوي هو النجمة... وقد يدل هذا على تشوّق إنسان النيوليت (أو الكالكوليت؟؟)، وشعوره بالمطلق، وإنه يعكس اهتماماً مبكراً، بالكواكب وربما بعبادتها، وهذا بحد ذاته أمر في غاية الأهمية. فربما دلت هذه النجمة على إله... بل إنه لمن المؤكد إن رمز (إله) في الكتابة المسمارية التي ظهرت في سومر منتصف الالف الرابع قبل الميلاد له علاقة كبيرة بهذه النجمة الثمانية فالرمز المسماري دنكر Dinger كما هو معروف يدل على الإله ويرسم بأشعة ثمانية وربما دلت هذه النجمة تحديداً للإلهة عشتار أو إنانا لأن رمزها الأول هو كوكب (الزهرة)، وبذلك يعطينا هذا الرمز أكثر من دالة على عبادة الكواكب وعلى بدايات الكتابة [١٣] شكل (٥٧).

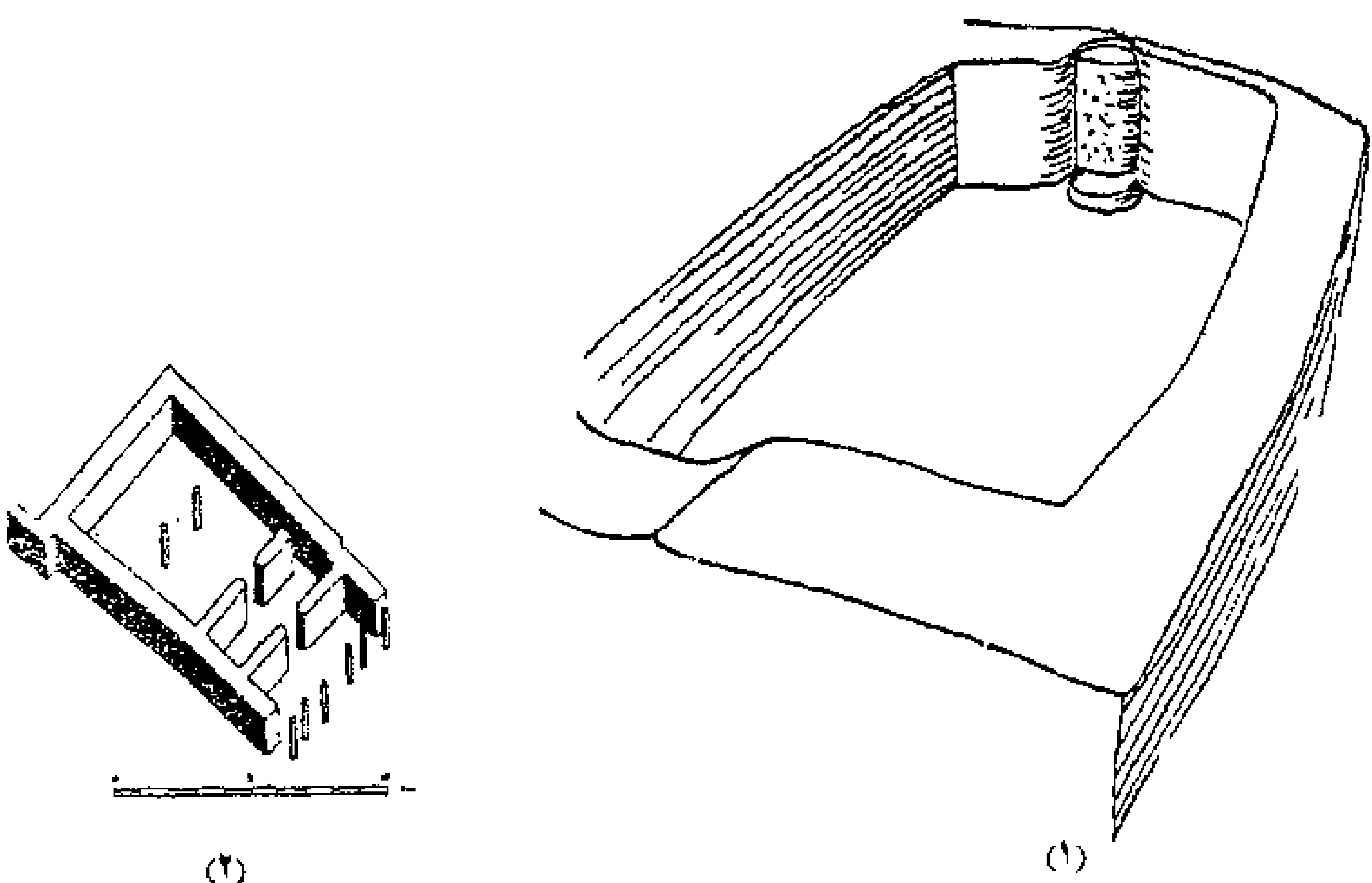


شكل (٥٧) رمز الاله،أصل علامة دنكر المسمارية وترمز لاشعة ثمانية أو للجهات الثمانية

٤- أماكن العبادة

عرفنا إن المعبد الكهفي المزين برسوم الصيد والحيوانات كان مكان العبادة الرئيسي في الباليوليت، وعرفنا أن الميغاليت كان مكان العبادة الرئيسي في الميزوليت أما النيوليت فقد شهد ظهور ثلاثة أنواع من أماكن العبادة وهي:

١- **المصلى العائلي**: وهو الذي وجد في أريحا وكشف عنه كنيون [١٤] وهو مكون من أربعة جدرن تكون ملحقة بالمنازل ويظهر العمود الصغير الذي شبهته بالنصب المسمى بـ (المسبوث Messebothe) لدى الساميين على أحد الجدران وقد يرتبط هذا المصلى بطقوس عبادة. عائلية شكل (٥٨).



شكل (٥٨) (١) شكل تخطيطي للمصلى العائلي شكل (٥٨) (٢) مزار في أريحا أكثر تطوراً من المصلى العائلي

٢- المزار : وقد وجد في أريحا أيضاً. وهو أكثر تطوراً في المصلى العائلي ويبدو أنه كان للعبادة الجماعية فهو مكون من فناء داخلي كبير له مدخل داخلي ويحيط به مدخل خارجي واعمدة خارج هذا المدخل الخارجي .

٣- المقام (Shrine): وهو معبد بدائي متصل بمقبرة لونت جماجم موتاها بالأحمر والأسود ومعهم حليهم الخاصة.

٥- اسكاتولوجيا النيوليت

بعد الزراعة فتح الإنسان عينيه على ملاحظة دورات إيقاعية عديدة في عالمه، فهناك دورة الحياة النباتية التي تبدأ بالبذار وتنتهي بالحصاد وهناك دورة الحياة الحيوانية والحياة الإنسانية من الولادة إلى الموت، وهناك أيضاً دورات الطبيعة المختلفة كالأنهار (تجمعها وانحسارها)، والكواكب (شروقها وغروبها)، وكل هذه الدورات أعطته فكرة عن الخلود والأبدية واللانهائية «ولذلك شعر بضرورة لحاقه بظاهرة الخلود، والاستمرار بعد الموت الدنيوي، وبذلك يكون متكاملا مع كافة ظواهر الحياة المحيطة به، بمعنى أنه يصعب عليه الانفراد بذاته لانه يعتمد على تلك الظواهر الطبيعية المحيطة به ويشعر بالأمان عندما يسير في موكب حياتها الأبدي»[١٥].

* **في فلسطين** ظهرت عقيدة الإيمان بالحياة الأخرى مع الثقافة النطوفية، حيث ظهرت بعض المقابر الفردية والجماعية، فقد ظهرت حفر تحت مستوى سطح الأرض توضع فيها جثث الموتى، وهناك كتل حجرية فوق بعض الهياكل العظمية وقد دلت هذه الكتل الحجرية كحماية وكتثبيت لعقائد الخلود. ثم ظهرت المقابر الخاصة، وكان لظاهرة ذر التراب الأحمر في المقابر معناها وقد استمرت في عصر النيوليت وما بعد، وقد رأى البعض أنها ربما «تتصل بعقيدة الخلود أيضاً من حيث أن اللون الأحمر هو لون الدم الذي يعبر تواجده عن استمرار الحياة وأن ذر التراب الأحمر ربما يرمز أيضاً إلى استمرار الحياة بالنسبة للمتوفى وبذلك ينعم بالخلود في العالم الآخر»[١٦]. لقد عثرت كنيون Kenyon على بقايا معبد ينتمي لتلك الحضارة وحاولت إيجاد علاقة بين ذلك المعبد وبين تقديس الماء الذي يعتبر قوة مقدسة تدل على الخصب وتشكل سبباً في الزراعة لقد لاحظ

الآثاريون ظاهرة فصل رأس المتوفى عن جسده ووضع كسوة جصية فوق رأسه حتى تظل صورته مشابهة للأصل وترى كول Cole إن «فصل رأس المتوفي عن الجسد ودفنها بصورة مستقلة ربما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة، ومما يسترعي الانتباه وجود وجه شبه بين ذلك التقليد من حيث كسوة رأس المتوفي بالجص، في الوقت الحاضر في ميلانيزيا» (١٧)، وكان دفن الموتى في فلسطين يتم تحت أرضية المساكن، لكننا نلمح في أواخر النيوليت ظاهرة تخصيص منزل للمتوفى قريب من منزله الفعلي.

* **في سوريا** وجدت مقابر الأطفال بشكل محدود كما ظهر في تل الصوان في العراق ويعتقد بإنها مظهر من مظاهر التضحية البشرية التي تهدف إلى التقرب من القوى الإلهية.

* في مصر تأخرت ثقافات النيوليت عن العراق ولكننا نجد في ثقافة مرمرة بني سلامة دفن الموتى بجوار المنازل، أما في ثقافة حلوان العمري فقد جمعت بين دفن الموتى في القرية نفسها، بجوارها، وأيضاً بعيداً عنها.

لقد اهتم الإنسان المصري النيوليتي (بعد الالف الخامس ق.م) أكثر من غيره بعقيدة الخلود حيث لوحظ «إن جثث الموتى وضعت على الجانب الأيسر ومتجهة للغرب أي نحو المنطقة التي تغرب فيها الشمس أي تبدأ دورتها في العالم السفلي، وعلى ذلك فهو بذلك التقليد الديني يحاول ربط نفسه بما يحيط من ظواهر كونية معينة وتحقيقاً لعقيدة الخلود غطي الجسم بالحصير وأحيانا بالجلد أو القماش، كمحاولة مبكرة للمحافظة على جسم المتوفى تحقيقاً لعقيدة الأبدية، كما عثر على عدد من الأواني الفخارية من المقابر حتى تكون في خدمته في العالم الآخر، ولكن من الأهمية الاشارة إلى العثور على هيكل عظمي في حلوان العمري، لوحظ وجود صولجان بجوار يده تأكيدا للاعتقاد بتجهيز المنزل الأبدي وكافة الأدوات التي كان يستخدمها في حياته الدنيوية» (١٨).

* **في العراق** دفن الموتى تحت أرض الدور في حفر بسيطة وكانت الجثث تلحد منثنية كوضع الجنين في بطن أمه مثلما في قرية أم الدباغية، وفي قرية حسونه كان الأطفال يقبرون في جرار فخارية، ويلاحظ إن رأس المتوفى كان باتجاه الشمال دائماً.

وقد جاء ذكر مدافن الأطفال في تل الصوان، ثم القبور التي لونت فيها جماجم الموتى باللون الأحمر والمخلوط بالأسود ودفن الحلي والأواني معه في ثقافتي الصوان وسامراء.

* **في الاناضول** : دفن الموتى تحت أرضيات المساكن والمعابد، وقد جاء ذكر ماوجد في شتال حيوك ودور نسر الإلهة الأم في إزالة لحم الجثث ثم لف العظام بالجلد والقماش والحصير تمهيداً لدفنها. وقد تكرر ظهور لوازم الميت معه مما يؤشر عقيدة استمرار الحياة في العالم الآخر.

* **وفي إيران** دفن الموتى تحت أرضيات البيوت وغطيت الجثث وأماكن الدفن بالتراب الأحمر وهذا ما نشاهده في تبه سيالك.

وتدل جمع هذه الشواهد على العناية بدفن الميت وعدم ترك جثته في العراء وهو ما يدل على تقدم روحي في مجال الاسكاتولوجيا. أما اتجاهات رأس الميت فمختلفة حسب الاعتقاد. وهناك مدافن منزلية أو جماعية. وهناك اعتقاد واضح باستمرار الحياة بعد الموت، ونجد السعي نحو الخلود بعد الموت يتضح في النيوليت المصري ليؤسس فيما بعد اصول هذه العقيدة المصرية المعروفة.

إن فكرة البقاء بعد الموت أو الخلود ناشئة عن الزراعة أيضاً، لأن الإنسان كان عندما يضع أو يدفن البذور (التي تبدو ميتة) في الأرض فإنه يفاجأ بعد أيام بظهورها وبعثها وخلقها من جديد. وقد كان إنسان الباليوليت يدفن موتاه، أما إنسان النيوليت فإنه أضاف لهذه العقيدة مبدأ الخلود فكان يقوم بدفن الميت في الأرض لعل روحاً، أو جسداً سينبت منه في يوم ما... كانت هذه الفكرة حصراً هي جوهر الفكر الإسكاتولوجي النيوليتي، وكان هناك ما يدل على ذلك في رش الماء على قبره، وغيرها من طقوس ما بعد الموت (مثل نحر الحيوانات ورش دمها على القبور) أملاً في قيامة الإنسان مثل النبات.

ولمّا يئس من حصول هذا على مستوى الجسد، قال بأن روحه هي التي ستنبعث من مدفنه وأنها ستظل مثل الشمس أو القمر، أو الليل، أو النهار، أو الفصول في دورة أزلية.

إن الأمر المثير للجدل في عقائد ما بعد الموت هو ظهور قبور كثيرة جداً للأطفال في مواقع تل الصوان وسامراء النيوليتية مما أثار جدلاً كبيراً تركز في ثلاث احتمالات، الأول أن تكون هذه القبور مقبرة جماعية ومتخصصة للأطفال، والثاني أن يكون هؤلاء الأطفال جزء من طقوس الأضاحي البشرية المنحدرة من طقوس الباليوليت والتي لم تختف كليا في عصر الينوليت.

والاحتمال الثالث هو ما اقترحه الدكتور فوزي رشيد من أن هذه المقابر لأطفال بسن الرضاعة يرجع سببها إلى ممارسة سكان موقع تل الصوان والمواقع الشمالية الأخرى التي كانت تعاني من تذبذب سقوط الأمطار وهي عملية (وأد البنات)، حيث أصبحت الزراعة في نهاية النيوليت العراقي تعتمد على المطر وليس على خصوبة الأرض، وكانت الصوان منطقة تتذبذب فيها كمية الأمطار ويؤدي هذا إلى زيادة في عدد السكان وقلة في كمية الغذاء، وقد توصل الدكتور رشيد إلى أن أغلب الأطفال المدفونين هم من البنات ولذلك رأى أن «الإنسان قد مارس عبر التاريخ عملية وأد البنات، وخاصة في المناطق التي لا تقدم الغذاء إلا بشكل محدود وذلك من أجل أن يبقى عدد السكان يتناسب وكمية الغذاء المحدود. ومن هذه الادلة التي لا تقبل الشك هو ما ورد في القرآن الكريم حول وأد البنات»[١٩]. ويقود هذا الاستنتاج إلى استنتاج آخر هو أن عملية وئد البنات تسبب نقصاً في عدد النساء وتدعو الجماعات البشرية الممارسة لها أن يرتضوا لأنفسهم مبدأ تعدد الأزواج للمرأة الواحدة وإلا حدث الصراع بين الرجال للحصول على زوجة، ولذلك ارتضوا لأنفسهم أن تتزوج المرأة بأكثر من رجل واحد. ويبدو أن آثار ذلك تتضح في الحضارات الجنوبية الوارثة للحضارات الشمالية، ولذلك نرى أن المرأة كانت تتزوج بأكثر من رجل واحد حتى عصر اوركاجينا السومري (حوالي ٢٣٥٥ ق.م). وقد ورد في اصلاحاته ما يلي:

النساء قديماً

كانت (الواحدة منهن) تتزوج رجلين.

النساء في الوقت الحاضر

يرجمن بالحجارة (إذا فعلن الشيء نفسه)[٢٠].

هذا هو المشهد الجديد الذي اعطانا إياه العصر النيوليتي في سيادة الأضاحي الحيوانية والنباتية (وهو ما نراه في الحصاد وما ظهر بعد ذلك مع موت دموزي إله الخضرة والرعي باعتباره يمثل البذرة التي تدفن فداءً لتظهر منها مئات البذور والثمار)، وهذا يعني أن الاضاحي النباتية نشأت لاحقا عن احتمالات الاضاحي البشرية في تل الصوان، مما يرتبط لاحقاً بافول مركزية الإلهة الأم وظهور الإله الذكر في العصر الكالكوليتي..

٦- عقائد وطقوس ومثولوجيا النيوليت

لم يتطور دين النيوليت عن دين الميزوليت والباليوليت وفقاً لآلية داخلية ربطت عقائد واديان ما قبل التاريخ ببعضها، بل حصل ذلك بسبب التحول النوعي الذي شهده النيوليت. ولعل جوهر هذا التحول يكمن في ظهور فكرة الخصوبة وهي التي ميزت هذا العصر بأكمله على المستويات المادية والروحية.

لقد تبين لنا أن الرحم الباليوليتي الذي تحدثنا عنه أنجب في نهاية الباليوليت أنثاه الوحيدة، التي ترعرعت وصار لها أخوة كثيرون هم بمثابة (الإلهة النيوليت) وإذا كان هؤلاء الآلهة في الاطوار السابقة يظهرون على شكل قوى وأجنة سحرية، فإنهم تجسدوا هذه المرة على شكل دمى طينية أو حجرية أو مرمرية أو فخارية أو رموز للإلهة الأم، بشكل خاص، ثم للإله الذكر فيما بعد، وإذا كانت الإلهة الأم قد مثلت وحدانية العبادة النيوليتية فإن ظهور الإله الذكر وتمركزه فيما بعد خلق تعدد الآلهة وكثرتها كما سنرى.

دين الخصوبة : من الأرض إلى المطر إلى الماء

في النيوليت شعر الإنسان لأول مرة في تاريخه بأن فكرة الخصوبة هي جوهر حياته المادية والروحية، فالزراعة تعتمد على خصوبة التربة، وتكاثر الحيوانات كذلك ولادة الإنسان. لقد ربط الإنسان الخصوبة بالمرأة التي كانت ترعى الأرض، والبذور ثم بالحيوان وتكاثره، وتحولت قوة (المقدس) إلى قوة خصب تمثلها المرأة والإلهة، وقد

ظهرت هذه الإلهة أولا قبل الإله ممثلة للقوة المقدسة التي تضم اجزاء الكون في حناياها، كما تضم المرأة جنينها، أو وليدها، ولم يكن الرجل آنذاك يعرف دوره في الاخصاب، ولذلك كان يرى أن المرأة هي المسؤولة عن التكاثر والخصوبة، وانعكس ذلك على الأرض، ورحل الإنسان من مواطن الزراعة الأولى (التي كانت في الغالب كثيرة المطر) نحو أماكن شحيحة المطر (من جرمو إلى سامراء)، أدرك الإنسان أن الأرض ليست العامل الوحيد بل أن المطر هو السبب الأهم في الزراعة وترافق ذلك مع فهم دور الرجل في الاخصاب، فعقدت العلاقة بين المطر ومني الرجل وكان هذا التحول فاتحة لانقلاب ذكوري كبير ستتحدث عنه في العصر الحجري المعدني (الكالكوليت) حيث يظهر دور الماء بشكل عام (وليس المطر فقط) وبذلك تنمو الزراعة على مراحل من الزراعة العفويه إلى الزراعة المطرية إلى الزراعة الإروائية، وهو ما تطور تدريجياً من شمال إلى وسط ثم إلى جنوب العراق، وانعكس ذلك في عقيدته الدينية، من الإلهة الأم إلى إله الهواء، ثم إله الماء، وسنجد آثار ذلك في (ننخرساج، انليل، انكي) في العبادة السومرية، ثم ليطاح كلياً بالإلهة الأم ننخرساج وتستبدل بالإله الأب السماء (آن) ليصبح الثالوث الذكري الأول في الديانات البشرية.

الآلهة: من الأم الكبرى إلى الخنثى إلى الذكر

توحي المنحوتات الطينية للآلهة ورموزها بالكثير من الأفكار فبالإضافة إلى أشكالها البدنية المترهلة والمبالغ في حجمها في مناطق الأعضاء الجنسية والعديمة الملامح تقريباً من ناحية الوجه، بل واختلاط هذه المنحوتات بأشكال حيوانية وشيطانية فإن هناك مايدل على وجود أنواع شاذه من المخلوقات التي أخذت صفة الإنسان وتوحي لنا قصة الكاهن البابلي (برعوشا أو بيرسوس) الذي نشر في القرن الثالث ق. م باللغة اليونانية مؤلفات تاريخية وتأملات في فترة ما قبل التاريخ بوجود الكثير منها وسنعرض هنا بعض ما قاله :«وقد ظهر رجال مزودون بجناحين... كان لبعضهم أربعة أجنحة ووجهان وللبعض الآخر جسد واحد ورأسان، ورأس امرأة ورأس رجل، وأعضاء جنسية ثنائية مذكرة ومؤنثة في آن معاً. وهناك أيضاً رجال آخرون لهم قوائم وقرون ماعز أحياناً وحوافر خيل احياناً اخرى... وبعضهم على شكل إنسان في مقدمته وعلى شكل حصان في مؤخرته... وكذلك كنت ترى ثيراناً برؤوس إنسانية وكلاباً بأربعة اجساد لمؤخرتها ذيول اسماك... كما يوجد اسماك وزواحف وافاع ومخلوقات أخرى غريبة لها أشكال متبادلة فيما بينها»[٢١].

إن مثل هذه الكائنات الهجينة والخنثة، والتي سادت أزمان ما قبل التاريخ هي من نتائج أخيلة الإنسان ومبالغاته بالدرجة الأولى وقد عكسها خياله المضطرب على عقائده وفنونه... ولكنها من ناحية أخرى ذات وجود هيولي عميق في داخل الإنسان الذي وجد نفسه أولاً في تلك العصور الجيولوجية السحيقة القدم وسط كائنات ممسوخة بعضها انقرض وبعضها تطور. ويبدو أن (برعوشا) يرى بأن كل هذه الكائنات كانت مزدوجة الجنس مذكرة ومؤنثة في الآن نفسه، وقد انعكس هذا في تماثيل الإلهة الخنثة. Androgynes, Hermaphrodites وقد رأينا أنها منحوته بمهارة فائقة وتدل بطريقة تغلب فيها جسد المرأة على الرجل أيضاً، فكأنها تنبئ عن رغبة احتواء المرأة على عنصر الذكورة، وهذا ما سيشكل لاحقاً ما أسماه كارل غوستاف يونغ بالانيموس (الرجل داخل المرأة)، ثم الانيما (المرأة داخل الرجل)، وهي رموز لاشعورية نزحت إلى الإنسان من أطواره الأولى. ولاشك أنها من ناحية أخرى تجسد الرغبة في متعة الرجل أو المرأة بالعملية الجنسية.

إننا نرى من ناحية دينية نيوليثية الثنائية الإلهية في شكلٍ واحد يغلب عليه الروح الأنثوي... ثم نرى كيف بدأ التعبير عن ظهور الذكر تدريجياً من انضوائه الواضح في الإلهة الأم، أو تحت أجنحتها إلى استقلاليته ثم مركزيته.

الديانة القمرية

نزعت العقيدة الدينية الأنثوية النيوليتية نحو مظاهرها المعبرة عنها والقوى المحايثة أو المرافقة للمرأة، وقد كان القمر من بين الكواكب التي عكست مظاهر الأنوثة والتي اهتمّت به الديانة النيوليتية أكثر من غيرها من الكواكب فبالإضافة إلى أن «حياة المرأة الفيزيولوجية والسيكولوجية ذات طبيعة قمرية وايقاع قمري، فهي مرتبطة بدورة شهرية معادلة لدورة القمر الذي يبدأ هلالاً في أول الشهر ليتلاشى في آخره، بعد أن يمر في فترة تقع في منتصف الشهر عندما يبلغ البدر تمامه. وقد كان سكان بلاد الرافدين يعتبرون تمام البدر يوم تحيض فيه عشتار وتستريح من كل أعمالها، لذا فقد ارتبطت بهذا اليوم مجموعة من المحرمات كالشروع في السفر، وأكل الطعام المطبوخ واشعال النار، وهي نفس الأمور التي تستريح منها المرأة الحائض. وقد دعي هذا اليوم بيوم (السباتو)، أي يوم الراحة، وكانوا يحتفلون كل شهر، ثم مرة في كل ربع من أرباع الشهر القمري» [٢٢].

ويوحي هذا التقسيم أن فكرة الشهر والاسبوع وأيام الاسبوع قد تولدت من هذا العرف القمري، هذا إذا ما عرفنا ان كلمة (تاريخ) التي اصلها من (ورخ) البابلية تعني الإله القمر.

ويكاد دارسو المثولوجيات يجمعون على أمرين أولهما أسبقية العبادات القمرية على الشمسية وارتباط العبادات القمرية بالمرأة، وسيادة الإلوهية المؤنثة بينما يرتبط الإنقلاب الشمسي ودياناته بالسيادة الذكورية وهو ماسنراه في الأديان اللاحقة.

إن ارتباط القمر بالخصوبة أمر من السهل إثباته في الثقافات القديمة التي ورثت الثقافة النيوليتية، فقد كان القمر هو دليل الدورات الزراعية وغايتها فيه يؤرخ الإنسان الفصول ويستدل على أيام الخصب والجدب. وقد ارتبط القمر بالزراعة وبالشجرة وشهدت الحضارات الرافدينية في الكثير من الرسوم والتزيينات ارتباط القمر بالاشجار ويبدوان كتلة عضوية واحدة وكذلك ارتباط القمر بالحيوان والإنسان وتكاثرهما، ويبدو لنا القمر في مثل هذه الثقافات وغيرها، وكأنه هو الذي ينفخ الحياة في البذور، وأنه مصدر الأمطار وأنه المسؤول عن مد وجزر المياه ونشر الندى وتفجير الينابيع.

ولعل في بعض مثولوجيات القبائل البدائية ما يشير إلى ذلك «ففي غرينلاند يسود الاعتقاد بأن القمر هو الذي ينفخ الحياة في أرحام النساء، لذلك فان المرأة غير الراغبة في الحمل لاتنام على ظهرها ليلاً دون أن تغطي منطقتها باحكام، خوفاً من تسلل شعاع القمر، وفي نيجيريا يقتصر دور الفعل الجنسي الذي يمارسه الرجل على تسهيل مهمة القمر الذي يعتبر المسؤول الحقيقي عن الحمل. ولدى قبائل الماوري في أمريكا الشمالية يسود الاعتقاد بأن القمر هو زوج النساء جميعاً . وتعتقد بعض القبائل في منغوليا ومناطق اخرى من العالم بأن القمر قادر وحده احيانا ودون تدخل الرجل على اخصاب النساء. وتقوم المرأة المتزوجة حديثاً، لدى بعض هنود تكساس، بالوقوف عارية في وعاء مملوء بماء تم تعريضه لضوء القمر. وفي بعض روايات ولادة البوذا انه قد ولد من عذراء لقحها ضوء القمر»[٢٣] ولا شك أن العبادة القمرية كانت أول عتبات الفلك والتنجيم في العالم القديم حيث كان القمر أول كوكب أثار اهتمام الإنسان ثم جاءت الشمس وبعدها الكواكب الأخرى.

إن ولادة القمر تشبه أول ظهور للنبات من تحت الأرض، كما أن انتفاخ الأرض

قبل شق التربة يشبه انتفاخ القمر وتحدب جهته المقابلة... ونمو القمر وتكوره يشبه ظهور الثمار وتكورها في النباتات، كما أن موت النباتات والموت بعامه يشبه شحوب وتشمع وظلام القمر بعامة. إن القمر يسلخ جلد الموت كل شهر وتتجدد ولادته وكأنه خالد إلى الأبد وهو مثل النوع النباتي تسلخ فيه البذور نفسها عن الثمرة لتنبت وتتجدد إلى الابد، وهو يشبه الأفعى (التي تشبه المرأة)، تنسلخ ويتجدد جلدها بين وقت وآخر.

مثولوجيا ورموز النيوليت

يخيل لنا أن واحداً من أعظم ما أنتجته ديانة النيوليت هو إنتاجها للرموز (التي عبر عنها بالتشكيل والنحت) وقد ظهر ذلك بشكل خاص بدءاً من ثقافة حسونة ووصلت ذروتها في ثقافة سامراء أي بين (٥٨٠٠- ٤٩٠٠) أي طيلة ما يقرب من الألف سنة الأخيرة من الثلاثة آلاف سنة للنيوليت، بمعنى آخر في ثلثه الأخير. ومهما كان زمن ظهور الرموز في حياة الإنسان إلا إن ذلك يقودنا بالضرورة، إلى علاقتها بالاسطورة «إن الرمز يحتوي إشارة حرفية وكذلك مدى اعظم منها بكثير، من المعنى والتضمين والعاطفة، كلها غير مدون، والرمز كثيراً ما يندمج مع النمط الأعلى، أو التعبير عن موتيفات غريزية وكونية مختلفة، أو أنساق من السلوك والمعتقد الإنسانيين تأتي مشحونة بزخم عاطفي بدائي»[٢٤]، لكن الرمز وهو يتشكل أو يتكون مادياً يقودنا بالتأكيد إلى أنفاق كان حفرها في اللغة وتجسدت على شكل ليجورة أو ميثوس وهما شكلان بدائيان للحكاية والأسطورة على التوالي، ومن الليجورة أو الميثوس سينفتح الطريق نحو الأسطورة بمعناها الاعظم كـ (حكاية مقدسة)، فالعلاقة اذن بين الرموز والأسطورة قائمة أولاً في اللغة المحكية بشكل جنيني، ولكن مع اقتراب عصر الكتابة لعب الفن التشكيلي دوراً خلاقاً في مسك طرفي الرموز والأساطير وتداخلهما، بل وإذابتهما في مصنهر واحد. إننا لا نستبعد مطلقاً أن تكون رموز النيوليت هي نتاج اساطير محكية من ناحية، وهي تقدمات لظهور رموز الكتابة من ناحية أخرى وبذلك تكون تلك الرموز قد لعبت دوراً خطيراً في انعطافة عصور وعقائد ما قبل التاريخ إلى العصور والعقائد التاريخية بشكلها الشامل المتسع.

إن الأساطير في حقيقتها «هي الشكل القصصي لتلك الرموز النمطية العليا التي تؤدي معاً إلى كشف متماسك المعنى عما يعرفه الإنسان ويؤمن به. الأسطورة في

ازدواجيتها، رؤيا مشيأة، إنها توجد بلغة ما هو أعمق من كل شيء في ينابيع الشعور الإنساني وادراكاته»(٢٥).

وإذا كانت الرموز قد لعبت هذا الدور، قديماً في حياة الإنسان، فإنها بلا شك لعبت ومازالت تلعب دوراً مشابهاً في حياة الإنسان المعاصر، وقد بذل يونغ جهداً عملاقاً في ايضاح هذه الحقيقة.

وتشكل الرموز النباتية والحيوانية والطبيعية والهندسية محاور بحوثه هو وتلاميذه، ورغم أنهم جميعاً (هو وتلاميذه) يرجعون هذه الرموز بشكل عام إلى الحياة البدائية الأولى، لكنهم في تطبيقاتهم العملية يجدون في اليونان والمسيحية اعمق نقاط ظهورها الصريح، وقد نوهنا عن خطأ هذا التصور.

يرى يونغ أن الرموز ليست فردية، بل جماعية في طبيعتها ومنشئها وهي في المقام الأول صور دينية. إنها ذات منشأ مقدس مدفون في خفاء الماضي إلى عمق تبدو فيه بلا أصل إنساني. وإنها تعبر عن انماط أو نماذج أولى Archetype وإنها تظهر في جميع الحالات النفسية وخصوصاً في الأحلام وهي مازالت تمارس، دون ان يعي الإنسان ذلك، دوراً مهماً في تطوره ورقيه (٢٦).

إن مثالا واحداً دالاً يورده جوزيف كامبل في كتابه (اقنعة الله) يوضح التداولية الرمزية العفوية لبعض مفردات الحياة الدينية النيوليتية ففي قبر أطفال كسيحين في موقع مالطا (النيوليتي) عثر على عشرين تمثال أنثوي صغير، وهناك دبوس عاج يحملها كل تمثال على جانب واحد فيه شكل حلزوني، أما في الجانب الآخر فهناك ثلاث افاع تشبه الكوبرا، ويظهر لنا حلزون آخر مثبت على جانب سمكة عاجية، ويبدو المدفن مثل متاهة بتعاريجه والأطفال تواجه رؤوسهم الشرق وهناك في القبور طيور عاجية(٢٧).

إن الطيور والأسماك والافعى والمتاهة... كلها تدل على الإلهة الأم وطقوس العودة الروحية فهي رموز لما بعد الموت. وتشكل الافعى الشيطانية (Serpent) مرحلة أولية تتحول فيها إلى البتول أو العذراء (Maiden) بعد أن تتخلص من الشكل القضيبي للافعى.

السحر الزراعي

إن التبدل الذي احدثته الزراعة في نظرة الإنسان إلى الطبيعة جعلته يتأمل في كل ما يتعلق بها من ظواهر، وإذا كان الإنسان في الباليوليت ينظر إلى الطبيعة نظرة سحرية ويرى أن التعامل سلباً أو إيجاباً معها يتم بالمراسيم والطقوس السحرية فإنه في النيوليت عزى ذلك إلى الإلهة (وفي مركزها الإلهة الأم)، وتصور أن نمو الزرع وموته وتكاثر الحيوانات كلها أمور تدار من قبل هذه الإلهة «وهكذا فإن النظرة السحرية القديمة التي تعلل الفصول احتلت مكانها، أو بالاحرى اضيفت لها، نظرية دينية. فلئن أصبح الناس يعزون دورة التغير السنوية إلى تغيرات مماثلة في الإلهة، فإنهم ظلوا يعتقدون انهم بقيامهم ببعض المراسيم السحرية يستطيعون أن يساعدوا الإله، وهو مبدأ الحياة، في كفاحه مع مناوئه، مبدأ الموت. وظنوا أنهم يستطيعون ان ينعشون قواه الخائرة، بل وأن ينهضوه من بين الأموات. وكانت المراسيم التي يحتفلون بها لهذا الغرض تمثيلاً مسرحياً للمظاهر الطبيعية التي يودّون اسعافها»(٢٨).

إن اضطراب الحصول على نتائج مضمونة في عمليات الزراعة بعد اكتشافها الأول واستنفاذ خصوبة الأرض في أول أماكن نشأتها، جعل الإنسان يبحث عن أسباب أخرى (مادية وروحية) لفهم ومعالجة هذه الظاهرة. ومن الأسباب المادية التي عرفها فيما بعد هو دور المطر ودور الرياح في جلب الغيوم الممطرة. أما من الأسباب الروحية فمحاولة اسعاف النبات الميت في فترة موته وجفافه في الشتاء والخريف وجعله يبعث طقسياً في الربيع (لضمان ريع الربيع) «ولذلك كان من الطبيعي أن يكون النبات موضع الهم الأول في التمثيليات التي كان الغرض منها دفع الشتاء واسترجاع الربيع على أن جانبي الحياة، النباتي والحيواني، كانا غير منفصلين في أذهان أصحاب تلك المراسيم، فقد كان في معتقدهم أن مبدأ الحياة والخصب، سواء أكان حيواناً أم نباتاً، مبدأ واحد لا يتجزأ. ولذلك فان الحصول على الطعام، والاولاد هو هدف الناس من القيام بالمراسيم السحرية لتنظيم الفصول»(٢٩) ورغم أننا لا نملك الا شواهد رمزية سحرية أولى على ذلك مثل (راقصات سامراء) ورموز الصليب المعقوف وطقس استنزال المطر لكننا نرى ان في هذه العقيدة جذراً لنشوء طقوس موت وبعث الإلهة وظهور الدراما الدينية العفوية ثم طقوس الزواج المقدس وغيرها.

ولا ينعكس السحر فقط على الطقوس والعقائد الدينية بل ينعكس السحر بشكله الزراعي على كافة مظاهر الحياة المادية الآخرى، وشمل صناعات الفخار والخبز والغزل والنسيج وغيره.

فقد كان للفخار أهمية خاصة لأن مصدره من بيئة مائية جوفية، أو في قاع الأنهار فهو جزء من جسد الخصوبة وقد نقل الإنسان ممارساته السحرية التي تخص تخطيط وجهه، أو جسده بالخطوط للتمويه أو دفعاً للشر إلى تخطيطاته على الفخار لذات الغرض السحري أي لكي يحفظ هذا الاناء ما يحتويه بعيداً عن الشر وهكذا أصبح الفخار المخطط ثم الملون متضمنا للخصب وذريته معاً عن طريق الخطوط التعويذية «وكان هذا التزيين أو النقش السحري يأتي على صورة خدوش أو دهانات على هيئة خطوط مجردة منحنية أو متشابكة أو متعرجة، وهي تدل في اسلوبها المبسط إما على وفرة الماء، وإما على تدفقه، وإما على بعض الحيوانات والاسماك التي، قد يكون لها معنى طوطمي. والاناء الفخاري بنقشته هذه يعتبر ضماناً لصاحبه يجلب له الخير، أو يسبب له السعادة والهناء كنوع من الدعاء المصور، ويهدف في مضمونه إلى ابعاد الشر والأذى كأنه حرز سحري»[٣٠].

وكذلك نرى السحر في صناعة الخبز، حيث يشكل العجين مادة أو لحم الغلة المحصودة، أو المقتولة وهي إلهة أو إله الخصب ولذلك فهو مقدس وتشكل الخميرة المادة المسكونة بالأرواح لأنها تسرع في تخمير العجين وتهيئته إضافة إلى ما تمنحه النار لهذا العجين وجعله خبزاً.

وشمل السحر عمليات الغزل والنسيج حيث يدخل السحر في الغزل والحياكة من خلال الاعداد والعقد المربوطة فالاعداد ضرورية للنسج وقد يتحول تكرارها إلى نوع من التعاويذ السحرية وربط العقد وحلها إلى آلية من آليات السحر وتعكس عمليات الغزل والنسج وجها آخر من أوجه الخصوبة فكأنها تبدو ترميزاً لخلوة الرجل والمرأة وظهور أبناء جدد حيث تعتبر «سدى النول في امتدادها كناية عن المرأة المضطجعة، فكأن خيوط السدى المشدودة على النول رمز للتكاثر، وقوائم النول الأربع في وضعها الرأسي ترمز إلى الرجولة، في حين تعبر عوارض المنسج الأربع في إتجاهها الافقي عن الأنوثة»[٣١]، إن تعاشق الخيوط الافقية (الانثى) مع الخيوط العمودية (الرجل) ينتج عنهما

القماش أو البساط المنسوج الذي يغيب الخيوط الأفقية والعمودية في وليد جديد يتضمنهما ولا يشبههما.

وتعبر الاشكال والصور الحيوانية والنباتية والهندسية، على القطع المنسوجة عن مظهور سحري آخر عكسته لنا الأعمال التشكيلية النيوليتية المعبرة عن السحر الزراعي.

هوامش ومصادر

١-انظر لويد، سيتون : آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامي سعيد الأحمد. دار الرشيد للنشر. بغداد ١٩٨٠ ص ٢٨.

٢- انظر كوفان ، جاك : ديانات العصر الحجري في بلاد الشام . ترجمة د. سلطان محيسن. دار دمشق لطباعة ط: ١٩٨٨ ص ٧٥.

٣- السواح، فراس: دين الإنسان . دار علاء الدين للنشر. دمشق ٤٩١٩ ص ٢٢٠.

٤- الخادم، سعد : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، الالف كتاب (٤٨٨). مكتبة النهضة المصرية، ص ٣٢.

٥- المرجع السابق ص ٣٣

٦- السواح، فراس : لغز عشتار ط٥، دار علاء الدين للنشر، دمشق ١٩٩٣، ص ٢٠٨.

٧- الناضوري، د. رشيد : المدخل في التطور التاريخي للفكري الديني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦ ص ٣٣.

٨- أنظر يونغ، كارل غوستاف : الإنسان ورموزه ترجمة سمير علي، دائرة الشؤون العامة، بغداد (١٩٨٤)، وترجمة عبدالكريم ناصيف ، دار منارات للنشر، عمان (١٩٨٧).

وفي هذا الكتاب ينحني يونغ وتلاميذه (جوزيف ل. هندرسن، فون فرانز، أنيلا جافيه، جولانده جاكوبي) ذات المنحى في إرجاع رموز الإنسان إلى مرجعيات مسيحية ويونانية، رغم اعترافهم بأن هذه الرموز تتصل باعماق تاريخية شكلت اللأوعي الجمعي للإنسان، ونحن نرى أن هذه الأعماق هي أعماق باليوليتية ونيوليتية وكالكوليتية أولاً.

٩- المرجع السابق ص، ٢٥٩.

١٠- رشيد، د. فوزي : من هم السومريون، مجلة آفاق عربية، الصادرة عن دار آفاق عربية العدد ١٢ سنة ٨، ١٩٨١ص ، ٨٥.

انظر النعيمي : راجحة خضر عباس: الاعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين رسالة ماجستير، كلية الآداب قسم الآثار ١٩٧٦.

١٢ - انظر الأمين، د. محمود : اكيتو أو اعياد رأس السنة البابلية وعقيدة الخلود والبعث بعد الموت مجلة كلية الآداب ج٥، ١٩٦٢، حيث يعمل الكاهن في اليوم السادس من العيد تمثالين بطول سبعة أشبار ومصنوعين من خشب الارز وخشب الاثل احدهما للافعي والثاني للعقرب ويلبسان اردية حمراء.

١٣- انظر الماجدي ، خزعل : مثولوجيا الأردن القديم. وزارة السياحة والآثار. عمان ١٩٩٧.

14-Kenyon, K.M Excavations at Jerich. 1957-8 in P.E.Q. July- December,1960.-

وانظر كذلك كوفان، جاك : ديانات العصر الحجري في بلاد الشام، ترجمة د. سلطان محيسن، دار دمشق للطباعة ط١، ١٩٨٨، ص ٥٥.

١٥- الناضوري ، د. رشيد : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، ص ٣٥.

١٦- المرجع السابق ص ٣٦.

١٧- المرجع السابق ص ٣٧.

١٨- المرجع السابق ص ٣٩.

١٩- رشيد، د. فوزي : رأد البنات ونظام تعدد الأزواج في عصور ما قبل التاريخ، مجلة سومر، المؤسسة العامة للآثار والتراث ج١، ٢ مجلد ٣٦، ١٩٨٠، ص ٥٦.

٢٠ - المرجع السابق ص ص٥٧، ٥٨.

٢١- فريشاور ، بول : الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، دار الكندي للترجمة والنشر ١٩٨٨، ص ٢٦.

٢٢- السواح، فراس : لغز عشتار ص ٧٥.

٢٣- المرجع السابق ص ٨٤.

٢٤- الأسطورة والرمز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٣، (المقدمة) برنيس سلوت ؛ ص ٦.

٢٥- المرجع السابق ص ٦.

٢٦- انظر يونغ، كارل غوستاف: الإنسان ورموزه.

27-Campbell, Joseph: The Masks of god : primitive mythology. Viking press, New-York, 1959.

٢٨- فريزر، سير جيمس : تموز أو أدونيس ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص، ١٦.

٢٩- المرجع السابق ص ١٧.

٣٠- الخادم، سعد : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ص ٤١.

٣١- المرجع السابق ص ٥٧.

الفصل الخامس

دين الكالكوليت
(دين المدينة)

ثقافات الكالكوليت: أقسامها ومواقعها

مع بداية الالف الخامس قبل الميلاد توصل الإنسان إلى اكتشاف المعادن وبدأ يطوعها ويستعملها في صنع أدوات مختلفة، فبعد أن استعمل الحجر في الباليوليت والفخار في النيوليت اهتدى إلى المعادن لتكون وسيلته في صنع الأدوات والآلات والاسلحة وغيرها.

ونرى إن الرجل هو الذي قام باكتشاف المعادن واستعمالها، فبعد أن أخذت المرأة دورها المعروف في الزراعة انصرف الرجل في بداية الأمر إلى رعي الحيوانات وتدجينها وظلت بعض مهمات الصيد قائمة في جدوله، لكن الزراعة بدأت تحتاج إلى جهد عضلي واضح كالحراثة والحصاد، فتنامى دور الرجل وظهرت اشارات كثيرة تخص الإله الأب (الذكر)، لكن الانقلاب الفعلي لم يحصل إلا مع اكتشاف المعادن فقد استنبت الرجل زرعاً يليق بقوته هو المعدن الذي استخرجه من باطن الأرض أيضاً،و صنع به الكثير من أدواته.

إن الثورة الكالكوليتية ثورة رجولية نتج عنها فيما بعد مفردات جديدة كثيرة،

فقد حلت المدينة محل القرية وظهر المعبد مركزاً للمدينة وظهرت الحرف والعمارة والتجارة وتميزت الحياة الاجتماعية وازداد الدين تركيباً وبدأت العقيدة الدينية تزحزح دور المرأة المركزي فظهر الإله الأب والإله الابن بجوار الإلهة الأم «وأصبح أب السماء في أهمية الربة الأم الأرض، وغالباً ما أصبح الناس يتصورون المطر في كثير من معتقداتهم على أنه المني الخصب لأب السماء. ويرى العلماء أن سبب هذه التغيرات يرجع إلى أن الرجال قد اقتلعوا الأساس الاقتصادي لمكانة المرأة، فلم يقتصر الأمر على جعل الفلاحة عمل الرجال، بل تم أيضاً، حرمان النساء من دورهن في الحرف الأخرى، فقد اخترع رجال المدن مثلاً، عجلة كانت وسيلة أكثر فاعلية لصناعة القدور واصبحوا في أكثر الحالات تقريباً، صناع الفخار والخزف، وقد حصل الرجال، علاوة على ذلك، على مزيد من أدوات الحرف ذات الفائدة والفعالية الكبيرة (مثل عجلة صناعة الخزف) مكنتهم من أن ينتقلوا من مكان إلى آخر، ولم يعودوا مقيدين بعشيرة المرأة، ومن ثم كانوا قادرين على جعل الأسرة (لا العشيرة) الأساس الجديد للتنظيم الاجتماعي»(1) ونحن نرجح ان اكتشاف العجلة، سواء كانت عجلة العربة أم عجلة الخزاف، كان له علاقة باكتشاف ورسم وتداول المندالا والسواستيكا في ثقافة سامراء، وما بعدها لان المندالا دائرة ذات مركز وهناك ما يصل المحيط بالمركز والسواستيكا داخلها توحي بحركة هذه المندالا وهذا كله يشكل تصوراً ذهنياً لشكل العجلة، ولعل الأمر كان معكوساً حيث كانت العجلة توحي بالمندالا والسواستيكا؟؟، والمهم هو أن العجلة سادت في عصر الكالكوليت وساهمت في نقلة حضارية كبيرة، وقد تم أيضاً في هذا العصر اكتشاف السفينة الشراعية، الذي نشط التجارة بين المدن الحديثة التكوين وزاد من مدينيتها.

ولا شك أن المدينة تستدعي التفكير مباشرة بالمعبد الذي سيكون مركز المدنية والذي سيساهم في ظهور المؤسسة الدينية الرسمية الممثلة بالكهان،و هو ما سيدفع لظهور المؤسسة السياسية وظهور الملك الذي كان كاهناً وملكاً في البداية ثم تم عزل سلطاته الروحية عن الدنيوي فيما بعد.

يقسم علماء التاريخ والآثار فترة الكالكوليت إلى أربع ثقافات منتظمة يقع اغلبها في جنوب العراق ولا نصادف انتظاماً شبيهاً بها في أي بلد آخر لرهافة ونوعية التغيرات الحضارية السريعة فيها، وقد نعثر على مناطق آثارية كالكوليتية معاصرة لها

ولكنها تقع في دائرتها. أما ما حصل في مصر فإن النيوليت المصري كان متأخراً وصادف ظهوره مع بداية الكالكوليت العراقي وأتى الكالكوليت المصري في نهاية الكالكوليت العراقي.

وسنضيف في بحثنا هذا ما حصل في طور ما قبل الكتابة (الشبيه بالكتابة أو الشبيه بالتاريخي) وهو ما يسمى بطور البروتولتريت المكون من ثقافتين هما (الوركاء الثانية، وجمدت نصر)، وهو عصر ما قبل السلالات السومرية، وهو عصر انتقالي في طبيعته.

العصر العراقي	ثقافات العصر في وادي الرافدين	مدتها سنة	فترتها (ق.م) سنة	ثقافات العصر في وادي النيل: الشمالية (مصر السفلى)	ثقافات العصر في وادي النيل: الجنوبية (مصر العليا)	العصر المصري
الكالكوليت	حلف	٦٠٠	٤٩٠٠-٤٣٠٠	تاسا	البداري	البيوليت
	أريدو	٣٠٠	٤٣٠٠-٤٠٠٠	الفيوم	الأماري (نقادة ١)	
	العبيد	٥٠٠	٤٠٠٠-٣٥٠٠	مرمدة	الجرزي (نقادة ٢)	
	الوركاء الأولى	٤٠٠	٣٥٠٠-٣١٠٠	المعادي	السميني (نقادة ٣)	
البروتولتريت	الوركاء الثانية	١٠٠	٣١٠٠-٣٠٠٠	المملكة الشمالية	المملكة الجنوبية	الكالكوليت
	جمدت نصر	١٠٠	٣٠٠٠-٢٩٠٠	عاصمتها (بوتو)	عاصمتها (نخين)	

جدول (٨) يبين ثقافات الكالكوليت والبروتولترليت في وادي الرافدين وما يقابلها من ثقافات البيوليت والكالكوليت المتأخرة في مصر.

ثقافة حلف: يقع تل حلف (كوزانا القديمة) في شمال سوريا على بعد ٥ كم جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور، وقد مثلت ثقافة حلف في العراق آثار الأربجية وتبه كورا في محافظة نينوى في نفس تاريخها.

وتعتبر ثقافة حلف آخر ثقافة شمالية متميزة حيث انتقل الإنسان بعدها إلى جنوب العراق وبدأت ثقافات أخرى جديدة، ولذلك فهي الثقافة المفصل بين الشمال والجنوب. كما أنها الثقافة المفصل بين الطين والمعدن،وبين القرية والمدينة وبين المعابد البدائية والمعابد بمعناها الحقيقي.

بالإضافة إلى المظاهر الدينية المتميزة لثقافة حلف،والتي سنقوم بشرحها لاحقاً، فاننا نجد ظهور بيوت السكن المستديرة على هيئة خلايا النحل والمسقفة بقباب معقودة، والاختام المنسبطة Stamp Seals التي سبقت الاختام الأسطوانية وعرفت ثقافة حلف أيضاً، أسلوب بناء الغرف والبيوت المربعة والمستطيلة إلى جانب بناء البيوت الدائرية، وهي تحتوي على سبع غرف بعضها يستعمل للخزن وبعضها مزود بتنانير خاصة بعمل الخبز والمواقد.

ثقافة أريدو: تقع مدينة أريدو في أقصى الجنوب على نحو ٤٠ كم إلى الغرب من مدينة الناصرية وتعرف اطلالها اليوم باسم (أبو شهرين) بدأت ثقافتها في النصف الثاني من الالف الخامس ق.م. وأهم ميزات ثقافة أريدو هي أن هذه الثقافة تشير إلى أقدم استيطان سكاني في جنوب العراق، وأنها المكان الأول في التاريخ الذي ظهر فيه المعبد بأقسامه الصحيحة الكاملة. وإنها المدينة الأولى على الأرض بالمعنى الدقيق لكلمة المدينة حيث تمركز المعبد وسطها وظهرت البيوت حول المعبد ومارس سكانها الحرف والتجارة، أما أراضيها الزراعية فكانت خارج هذه البيوت. وتطورت صناعة الفخار والمعادن فيها.

وتقدم لنا ثقافة أريدو تمهيداً لنقلة نوعية في الثقافة ستمثلها بأوسع معناها ثقافة العبيد التي أظهرت انتشاراً كبيراً في العراق والمناطق المحيطة به.

ثقافة العبيد: يقسم العلماء ثقافة العبيد إلى أربعة أطوار أو فترات، يبدو أن ذروتها كانت في الطورين الثالث والرابع، حيث توسع انتشار «التجمعات السكانية حتى شمال وادي الرافدين وتتميز بعلاقات تجارية مع انتاجات جماعات سكانية في الخليج العربي عن طريق البحر إضافة إلى اتصالات برية مع جماعات إيران وآسيا الصغرى وسوريا وتتوضح نتائج مثل هذه الصلات التجارية عن توسيع استخدام المعادن وخاصة النحاس والذهب. هذا إلى جانب تطوير تخطيط القرى الزراعية وتطوير عمليات واساليب الدفن وتخصيص مواضع خاصة للدفن خارج مقرات السكن»[٢].

أما عن طبيعة الاقوام التي عاشت في عصر العبيد وما قبله فنحن نرجح أن جنوب العراق كان الرحم الذي خرجت منه كل اقوام المناطق المتاخمة، الذين هاجروا

إلى إيران والخليج والجزيرة والشام والاناضول، بل وحتى مصر... وامدّوا اقوامهم الأصليين بعناصر حضارية جديدة، وبذلك يكون أصل السومريين وغيرهم مما يسمى بالفراتيين الأوائل ثم الساميين، كان من جنوب العراق ولا نميل إلى النظرية الشائعة التي تقول بهجرة الاقوام السامية إلى العراق من الجزيرة العربية... وستكون لنا وقفات طويلة أمام هذا الموضوع في كتب لاحقة.

ثقافة الوركاء الأولى : وهي ثقافة نوعية تميزت بتوسع بناء المعابد وظهور فخاريات جديدة تعرف بـ (الفخار الرمادي) وانتشارها الكبير من شمال العراق حتى الخليج العربي وباتجاه إيران والشام افقياً. وتتميز أقداحه بالحافات المائلة أو المعوجة، والاباريق ذات الصنابير المعوجة والجرار ذات الصنابير الطويلة، واوعية من الفخار الأحمر ذات العرى أو الآذان الأربع.

وسنناقش التطورات الدينية والروحية لثقافتها وظهور المعابد الكبيرة والمتميزة لها وخصوصاً معبد الإلهة (إينين) أو (انانا).

ثقافة الوركاء الثانية: هي أول ثقافة بروتولتريت حيث ظهرت الكتابة لأول مرة في التاريخ بشكلها الصوري في الوركاء وظهرت أنواع الفخار الاجاصي بدلاً من الرمادي. وظهرت الجرار المزخرفة باشكال من المثلثات المتصالبة.

وظهرت أيضاً، لأول مرة المعابد العالية أو (الزقورات)، وظهر لأول مرة نوع من اللبن الذي اطلق عليه بالالمانية مصطلح (ريمشين Riemchen) وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع تقريباً، وظهرت منحوتات جديدة والاختام الاسطوانية.

ثقافة جمدت نصر: وهي ثاني ثقافة بروتولتريت حيث ، تطورت الكتابة والعلامات المسمارية نحو بداية التطور الصوتي أي استخدام الكلمات المرسومة بالعلامات على هيئة اصوات مقطعية لكتابة الكلمات المختلفة، كما اتضح أن اللغة السومرية كانت أقدم لغة دونت بهذه الكتابة. وظهر في هذا الدور فنّ النحت المجسم والبارز لأول مرة. منها الاناء النذري ورأس المرأة المنحوت من المرمر الفاخر نحتا مجسماً، ومسلة صيد الأسود.

وأصبح الفخار متعدد الألوان وظهرت زقورات آنو والمعبد الأبيض ومعبد العين وبناء الريمشين ومعبد الإله سين.

وقد انتشرت الانجازات الحضارية لهذا الدور إلى عدة ارجاء من الشرق مثل عيلام وتبه سيالك والفرات الأعلى والاناضول، ومصر وأوروبا والجزيرة العربية.

وكان هذا العصر مهداً أولياً لظهور عصر السلالات السومرية الأولى وظهور الحضارة السومرية باعظم إنجازاتها.

مظاهر دين الكالكوليت

١- تحولات الآلهة

أ - الإلهة الأم وتطورات عباداتها: طرأت على عبادة الإلهة الأم تطورات عديدة لعل أهمها هو فقدان مركزيتها وظهور الإله الأب كمنافس قوي ثم كمركز جديد، بعد أن كان ينمو على هامشها في النيوليت. ولعل تميز الإلهة الأم بنحافتها واقترابها من شكل الرجل دليل على ذلك. وسنتابع تطوراتها كما يلي :

١- إلهة حلف : وتظهر في شكلين الأول يمثل امتداداً لإلهة النيوليت حيث الجسد الممتلئ والافخاذ المكتنزة، أما الشكل الثاني فيتميز بالجسد المزين بالخطوط والمسكة بثدييها وبظهور النقط عليها والتي يظن بأنها نوع من أنواع الوشم، ويبدو التشكل الثاني المخطط برأس افعواني يشير إلى دمج رمز الأفعى مع الإلهة الأم (شكل ٥٩ أ، ب).

٢- إلهة العبيد : انعطف شكل الإلهة الأم في الثقافة العبيدية تحديداً إلى نوع آخر، وجديد فقد ظهرت الإلهة الأم واقفة (غير جالسة) وبجسد رشيق وتمسك احياناً طفلاً، أو تضع أيديها على اردافها،ويبدو جسدها مطلياً بالدهان ومكسواً بحبات صغيرة من الفخار على الاكتاف، ولم يعد رأسها غير منظم الشكل واصبحت له ملامح تعطي مظهراً اشبه بالافعى ولها شعور اصطناعية مثبتة بالقار.





شكل (٥٩) إلهة حلف   أ – الإلهة المعطلة



شكل (٥٩) إلهة حلف   ب – الإلهة المخططة

إن الوجه الافعواني الشيطاني لهذه الإلهة يثير أسئلة كثيرة حول علاقتها بالافعى والخصب والسحر وأن ظهور الطفل بهذا الشكل الحيواني وهو يرضع من ثديها يثير سؤالاً عن الإله الابن، وتشير المثلثات المتداخلة إلى عضوها الأنثوي. وهناك من العبيد أيضاً تمثال مكتنز دون رأس للإلهة الأم من تللو.

٣- إلهة الوركاء (انانا): إذا كانا قد خضنا في سديم إلهي أنثوي في المراحل السابقة ودون أسماء فإننا في الوركاء بسبب الكتابة الصورية وجدنا اسما لإلهة الوركاء، وهي انانا أو (اينين) وتظهر لنا هذه الإلهة كإلهة للحب والخصب، ويبدو شكلها منحوناً على الأناء النذري، وهي تستقبل هدايا نباتية من كهنتها العراة. ويشير لها رمزها الاثير (القصبتان المعقوفتان وبزيل-حريري). وهي في رأينا لا تمثل الإلهة الأم السومرية التي نرى أنها (ننخرساك) أو (ننماخ) كما سيتضح اسمها.

إن التعدد الذي اصاب فكرة الإله لم يقتصر على الآلهة الذكور (كما سنرى) بل دخل على الإلهة الأم ذاتها فلم تعد هناك إلهة أنثى ممثلة بالإلهة الأم لوحدها بل أصبحت أولاً هناك الإلهة انانا ويبدو أنها الإلهة الأبنة للإلهة الأم ثم تطور الأمر فاصبحت لكل إله ذكر إلهة زوجة وهكذا تعددت الإلهات.

ب - الإله الأب والإله الابن والثالوث

١- إله حلف : ويرمز له برمزين اساسيين هما الفأس المزدوج والثور.

٢- إله العبيد : يشبه إلهة العبيد الرشيقة، فهو رشيق وله رأس ثعبان (شكل ٦٠)، وإذا كنا قد لمحنا الثالوث الإلهي في أريحا وعين الغزال وشتال حيوك بالصيغة النيوليتية فإن ثالوث العبيدي يتضح عبر أشكال متجانسة فالأم والاب والابن في هيئة شيطانية وافعوانية حيوانية، ولن نلمح مثل هذا الثالوث بهذا الوضوح إلا في النصف الأول من الالف الثالث ق. م في تل اسمر (اشنونا) في ديالى حيث الإله الأب (آبو) وزوجته وما يدل على ابنه... وبالطبع فإن هيكل الآلهة السومرية سيتحفنا بالكثير من الثالوثات الإلهية.

نلاحظ أن تطور الثالوث الإلهي من أريحا إلى العبيد إلى سومر يهيء أرضية



شكل (٦٠) إله العبيد

متماسكة لتواتر هذا الثالوث حتى العصر المسيحي. لقد كانت خطوة ترسيخ الثالوث العبيدي مرحلة للقفز باتجاه التعدد الإلهي فقد ظهرت مسبقاً رموز تدل على قوى الطبيعة فتهيأت الاذهان لأن تتطور هذه الرموز إلى تشخيصات إلهية. وإذا كان الإله الأب هو أول من استحوذ على رمز الهواء والطير والفأس المزدوجة كما حصل في ثقافة حلف، فإن هذا الإله بدأ يقترب من صورة الإله انليل إله الهواء الذكري الحازم. ولذلك يتبادر إلى ذهننا مباشرة الإله الابن في صورة الإله انكي إله الماء الطفل الرقيق العذب. ولكي يكتمل الثالوث الإلهي مع الانقلاب الذكري أن يتم الاطاحة بالالهة الأم ويحل محلها الإله (آن) إله السماء العلي البعيد، وهكذا سينشأ أول ثالوث ذكري في حضارة سومر وتطلق عليه هذه الاسماء ومن المؤكد أن هذه الاسماء كانت تطلق عليه إلا أنه بسبب غياب الكتابة حتى هذا الوقت فإنها تبدو بدون اسماء.

أما الثالوث الذكري الثاني فقد ظهر متأخراً بعد الأول بقليل ويشمل اله القمر، اله الشمس، إله البرق والرعد، والإلهة التي تمثل الطبيعة بشكل خاص هي التي فتحت الباب عريضاً أمام تعدد الآلهة.

أما أول ثالوث أنثوي فقد نشأ من الإلهة الأم القديمة أو الكبري عند السومريين وهي الالهة (نمو) والتي انجبت الإلهة (كي) الهة الأرض مع أخيها (آن) اله السماء ، وهذه الالهة (كي) صار لها عدة اسماء مثل (ننخرساك)، و (ماما)، و(ننماخ)، و (اورور)، و (كاتم دك) ، وغيرها، وكلها تشير إلى كونها الالهة الأم الولودة والخالقة. أما الالهة الثالثة في الثالوث فهي الالهة اينين أو (انانا) التي تمثل الحب والجمال.

إن هذا الثالوث الأنثوي (نمو، كي، انانا)، لم يكن الثالوث الوحيد في البانثيون السومري لاحقاً فقد ظهرت إلهات عديدات يمكن ادراجها في مثلثات متجانسة.

ولعل الاله الذكر العبيدي يظهر واضحا في تمثال آخر يشبه في رأسه رأس القضيب الذكري وله يد يسرى لها سبعة اصابع وعلى ثوبه السمكي درج يوحي بطول الصعود إليه.

الإلهة الخنثى ؛ يستمر ظهور الالهة الخنثى في ثقافة حلف حيث يظهر لنا التمثال الخنثي الوحيد من جاكار بازار في سوريا وهي استمرار لتقاليد الالهة الخنثى التي ظهرت في ثقافات النيوليت والتي بدأت بالاختفاء في ثقافات الكالكوليت.

٢- الرموز الدينية

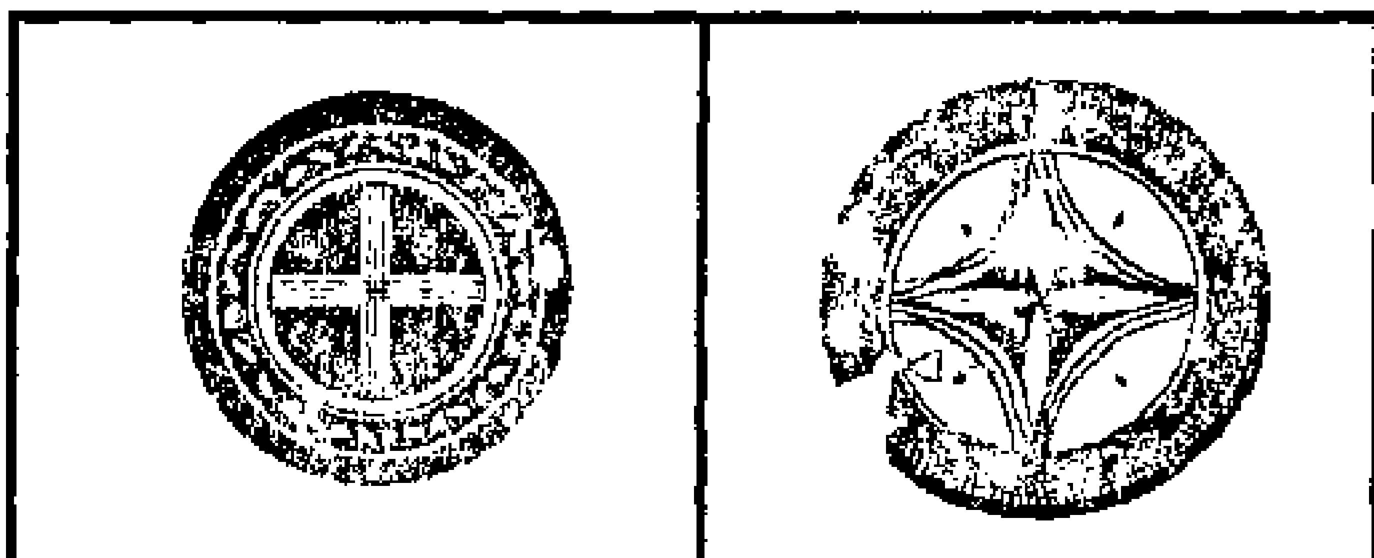
أ – الرموز الرافدينية (العراقية القديمة): وقد ظهرت هذه الرموز في عصر الكالكوليت عبر ثقافاته المعروفة ويمكن فرزها كما يلي:

١– الصليب : ظهر الصليب من الطراز الذي سمي فيما بعد بالمالطي على إناء خزفي وذات الوان حمراء وسوداء (وهو من ثقافة حلف) شكل (٦١) واكتس محيط الطبق بزخارف دائرية متحدة المركز من صفوف ثلاثة سوداء متموجه تفصلها دوائر منقطة بالاسود، وقد ظهر الصليب أيضاً على إناء ثان بشكل مندالا زهرية مطوقة بصلبان كثيرة. وهاتان القطعتان من الاربجية (الالف الرابع ق.م) شكل (٦٢)، ويظهر الصليب واضحا في ثقافة أريدو والعبيد، لكن ظهوره المفاجئ كان باهراً في معبد الالهة انانا في اوروك (شكل ٦٣) حيث ان تصميم الفناء الداخلي للمعبد جاء على شكل صليب واضح.

٢–المندالا : وتظهر باشكال لاحصر لها حيث ان اغلب الأواني الفخارية تظهر بمندالا ذات مركز، واشكال هندسية داخل هذه المندالا.

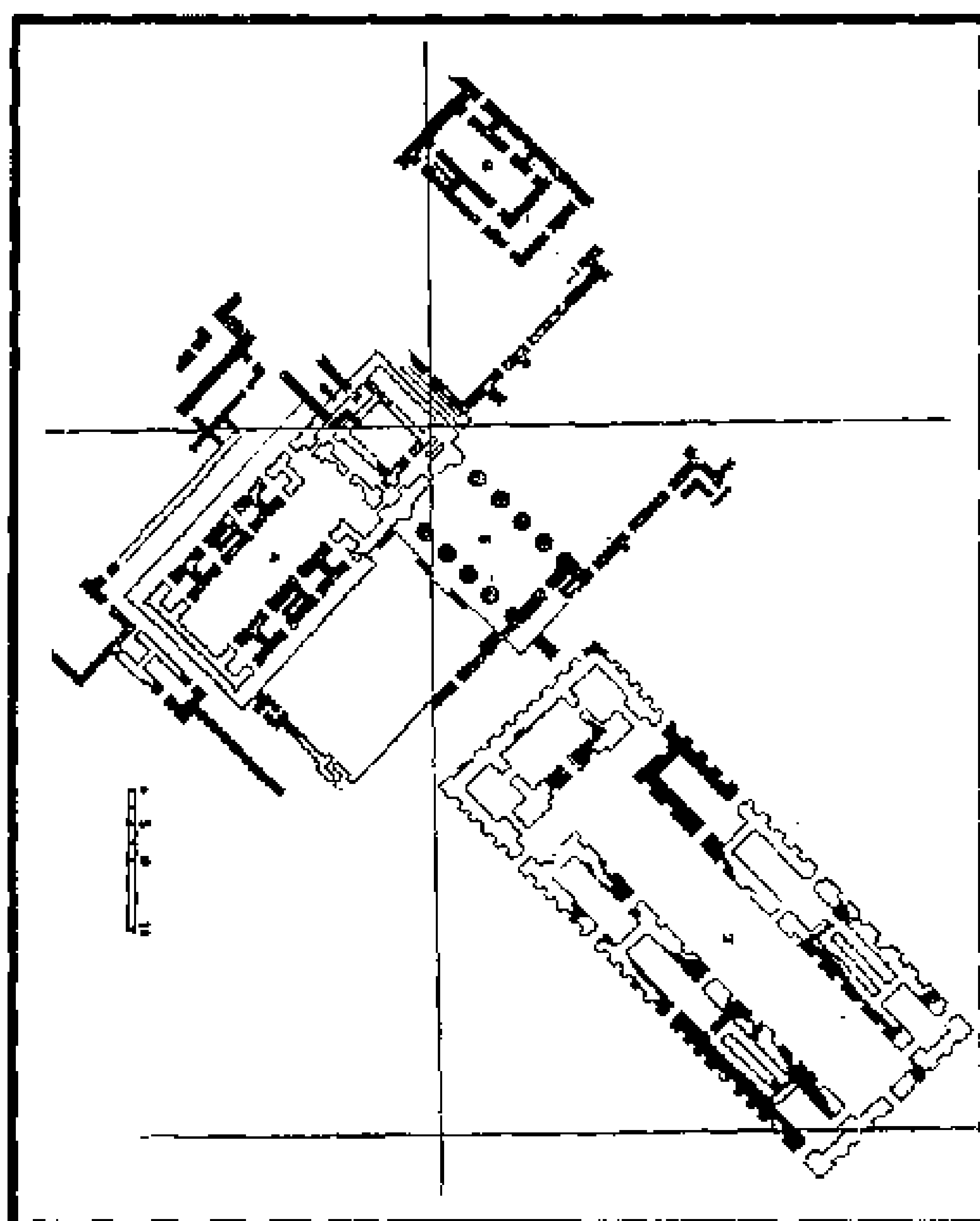
٣– المروحيات الرباعية والثلاثية الاذرع: وقد بدأت تحل محل السواستيكا.

٤– النجمات الثلاثية والرباعية والخماسية والسداسية والسباعية والثمانية الاذرع وتظهر اغلبها في فخاريات أريدو (شكل ٧٠)، وفي النجمة السباعية يظهر حولها ما يشبه الطيور بحلقتين الأولى مكونة من (٨ طيور) والثانية من (١٠ طيور).

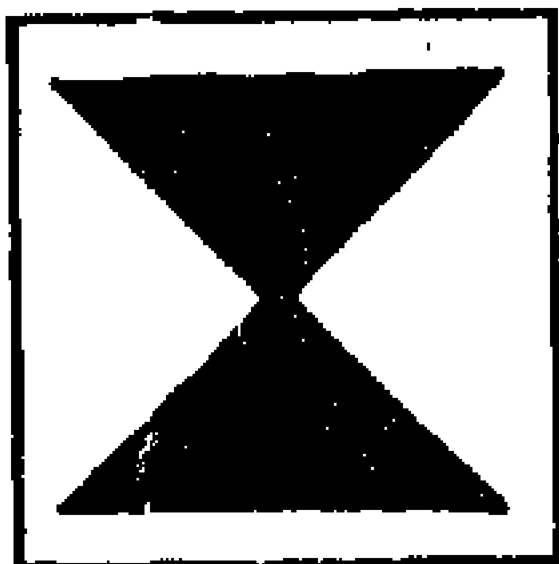


الشكل رقم (٦١) نقش على الفخار
- تل حلف / المندالا والصليب

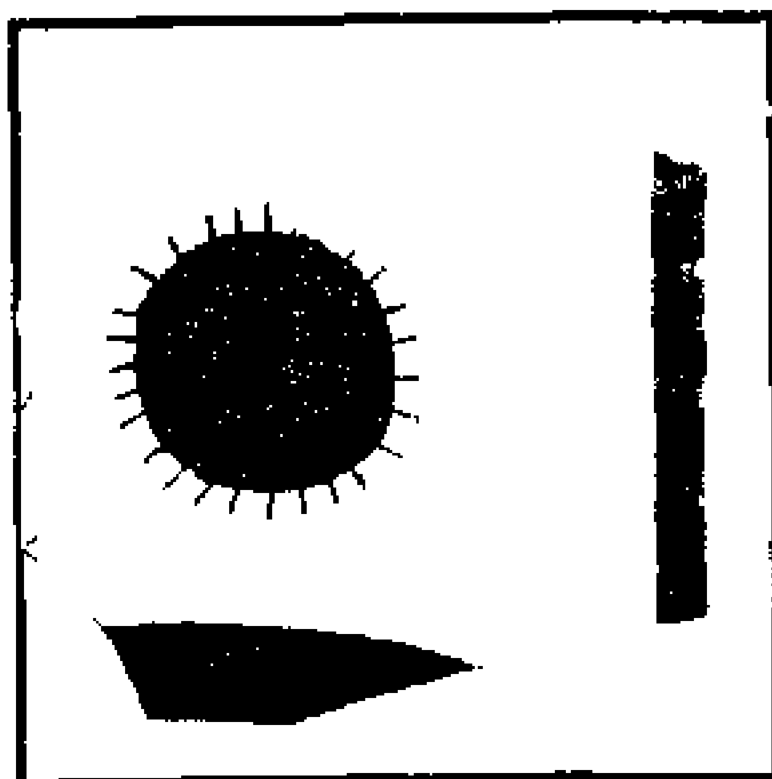
الشكل رقم (٦٢) نقش على الفخار
- إريدو / المندالا والصليب



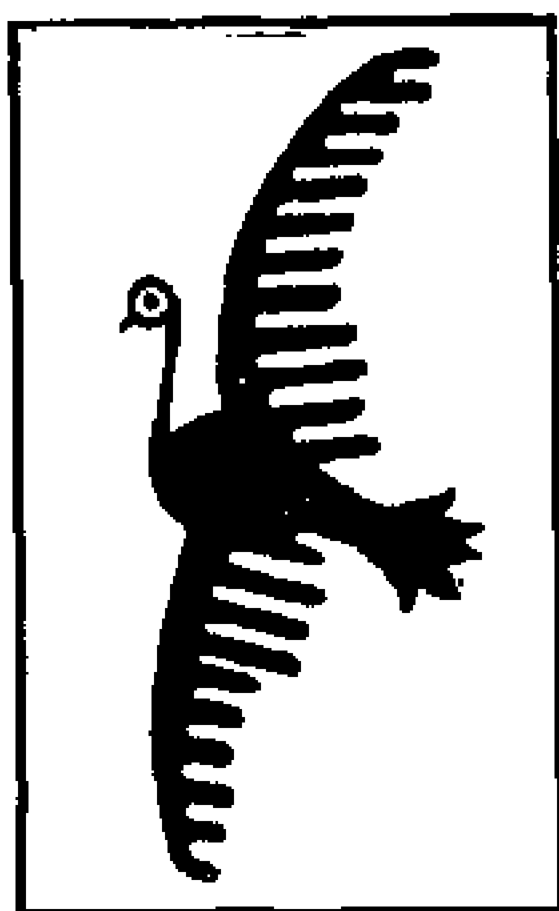
الشكل رقم (٦٣) معبد انانا واساساته التي تأخذ شكل الصليب



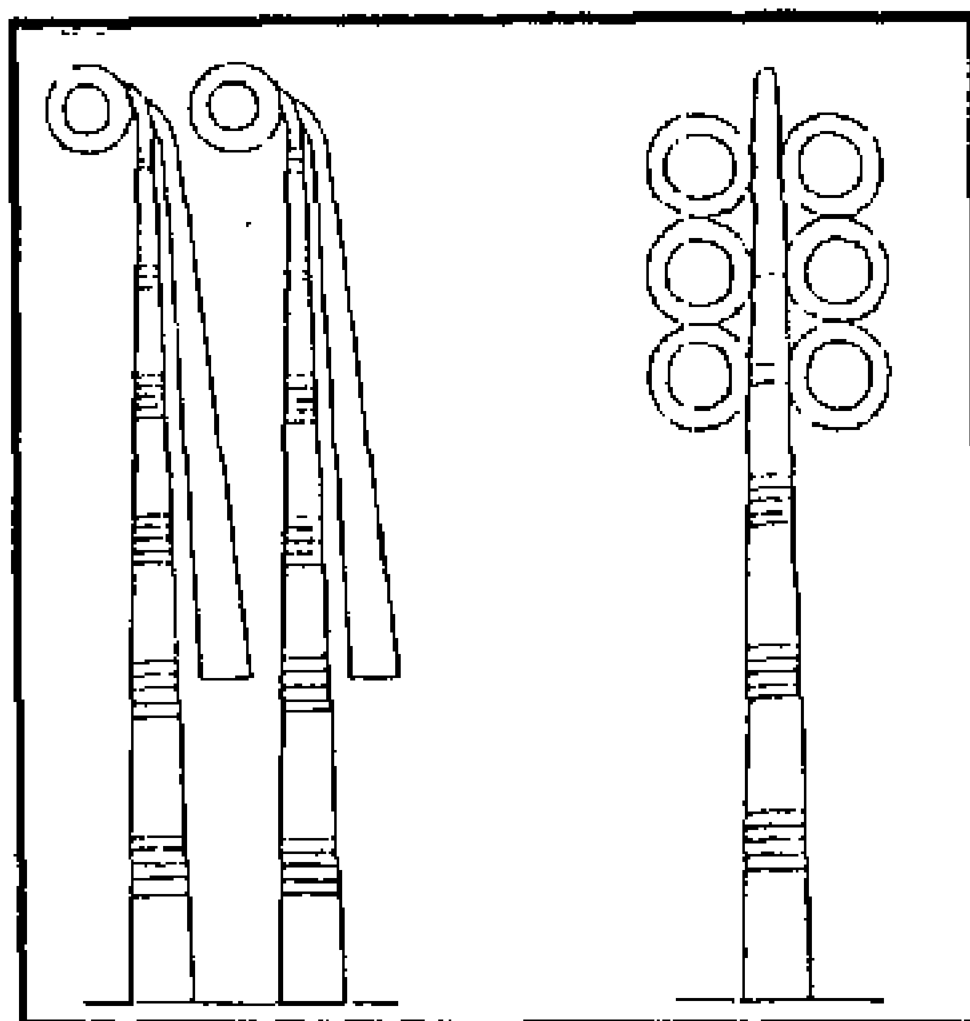
شكل (٦٥) الفأس المزدوج



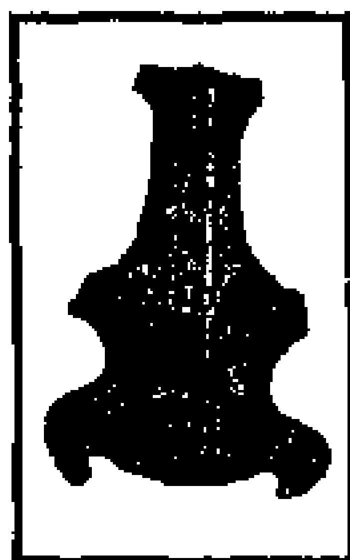
شكل (٦٤) رمز الشمس / في طبق من أريدو



شكل (٦٦) الحمامة



شكل (٦٨) رموز الالهة انانا



شكل (٦٧) البكرانيوم رمز الثور



شكل (٦٩) رمز الاوزة

٥- الشمس (شكل ٦٤)

٦- الفأس المزدوج ذو الرأسين وهو من ثقافة حلف ويشير إلى الاله الذكر اله الهواء (شكل ٦٥).

٧- الحمامة وهو رمز من رموز الالهة الأم في الكالكوليت شكل (٦٦).

٨- رأس الثور المنمّط (البكرانيوم Bukranium) رمز حلفي (شكل ٦٧) وقد شكلت الرموز الحلفية (الفأس، الحمامة، رأس الثور)، رموزاً قياسية للثقافة الكريتية الميثوية والاناضولية قبل الحيثية.

٩- رمز الإلهة انانا وهما القصبتان المعقوفتان والقصبة ذات الحلقات الست (شكل ٦٨).

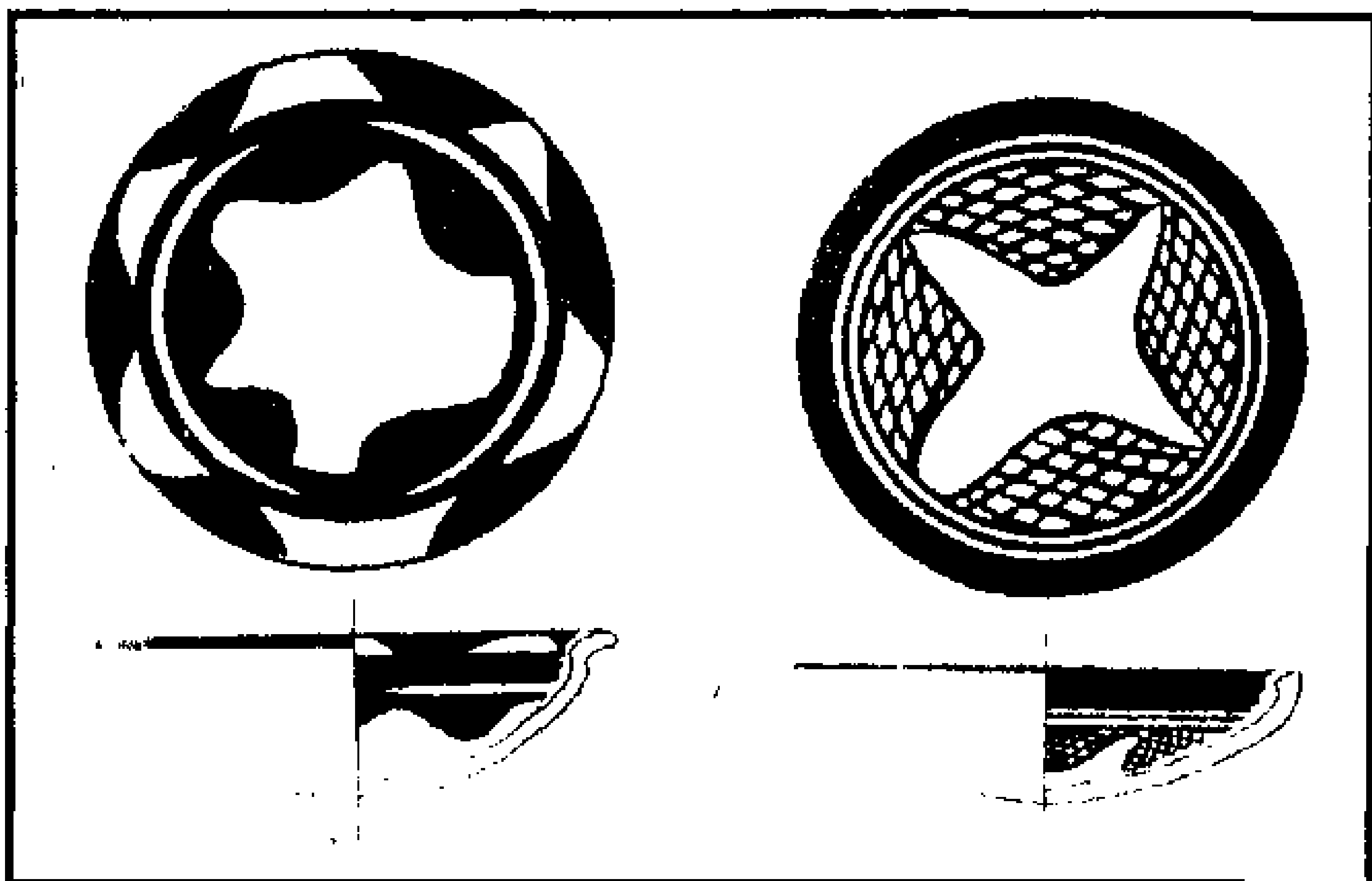
١٠ - الحيوانات الاسطورية ذات الرقاب الملتفة والتي سيظهر ما يشبهها في منحوتات قبضة السكين التي عثر عليها في جبل (أراك) في مصر، إضافة إلى الحيوانات كرموز وهي كثيرة.

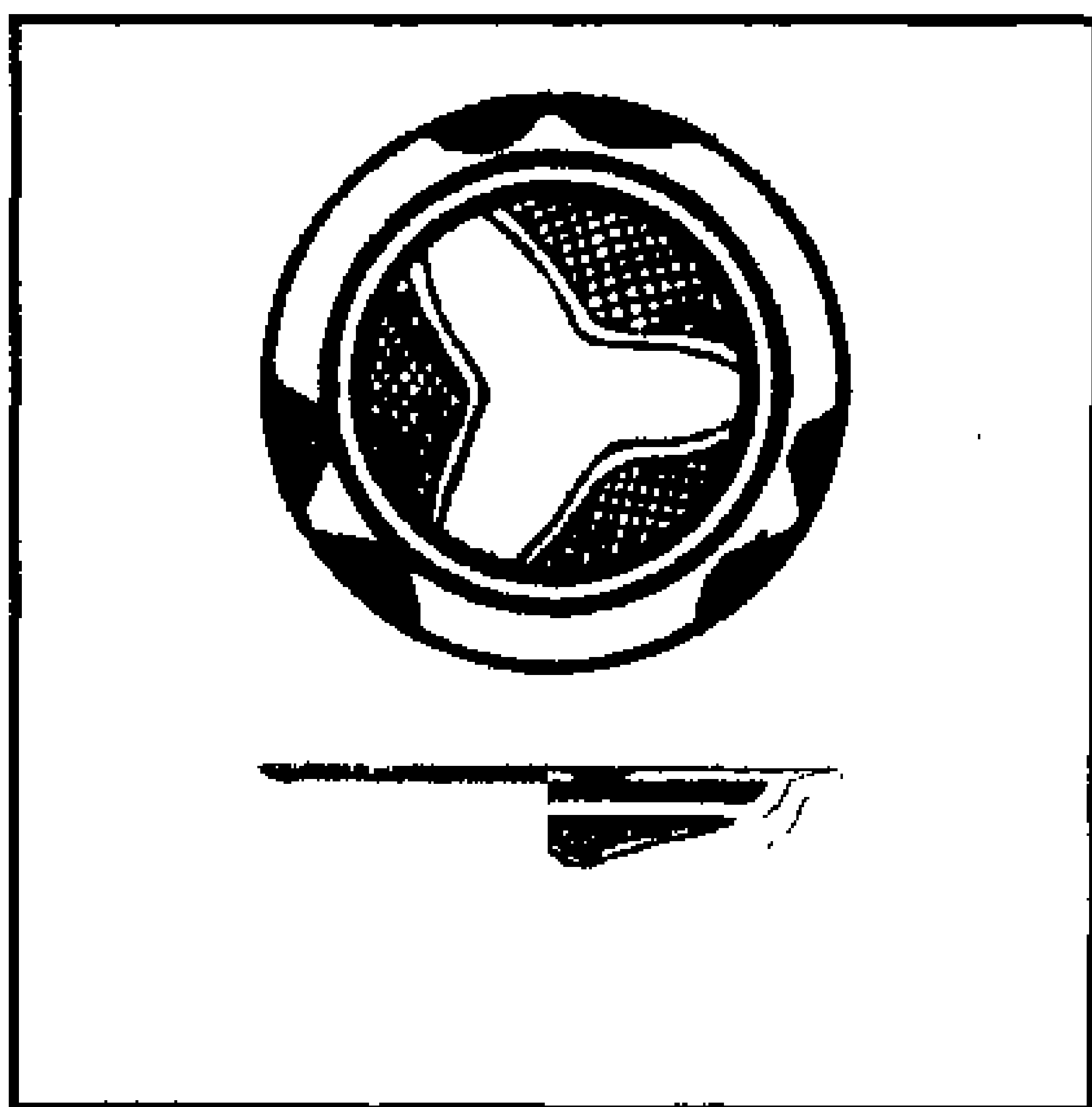
١١- رمز الاوزة : وهو رمز من رموز الالهة الأم في حلف وسيدل على الالهة الزراعية نانشة (شكل ٦٩).

وهناك رموز لاتخرج عن هذه الرموز عثر عليها في سوسه وهي ذات منشأ رافديني فقد ظهر في الرموز الرافدينية الكالكوليتية استخدام الخطوط المنحنية والبيضوية والمتموجة واهملت الخطوط المستقيمة لثقافة سامراء.

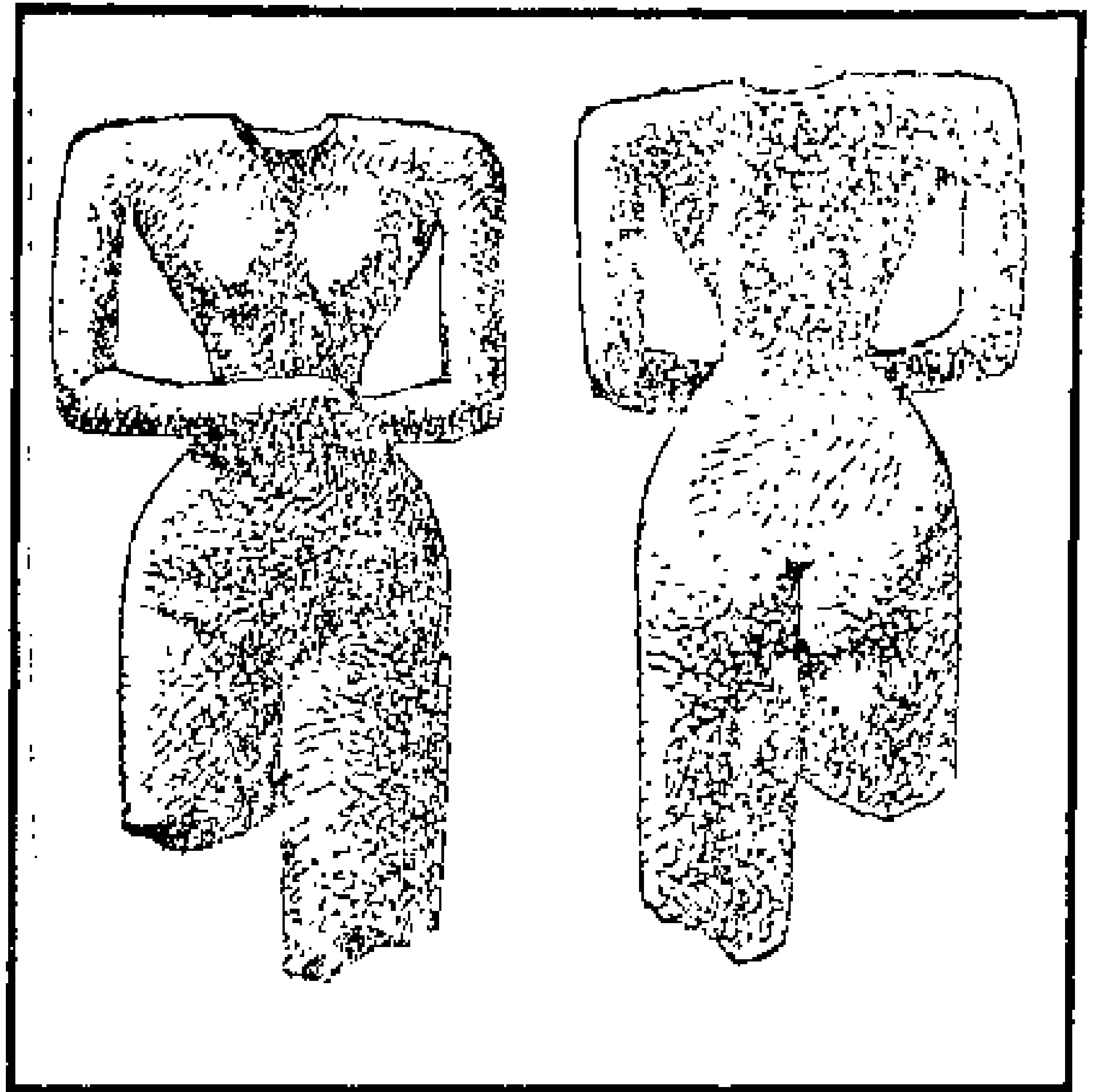
أما الاشكال البشرية فإنها تشبه الاشباح، أو الخيالات Silhouette دون ملامح ومثل راقصات الري.

الأشكال الحيوانية : تظهر حيوانات ذات قرون، بط، أوز، طيور، حيوانات منقطة.

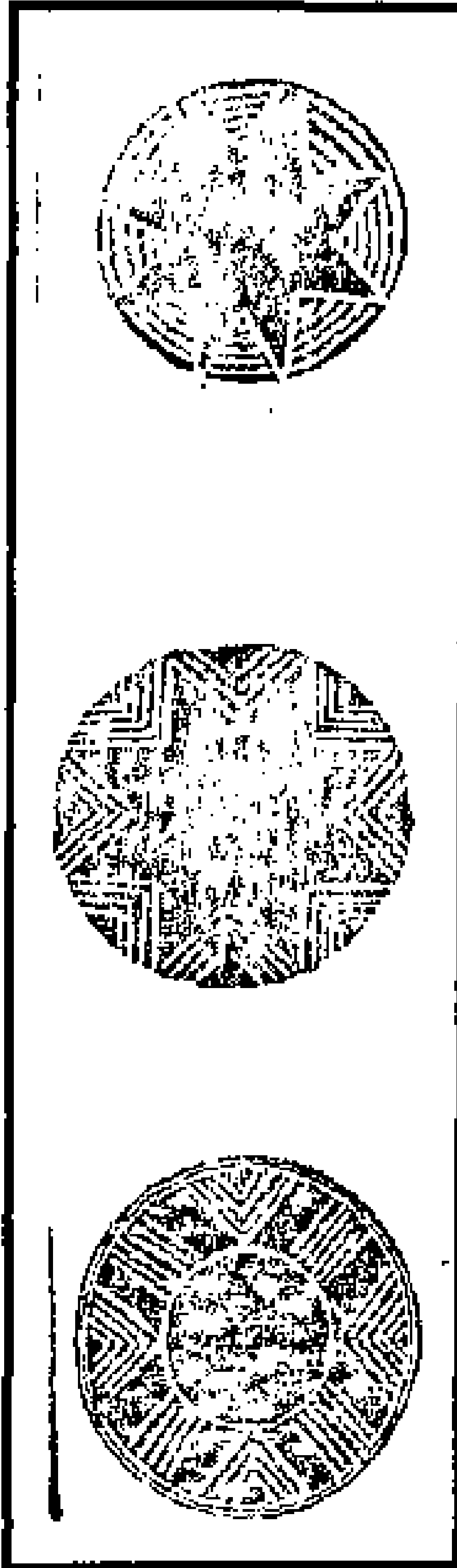




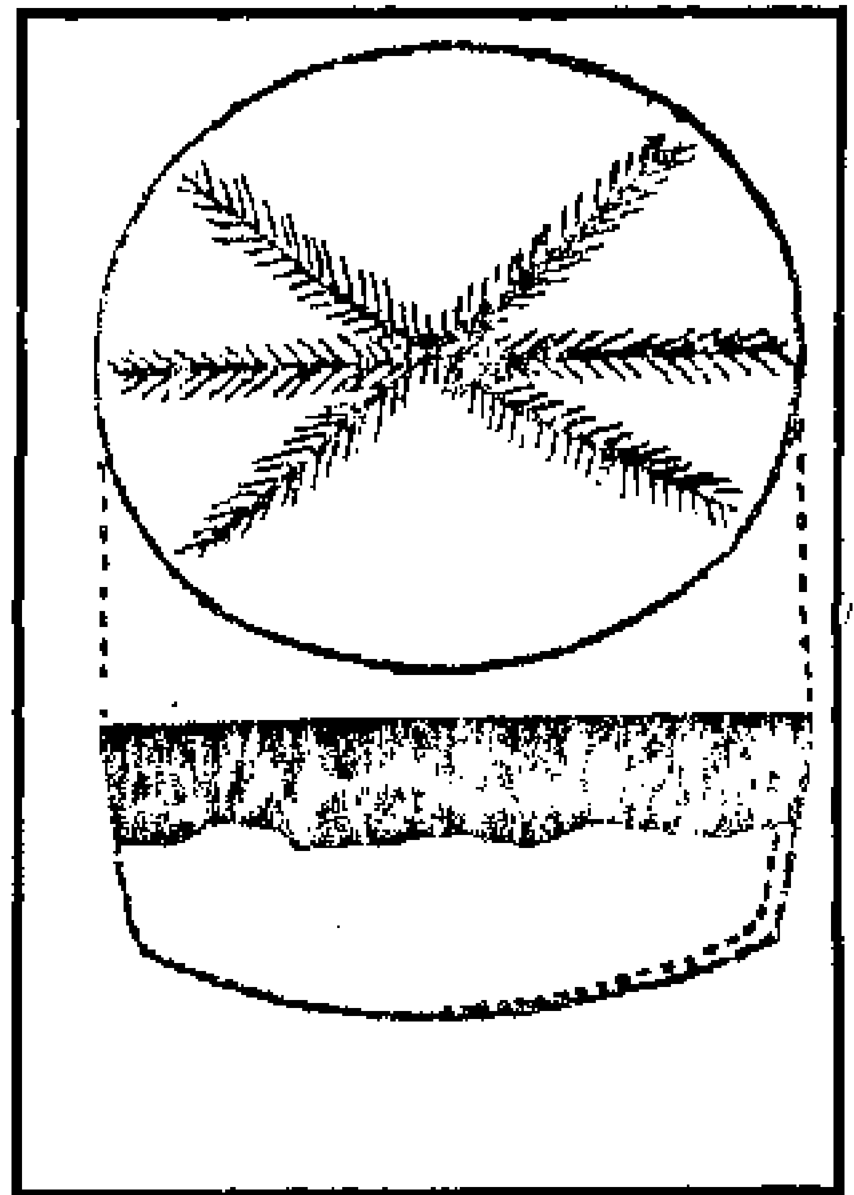
شكل (٧٠) النجمات الثلاثية
والرباعية والخماسية في فخاريات



شكل (٧١) تماثيل الإلهة الأم / البداري



شكل (٧٣) رموز نقادة الأولى (المندالا والنجمة الثمانية والصليب)



شكل (٧٢) السنابل الستة / البداري

الأشكال النباتية: كالسنابل والاغصان وغيرها.

الأشكال الهندسية: المثلثات والمعينات ، البلطات المزدوجة المثلثة، والتي يغلب عليها اسلوب التنقيط.

ب – الرموز المصرية النيوليتية

وهي رموز نيوليتية متأخرة ظهرت مقابل عصر الكالكوليت العراقي لا بأس من المرو عليها رغم أنها تشبه الرموز النيوليتية الرافدينية وهي حسب ظهورها التاريخي:

١– رموز تاسا : المثلثات والخطوط المائلة.

٢– رموز البداري : وتتركز بنوعين من التماثيل للالهة الأم احدهما رشيق وجميل دون رأس والآخر عادي برأس (شكل ٧١).

أما الرمز الآخر فهو السنابل الست المتقاطعة بمركز واحد. شكل (٧٢).

٣– رموز نقادة الأولى : وتشمل

١– المندالا.

٢– النجمة الثمانيّة.

٣– الصليب في وسطه الدائرة.

٤– مشاهد ورموز الرقص والصيد.

٥– الإلهة الأم بحركة طقسية.

٤- رموز نقادة الثانية :

١- مندالا الظباء الخمسة وهي جزء من مشهد صيد كبير.

٢- مشاهد ورموز الرقص.

٣- الرموز الحيوانية (التمساح، الماعز، الاسد، الكلب، فرس النهر، السمك، الحيوانات الاسطوريان الملتفا الرقبة والذي يشبه مثيله الرافديني.

وتشير هذه الرموز المصرية إلى البدايات الأولى للفن المصري القديم ذي الجذور الدينية والتي ظهر أن اغلبها تأثر بامتدادات الفن الرافديني واعماقه الاسطورية التي يرجح أنها انتشرت في منطقة الشرق الأدنى وانتقلت معها رموزها.

ج - رموز الكتابة الصورية (رموز البروتولتريت) Protoliterate

تنتمي هذه الرموز لنهاية الكالكوليت وبداية البروتولتريت وهي تطوير للرموز الكالكوليتية والنيوليتية لكن الغرض منها لم يكن دينيا بل كان تدوينيا، رغم أن معظمها استعمل دينيا في الكالكوليت والنيوليت... أي أن للكتابة جذوراً دينية وهذه الجذور الرمزية الدينية تمتد إلى الالف الثامن ق. م أي إلى بدايات النيوليت ولكنها لم تستعمل بالشكل الكتابي إلا في البروتولتريت ورغم ذلك وجدت أولى الكتابات الصورية في معابد الوركاء (شكل ٧٦).

لقد اخترع السومريون في جنوب العراق الكتابة في هذا العصر وكانت اعظم انجاز بشري ظهرت بسببه حضارات الإنسان المعروفة في العصور التاريخية وتقود شماندت بيزيرات Denise Schmandt-Besserta [٢] نظرية جديدة تؤكد الجذور النيوليتية والكالكوليتية للكتابة فهي ترى أن أول مرحلة مرت بها الكتابة كانت في ٨٥٠٠ ق. م. أي في نهاية الميزوليت، وكانت الكتابة عبارة عن رموز هندسية (geometric tokens) على الطين، وهي ترى أن هذه الرموز لم تكن تظهر على الصحون والجرار واللوحات بل كانت تظهر على (اختام كروية Bullae) كان يظن سابقاً أنها العاب أطفال (كالدعبل أو كرات الزجاج)، ولكنها اثبتت أنها اشبه

شكل (٧٤) – مشاهد ورموز الصيد والرقص ، ويظهر تمثال الالهه الام بحركة طقسية/ نقادة الأولى



شكل (٧٥) مندالا الظباء الخمس
نقادة الثانية

صور وأشكال رموز البروتولتريت (المرحلة الصورية من الكتابة في العراق القديم)

كرخ	مسحاة	جرة
محراب	سهم	جرة طويلة بمنقار
خيمة	سنان الرمح	جرة بمنقار
سور	قوس الرماية	جرة بيد
محراث	خنجر	حاوي مزدوج
عربة	وتد	طاس
زلاجة	رزمة	قدح
قارب	مجمرة	سلة مغطاة
قناة	شوكة	لوح كتابة
قيثارة	هاون ومدق	فأس بقبضة

شكل (٧٦) رموز البروتولتريت

تابع /صور وأشكال رموز البروتولتريت (المرحلة الصورية من الكتابة في العراق القديم)

حبل	كلب	رأس
سنبلة	خنزير	يد
حزمة	ظبي الشموس	ذراع
نخلة	غزال	قدم
ورقة العنب	ثعلب	سيقان
نباتات مائية	أسد	فرج
ثور	حمار	قضيب
بقرة	وزة	رجل
عجل	لقلق	جمجمة
معزى	سمكة	مذنب

شكل (٧٦) رموز البروتولتريت

بوصولات الامانة التي كانت تعلم بعلامات معينة لتدل على شراء أو بيع.

أما المرحلة الثانية فهي (٣٥٠٠- ٢٢٠٠ ق.م) فهي ظهور هذه العلامات على الاختام الكروية ذات وجه مسطح والتوسع بهذه العلامات حتى أنها شملت أشياء غير اقتصادية.

أما المرحلة الرابعة فهي (٣٢٠٠-٣١٠٠ ق.م)، حيث ظهرت هذه العلامات على الواح طينية في هيأتها الصورية - المسمارية.

إن ما يهمنا هو المرحلة الصورية البكتوغرافية Pictographic «وقد وصلتنا نماذج منها من الطبقة الرابعة من الوركاء مدونة بهذا النوع وتتضمن نصوصاً اقتصادية وجداول باسماء المواد التي كانت كافية لتؤدي الغرض المطلوب... وعثر أيضاً على لوح من الحجر عليه كتابة صورية يضم نصاً اقتصادياً من مدينة كيش (تل الاحيمر)»[٤]. وسنقتصر على الكتابة المسمارية السومرية لإنها هي الأولى والأبكر أما الكتابات التي أتت بعدها كالمصرية الهيروغليفية التي ظهرت بعدها بأكثر من (٥٠٠) سنة من مرحلتها الرمزية أي في نهايات الالف الثالث ق. م. فتدخل ضمن منجزات العصور التاريخية لأن البروتولتريت عندما بدأ في العراق كان الكالكوليت قد دخل لتوه إلى مصر وبذلك يبقى هذا الفارق الذي يشير إلى اسبقية الكتابة المسمارية على الكتابة الهيروغليفية، وربما يجد بعض المؤرخين والآثاريين تأثيرات الأولى على الثانية في النشأة والظهور.

٣- أماكن العبادة (المعابد)

رغم إن الكشوفات الحديثة في تسعينيات هذا القرن العشرين في حلف،والمناطق المجاورة لها كشفت عن معابد بدائية ذات مصاطب توحي ببداية ظهور المعابد المتعارف عليها في وادي الرافدين إلا إنه لم يتم الجزم المطلق بكونها معابد بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد تكون مزارات متطورة عن ما هو موجود في تل حسونة. إن الثولوس Tholos الحلفي ربما كان يلعب دوراً مهماً في الحياة الدينية وربما كان يمثل مراقد أو مقابر دينية من نوع ما. أو مجالس (مضايف) دينية يجتمع فيها الناس شكل
(٧٧)

إن الظهور الساطع والقوي للمعبد كان في ثقافة أريدو جنوب العراق. وبين أريدو والعبيد والوركاء وجمدت نصر شمخت اعظم المعابد السومرية وتحدد آلهتها وتكويناتها المعمارية بوضوح.

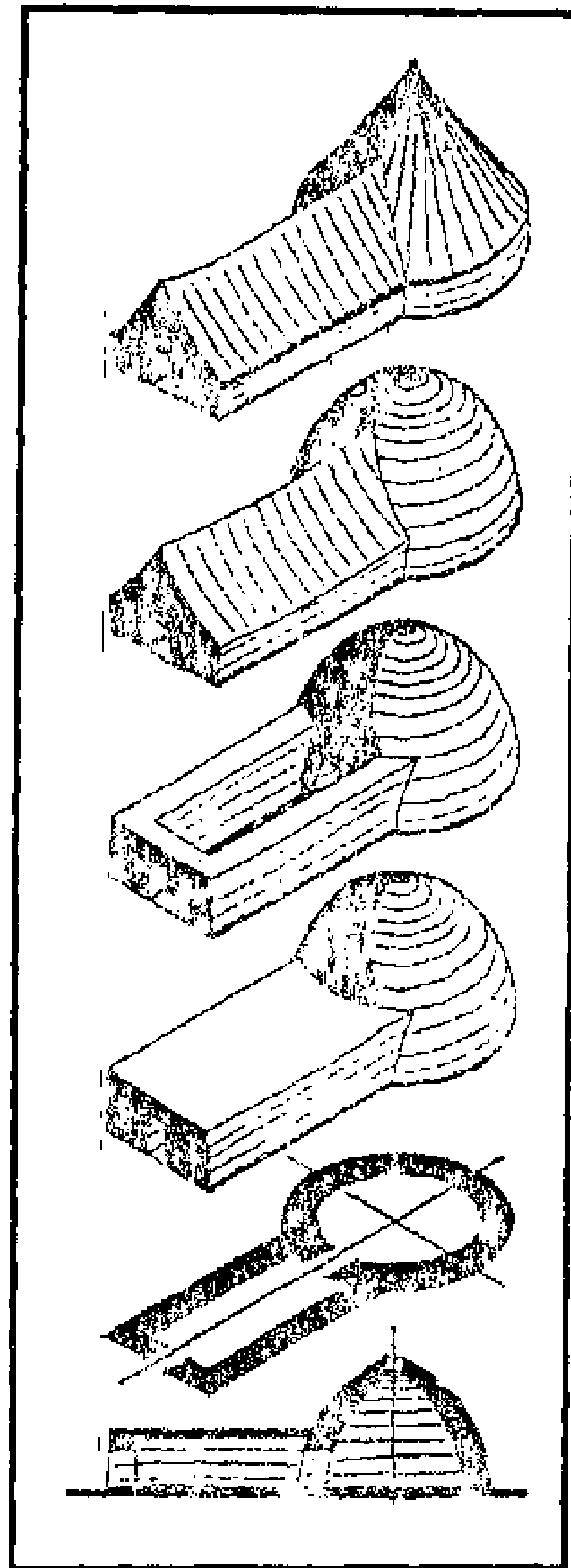
١- **معابد أريدو** : عثر في اعمق طبقات أريدو على بقايا معبد يرجع إلى (٥٠٠٠ ق.م) ونجد في هذا المعبد «عناصر من العمارة الدينية ظلت ثابتة عبر عدة الاف من السنين وخلال حضارات متعددة حتى اليوم. إذ ثمة قاعدة مستطيلة بها كتفان على الجانبين يوحيان بتقسيمها إلى منطقتين متمايزتين قدسية تتعالى كلما اتجهنا نحو الداخل، يؤيد ذلك وجود حنية تضم قاعدة مشيدة من اللبن في نهاية القاعة الداخلية هي قدس الأقداس. والغريب أن هذا التقسيم الثلاثي نفسه قد اتبع فيما بعد في الكنيسة المسيحية، يتمثل في المجاز المؤدي إلى الكنيسة، ثم المجاز العريض الأوسط، ثم الهيكل، وقد احتذي كذلك بمعبد سليمان مدخلاً وهيكلاً، وقدس أقداس» (٥).

ثم تواتر ظهور وتطور المعابد في أريدو وظهر الشكل المركب للمعبد «ذلك أن معبد الاله لم يعد غرفة بسيطة الشكل وانما غدا الآن كيانا معقداً تحتوي خلوته المركزية على منصة مذبح ومائدة للهدايا، وتقع على جوانبه غرف صغيرة، في حين تتوفر عدة مداخل لدخول المتعبدين وخروجهم» (٦). ثم ظهرت المعابد على شكل المباني، التذكارية التي يرقى إليها بمنحدرات ترابية، ثم معابد الزقورات أي المعابد ذات الابراج المدرجة، والتي ستظهر بوضوح في ثقافة الوركاء.

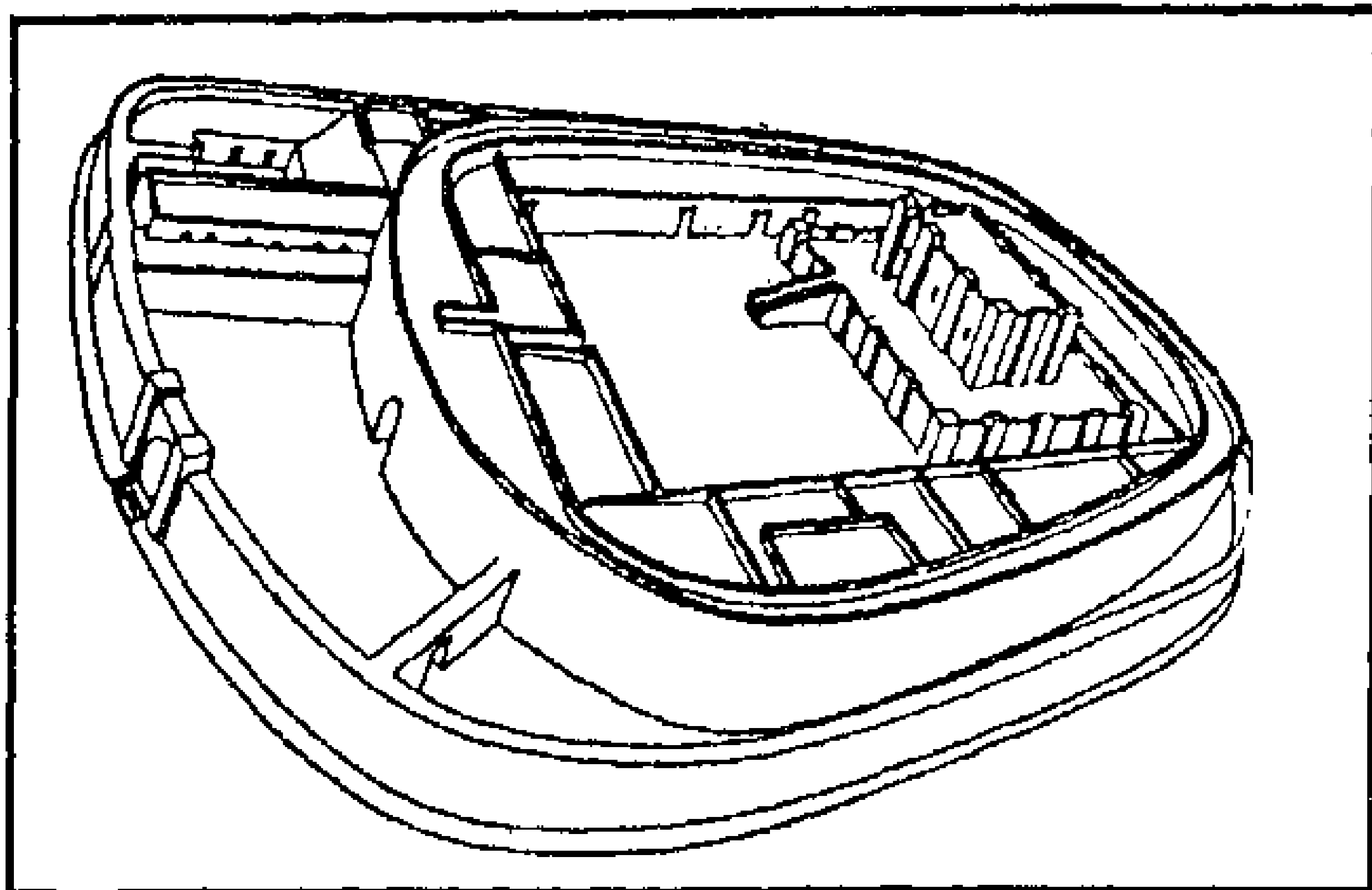
ويرجح إن الاله آنكي (إله الماء) هو الذي كان له النصيب الأكبر من معابد أريدو فقد عرفت هذه المدينة بأنها مقره وتابعة له.

٢- **معابد العبيد** : يأتي التطور اللاحق من العبيد حيث يظهر المعبد المرتفع الذي يحيط به السور الدائري ويمكن ان نطلق عليه اسم (المعبد الدائري السور) لأنه الأول من نوعه.

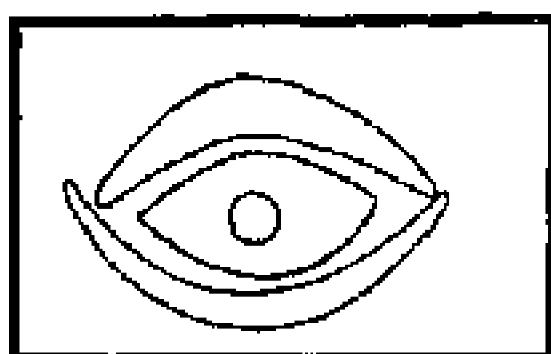
وتمتاز هذه المعابد إضافة إلى ظهور الاسوار المدورة بأنها مرتفعة وأن تركيبها الداخلي أصبح متطوراً.



شكل (٧٧): الثولوس الحلقي



شكل (٧٨) المعبد
البيضوي السور في
خفاجة للاله القمر





شكل (٧٩) تماثيل الإلهة العين ورمزها

٣- **معابد الوركاء** : من الوركاء تأتي القفزة النوعية من المعابد حيث نشاهد معبد الالهة اينين (انانا)، والذي يشبه فناؤه شكل الصليب، ونرى في ذلك اسقاطاً لاشعورياً بين الصليب الذي هو رمز الخصب وبين انانا التي هي الهة الخصب وربما كان مقصوداً لكننا لانستطيع الجزم بذلك.

ثم معبد الإله (آنو)، وهذان المعبدان مقامان على مصاطب عالية ومزينة بفسيفساء ملونة تتألف من مخاريط من الطين المشوي.

ويعد معبد العقير من أولى المعابد العالية أو الزقورات حيث يرجح أنه يعاصر في زمنه طبقة الوركاء الرابعة «وهو مقام على دكة أو امصطبة ترتفع زهاء ٤ أمتار، وزينت جدران المعبد العالي المشيد فوقها بصور جدارية ملونة جميلة قوامها اشكال آدمية رسمت على هيئة موكب، ولكنها مشوهة مع الأسف، واشكال بعض الحيوانات من بينها صورتا فهدين Leopard رابضين، يحرسان على ما يرجح أن يكون عرش اله لا يعلم من هو، وتعد هذه اقدم صورة جدارية اكتشفت لحد الآن» (٧).

ويبدو إن ثقافة الوركاء اتسعت وانتشرت في الشمال والجنوب والشرق والغرب، ونرى إن هناك معبداً في التل المسمى (قالينج اغا) قرب قلعة اربيل في شمال العراق يمثل ثقافة الوركاء أيضاً.

معابد جمدت نصر : انتشرت المعابد في هذا الدور الأخير من البروتولتريت وشاع استعمال اللبن المسمى بـ (الريمشين Riemchem) الذي كان أول ظهوره في ثقافة الوركاء وباختصار شديد يمكننا أن نذكر أهم معابد جمدت نصر:

١- المعبد البيضوي السور في خفاجة وهو مخصص لاله القمر (شكل ٧٨).

٢- معبد العقير الصغير .

٣- معبد العين في تل براك على الخابور وسمي كذلك لاحتوائه على الالاف من التماثيل الحجرية المنحوتة بزوج من العيون المحدقة وقد رأى الباحثون أنها تماثيل الالهة (العين). المضادة للحسد والشر (شكل ٧٩).

٤- زقورة الاله آنو في الوركاء.

٥- المعبد الأبيض.

وتوضح هذه المعابد اتساع تعدد الآلهة والاهتمام الكبير بأماكن عبادتها وانتشار ديانة وادي الرافدين في هذه المرحلة خارج الرافدين فقد انتشرت باتجاه إيران وباتجاه الاناضول وسوريا وجنوباً باتجاه الجزيرة، ووصلت إلى أوروبا الوسطى وقد رأينا كيف أن عناصر حضارية ودينية انتشرت باتجاه «الفرات الأعلى والخابور كما تدل على ذلك المعابد التي وجدت في تل براك وجعار بازار، ووجدت آثار جمدت نصر أيضاً في الجديدة في سهول انطاكية، وفي وادي النيل وجدت اختام اسطوانية من النوع الخاص بحضارة وادي الرافدين من العصر المسمى في تاريخ حضارة وادي النيل بدور نقادة الثاني. ونذكر كذلك القبور المشيدة على هيئة مصاطب ذات الطلعات والدخلات في جدرانها وهي الزخارف المعمارية المميزة لعمارة المعابد في حضارة وادي الرافدين»[٨]. ولن نغالي إذا قلنا أنه مع انتشار المعابد والآلهة والأختام الاسطوانية انتشر نظام ديني جديد، ودخل الدين البشري في طور جديد متنوع وشديد الدقة في تفاصيله إلا أنه يرجع في بذرته إلى أديان ما قبل التاريخ وهي في طورها العراقي الأخير (الكالكوليت والبروتولتريت)... فهنا الشرفة التي أطل منها الإنسان على مشهد التاريخ وهو يغلي بالعقائد والمثولوجيات والاديان.

٤ - اسكاتولوجيا الكالكوليت

تطورت العقائد المتعلقة بالموت مع تطور العقيدة الدينية وازدادت تفاصيلها، فإذا بدأنا من ثقافة حلف فأن ابنية الثولوس التي هي ابنية مستديرة تضاهي ابنية القبور المسينية مشيدة من الطين على هيئة خلايا النحل وأسسها من الحجارة وهناك ميل شديد لدى الباحثين أن يكون الغرض منها للسكن وليس للموت.

أما في أريدو فالمقبرة مخصصة خارج دور السكنى ومشيدة باللبن، وفي العبيد عثر في قرية (تبة كورا) على حفر دفن اعتيادية حفرت خارج المعبد ووضعت الجثث فيها ملمومة، والأطفال يقبرون في جرار أو أوان كبيرة من الفخار... ويتضح من

القبور التي عثر عليها في أريدو أن اغلبها احتوى على معدات طعام وشراب وهذا يؤكد الزعم القائل بعقيدة استمرار الحياة ما بعد الموت.

أما معتقدات الموت فإننا نرجح أن بدايات ظهور فكرة الخلود الذي يخص الالهة قد ظهرت في هذا العصر وان الإنسان مقدر عليه الموت وحصل هذا بشكل واضح في وادي الرافدين بسبب الفيضانات والكوارث والطبيعة المتقلبة، أما في وادي النيل فقد كان الميل لخلود الإنسان والتشبه بالالهة في هذا المجال يزداد. وبذلك نشأت عقيدتان اسكاتولوجيتان متعاكستان واحدة رافدينية تؤمن بموت الإنسان وخلود الالهة والثانية مصرية تؤمن بخلود الإنسان والالهة، وسيكون لهاتين العقيدتين الاثر الكبير في الفكر الديني العراقي والمصري في العصور التاريخية.

ونرى أن في هذه المسألة يكمن تفسير اهتمام العراقيين بالمقابر واعتنائهم الشديد بالمعابد، ولكن ذلك لم يمنع ظهور طقوس ما قبل الموت، وقد عثر على «مقابر خاصة بأجزاء من جسم المتوفى في حضارة العبيد الشمالية، كما كانت ظاهرة حرق الجثث ووضع الرماد في أوان موجودة أيضاً في تلك الحضارة. هذا بالإضافة إلى كثرة مدافن الأطفال في المعابد، مما يؤكد لحد كبير الاتجاه نحو تقديم أولئك الأطفال كتضحية بشرية تقرباً للالهة» (٩).

أما في مصر فقد تحول الاتجاه في الثقافة الجرزية إلى دفن الموتى باتجاه شروق الشمس وقد اوحى هذا بظهور عقيدة عبادة شمسية ظهرت ملامحها في المملكة الشمالية في مدينة (آون) التي اصبحت فيما بعد مدينة الاله الشمسي (رع). كذلك فقد شهدت ثقافة نقادة الأولى ظاهرة عدم وجود الهياكل العظمية الكاملة في المقابر بل وجود بعض اجزائها وهناك آراء تفيد بتناول الاحياء لاجساد الموتى تبركا وقدسية. أما في ثقافة بيبلوس فيلاحظ دفن الموتى في حاويات فخارية كبيرة. وتظهر في تليلات الغسول الأردنية المقابر الجماعية (حوالي ٣٠٠ شخص)، والمقابر المحفورة في الصخور أو الكهوف الطبيعية. ويرجح الباحثون أن عمليات فصل الجثث عن الرؤوس كانت تجرى ويتبعها حرق جثث الموتى ودفن الرؤوس فقط.

٥- عقائد وطقوس ومثولوجيا الكالكوليت

الآلهة : من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة (من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا)

شهد تجسيد الآلهة في النيوليت ارتماء كاملاً في احضان الطبيعة وتقليداً لها وانسجاماً مع تكوينها، لكن الكالكوليت شهد تطوراً نوعياً جديداً بدأ بتفكك وتصدع هذا الذوبان شبه الكامل في الطبيعة ولعل أول مظهر لهذا التفكك هو ظهور رموز الآلهة في ثقافة سامراء.

لقد كان (المقدس) يبدو وكأنه حالّ بل وذائب في أنسجة الطبيعة، فعندما كانت الإلهة الأم تمثل بالدمى الطينية والفخارية و الصلصالية والحجرية وتحمل هذه الدمى روح الطين وشكله وعدم انتظامه وهيوليته، وكان هذا يشير في بعض نواحيه إلى أن (المقدّس) بدا وكأنه يخرج من احضان الطبيعة ورحمها أو أنه قوة (متشكلة) من قواها.

وربما كان للنزعة التجريدية والرمزية التي بدأ يظهر فيها الاله الأب (الذكر) الاثر الكبير في بداية الفصل بين (المقدس) و (الطبيعة).

يوحي ظهور المعبد في أريدو وشكله بأنه لم يكن لاغراض جمع المتعبدين كما كانت اغراض الحرم والمصلى والمزار والمقام في الثقافات الشمالية، بل كان يدل بوضوح على أنه مكان للإله. ونظن بأن وضع مكان مركزي ومحدد للاله على الأرض كان أول عمليات انسلاخه من الطبيعة.

وبعد تفكك وانهيار ثقافة العبيد تكاثر الآلهة وتعددوا وتخصصوا، ومع هذه الخطوة قطعت صلتهم بالطبيعة (بالمعنى القديم) وصيغت لهم علاقة جديدة بها. لقد أصبح الإله (قوة تسكن الأعالي) ومن هناك كانت هذه القوة تسيطر على مجرى الطبيعة ومادتها... ولم تعد ملتحمة ومندغمة بالطبيعة وتشكل احدى صفاتها (كالخصوبة)، اصبحت الالهة اذن بعيدة... واصبحت التماثيل اشكالا تقريبية لها والمعابد امكنة لراحة الاله المتعالي البعيد عن الأرض، المعبد إذن بيت الاله وليس بيت المتعبدين (اليست هذه الصورة هي حقيقة اماكن العبادة الآن!!). ولهذا الاله خدم وحشم في بيته هم الكهنة

ورجال الدين ليس المهم أن يروه، ولكن المهم أن ينقلوا تعاليمه إلى الناس، ويأمرونهم باقامة الطقوس له، ويعتنون بصوره أو تماثيله أو حاجياته!!

لقد انتهت مع حضارة العبيد الصياغات القديمة للدين، وجاء مع السومريين (الذين أتوا بعد العبيديين) وهم مبتكرو حضارة الوركاء فهم جديد للدين والالهة والمعبد. فالدين هو علاقة الإنسان بالاله ... وليس الطقوس فقط أي أنه عقيدة والإله قوة منفصلة عن الطبيعة ومسيطرة عليها في آن... تديرها من الأعالي، ولهذا الاله أحداث وقصص وبطولات ومعجزات أمكن صياغتها في الأساطير، والمعبد هو المكان الذي يحل فيه الاله على الأرض إنه مزار الهي (وليس بشرياً) على الأرض.

في ثقافة الوركاء استقرت عمارة المعابد في شكل زقورات أي معابد مدّرجة مبنية من ثلاثة طوابق يصل بينها سلم يؤدي إلى القمة حيث يتواجد المعبد، وهو عبارة عن حجرة مستطيلة الشكل ملحق بها بعض الغرف الجانبية، وقد اختلف المختصون حول ارتفاعها ومدرجاتها وساد الرأي الذي يقول بأنها تنتمي في أصلها للاله (آن) اله السماء، لما يستوجب ضرورة الارتفاع بمنزل الاله إلى مستوى أعلى من سطح الأرض حتى يتناسب مع عبادة ذلك الاله السماوي، بمعنى أن يكون قريباً منه.

لقد كان الاله أو المقدس قوة حالّة في أشياء الطبيعة وملتحمة بها كالنار والحيوان والأنثى والهواء والماء، لكن انفصاله عن مظاهره جعل منه جوهراً متعالياً، وهذّب من ماديته نحو مثالية واضحة، وكانت هذه الخطوة أساسية في وضع فهم جديد للدين بأكمله.

من الثالوث إلى التعدد

بظهور ثالوثات متعددة ظهر التعدد Polythesim، وقد لا يكون ظهور تلك الثالوثات منتظماً وفق الشكل الذي تحدثنا عنه، ولكننا نرى أن التوحيد الأنثوي القديم استنفد أغراضه الدينية ولم يعد صيغة تناسب التطور الروحي للإنسان فكان لابد من ظهور الثنائية الإلهيه أولا (Dithesim) وهي أنثوية ذكرية أولاً ثم ظهور الثالوث (الأم والاب والابن) وهي ثلاثية اقنومية (Trithesim) كانت صدى لظهور العائلة بشكل

مستقر وواضح، ثم ظهر التعدد الذي هو صدى لظهور مجتمع المدينة المتعدد الاتجاهات والميول والطبقات.

إن التوحيد الأنثوي القديم (Monotheism) كان في بدايته ثورة روحية على عبادة واديان الباليوليت والميزوليت، وكانت الثنوية الأنثوية الذكرية ثورة على تلك البدايات البسيطة للتوحيد وكان الثالوث ورسوخه ثورة اخرى اعطت سعة في التصور الروحي، أما التعدد فإني اعده ثورة حقيقية دينية في وقتها لان التعدد عمل على التصعيد الميتافيزيقي لفكرة الاله أولا ثم عمل على اثراء الدين من آلهة عديدين مختلفين جلب كل واحد منهم إرثاً وعقائد وطقوساً ومثولوجيات خاصة به، وتمازج إرث الالهة كلهم في بوتقة التعدد الذي أحال فيما بعد هذا الارث كله إلى فكرة الاله الواحد الاحد (التوحيد) الذي اكتنز وأثري من كل هذه الينابيع.

لم يكن هناك مهرب من أن يكون الاله الذكري الأول في جنوب العراق إلها للماء أو السماء لأن عناصر الماء والهواء والسماء كانت قد اكتملت وعبر عنها باله ذكر أزاء إلهة أرضية نائمة تمثل الأرض. إننا نرجح أن اله الهواء ظهر أولاً في النيوليت الشمالي واله الماء ظهر في ثقافة أريدو والعبيد ثم ظهر إله السماء في الوركاء، وهكذا كسر الثالوث القديم (الأم والاب والابن) وظهر ثالوث ذكري صرف يفتح الافق للتعدد، وظهر بعده مباشرة ثالوث آخر مكون من (اله القمر- نانا -، اله الشمس- اوتو-، الهة الزهرة- انانا-) وكان لهذا الثالوث الكوكبي أثره في تكريس فكرة الانفصال الميتافيزيقي للاله.

وإذا كانت الطبيعة هي الحاضنة الأولى للالهة فان انفصال الالهة عنها مهد بعد ذلك لظهور آلهة لاعلاقة لهم بالطبيعة بل كانوا صدى للافكار والحاجات الجديدة مثل الهة الكتابة، وإله الأمراض وإله الطب واله الصناعة وغير ذلك. إن مسيرة العقل البشري لا تمر بطرق مستقيمة، بل بطرق نلمح فيها التكرار والتماثل والتشابه وتتحاضن فيها الأفكار القديمة والجديدة بطريقة غير متوقعة احياناً فالجديد لايمحو القديم كلياً، بل يتصاعد به ويظهر القديم بوجود الجديد باشكال عديدة وجديدة.

إن دليلنا على أن الثالوث مرحلة سبقت التعدد هو أن نظام الالهة السومري

ثم البابلي المتعدد يتضمن في داخله ثالوثات كثيرة مازالت تشير إلى أصلها المجتمع الواحد. كذلك نرى أن هناك بعض المفكرين قد أشاروا إلى التوحيد القديم ومنهم (شميدت) الذي ذهب إلى أن «المرحلة الدينية قد سبقت المرحلة السحرية في الجماعات البشرية ويستمد من الدراسات الانثروبولوجية ادلة لتدعيم وجهة نظره التطورية فهو يؤمن أن ديانة التوحيد البدائي والاله الأسمى هي الديانة التي كانت سائدة في فجر المجتمعات الإنسانية الاولية وان الطقوس السحرية جاءت مسخاً وتشويها لتلك الديانة الفطرية التي عرفت عند اقزام اواسط أفريقيا وعند الفيجيين وقبائل اندمانيز في آسيا الجنوبية» [١٠]، ويبدو أن شميدت لم يكن يعني مطلقاً ذلك التوحيد النيوليتي الأنثوي، بل كان منطلقاً من نبرة توحيدية دينية معاصرة فقط. إننا عندما نحور نظرية شميدت ونقول بأن هذا التوحيد يشير إلى عبادة الالهة الأم الكبرى نكون قد قبلنا بهذه النظرية.

أما التعدد فإننا لانشك مطلقاً أن ظهور المجتمع الطبقي والحياة السياسية في جنوب العراق كان لها الأثر الكبير في ظهور هذا التعدد الالهي، فقد انعكست هذه الصورة الاجتماعية على مجمع الالهة من ناحية الاختصاصات والوظائف. وصحيح ان العراقي وضع آلهته في السماء بشكل دائم وعلى الأرض (في المعابد) بشكل مؤقت إلا أن هذه الآلهة لم تتميز كثيراً عن الإنسان إلاّ في قدسيتها وفي خلودها، فقد ظهرت الالهة منذ النيوليت باشكال تشبه الإنسان شكلاً وكذلك في الكالكوليت وبعد حصول الانقلاب الذكوري ثم الانقلاب الاقنومي ثم الانقلاب التعددي وهي انقلابات متسارعة ظهرت فيه اشكال الآلهة شبيهة بالإنسان مع بعض المبالغة في أشكال بعض الأعضاء كالعيون والآذان.

والآلهة يتزوجون ويتناسلون ويحبون ويكرهون ويأكلون ويشربون ويتحاربون، فمبدأ التشبيه بالإنسان (Anthropomorphism) كان قائما في هذه الأديان رغم أن هناك خصوصيات الهية واضحة.

لقد شكل الآلهة دولة أو مدينة الكون، يرى جاكوبسن بأن الاسباب التي حدت بالعراقي القديم إلى أن يقول بأن الكون يشبه الدولة هو تصوره عن الكون الذي لم يكن فارغاً أو جامداً، بل مشحوناً بالحياة بسبب وجود الآلهة في كل جزء منه أو سيطرته عليه، وانه كان يجابه أي ظاهرة من طواهر الطبيعة في أية لحظة كشخص لشخص (إنسان لإله) وهكذا تكون ظواهر الطبيعة وكأنها ظواهر اجتماعية يسودها نظام محدد، أي أن الكون كان يبدو كدولة (١١).

الديانة الشمسية

إذا كنا قد وصفنا ديانة النيوليت بالقمرية الأنثوية فيمكننا وصف ديانة الكالكوليت بالشمسية الذكرية، فقد اقترنت الشمس بالذكر لاشتراك صفات كثيرة بينهما مثل النهار والعمل والثبات والقوة، لقد كانت الإلهة الأم هي السائدة وكان الإله الذكر يظهر عرضاً، وكانت هذه الأم واحدة للبشر والكون ولكن عبادتها بهذه الصيغة تحولت إلى عبادة سرّية بعد الانقلاب الذكوري وسيادة الديانة للشمسية والرموز الذكرية، فقد تم تدمير صورة الأم الكبرى ورموزها وقامت الديانة الشمسية ببناء مادتها على انقاض الديانة القمرية وأخذ الآلهة الشمسيون يأخذون صفات ومواقع الالهة القمرية القديمة.

إن الالهة الأم السومرية (نمّو) والبابلية (تيامت) وضعتا في الهامش، وقتلت تيامت في الاسطورة البابلية بشاعة من قبل الاله الشمسي (مردوخ) ومثّل بها ونسب لها كل الشرور والشياطين والأمراض... ومن دم احد اتباعها صنع الإنسان الخادم والعبد والشرير أيضاً.

إننا نستطيع اعادة قراءة جميع الاساطير السومرية والبابلية وفق منهج التصادم والتصفية بين رموز العقيدتين القمرية والشمسية، ولكي نتابع تصفية الالهة الأم لما قبل التاريخ فإننا سنرى أن هذه الأم الكبرى بقيت فاعلة وقوية في واحدة من صورها في شكل (انانا) العاهرة اللعوب والتي مثلت كوكب الزهرة وألحقت بالثالوث الشمسي (الشمس، القمر، الزهرة)، وإذا اعدنا قراءة اسطورة نزول انانا للعالم الأسفل نلمح الحضور القمري والشمسي معاً فالروح القمري الأنثوي مازال حاضراً في إقدام انانا على

غزو العالم الأسفل وإحياء الأموات، والروح الشمسي يكمن في سجنها وموتها هناك. وملاحم مثل جلجامش تخفي مثل هذا الصدام بين العقيدتين، وكذلك اساطير الطوفان والنواميس وغيرها، من الاساطير التي تكمن جذورها في الكالكوليت الجنوبي، وسيصل الانقلاب الذكوري الشمسي ذروته عندما نصل إلى الأسطورة العبرية حول آدم وحواء، عندما تصبح حواء مجرد ضلع في جسد آدم.

ونحن نرجّح ان طقوس الاسرار والديانات السرية بدأت تحديداً مع الانقلاب الشمسي في العقائد، فقد انزوت الديانات القمرية تحت اللهب المنفلت للديانات الشمسية وأصبحت وكأنها تمارس في الخفاء. واصبح الظلام مرادفاً للديانة القمرية السرية وترافق هذا مع عزلتها وباطنيتها.

ويتناسب هذا الفهم مع العصر المعدني فقد فتحت الأرض مناجمها للإنسان، ورأى الإنسان الكهوف في أعماق الأرض وليس في أعماق الجبال فقط وقد كانت هذه المرة مليئة بالمعادن القوية المتلألئه تحت الشمس فشمل هذا ظهور عقائد سرّية مدفونه باطنية ينزل إليها الإنسان في نشواته الروحية الخاصة، وبعيداً عن الرقابة السطحية الذكورية الشمسية لقد كان لفعل استعمال المعادن وتطويعها نتائج دينية مهمة كما يقول مؤرخ الاديان مرسيا الياد «فالى جانب القداسة السماوية المنبعثة من النيازك، اصبحنا الآن بحضور القداسة الأرضية التي تتوازعها المناجم والمعادن فالمعادن تنبت في جوف الأرض والمغاور والمناجم مشبهة برحم الأرض الأم والمعادن المستخرجة من المناجم هي بنوع ما (أجنة). إنها تنمو ببطء كما لو كانت تخضع لايقاع زمني آخر غير ما لحياة الاعضاء النباتية والحيوانية- إنها على الأقل لا تنمو، إنها تنضج في الظلمات الأرضية وأن استخرجها من جوف الأرض الأم هو إذن عملية مبتكرة قبل أوانها، ولو ترك لها الوقت لتنمو أي الايقاع الجيولوجي للزمن فإن المعادن ستصبح ناضجة كاملة. إن المعدنيين – عمال المناجم – في أي مكان في العالم اخترعوا شعائر تحمل حالة من الطهارة : صيام، تأمل، صلوات وأعمال طقوسية» (١٢).

لو لاحظنا كلمة حديد في اللغة السومرية لوجدنا فيها ما يوضح لنا اتحاد عنصري النار والسماء (الشمس والسماء) فهي انبار AN-BAR وآن هي السماء، وبار هي النار، وكلمة ببار تعني الشمس، وإذا كانت السماء قد دخلت في مطلع الديانة

الكالكوليتية فإن النار بمعناها الشمسي هنا عبرت عن تركيبة كلمة الحديد.

وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فإننا سنلمح الصليب المعقوف (السواستيكا) يعبر بشكل طاغ عن الأنوثة الإلهية المتحركة. ونرى أن السواستيكا احتجبت في الثقافات الجنوبية العراقية الكالكوليتية وظهر مكانها بكثرة رمز الصليب بمختلف اشكاله الذي عبر عن الاله الذكر هذه المرة أكثر من الالهة الانثى ويتضح هذا كلما اقتربنا من اختراع رموز الكتابة في نهاية الكالكوليت فقد كتب اسم الشمس بالعلامة المسمارية بار BAR وهي علامة تشبه الصليب وذلك على الواح الوركاء من الطبقة الرابعة (أ) ثم مالبثت هذه العلامة أن احيطت بقدسية خاصة في عصر جمدت نصر عندما تصاعدت العبادة الشمسية بقوة.

لقد شمل الانقلاب الشمسي أن حل الاله الذكري محل الالهة في دراما الخصب والاحتفالات الشعائرية وسيشمل ذلك التضحية بالالهة أو الاله فالديانات الشمسية المنحى كانت تضحي بالالهة من أجل استمرار دورات الخصب، أما الديانات القمرية المنحي فكانت تضحي بالاله، وتعطي الديانة المسيحية مثالا جيداً لهذه الأخيرة حيث يضحى بيسوع من أجل الخلاص (الذي هو بديل رمزي للخصب).

ويعد البحث في الصراع بين العناصر القمرية والشمسية في الديانات والعقائد واحداً من امتع البحوث لما ينطوي عليه من كشف مثير للحقائق المستورة والمخفية.

مثولوجيا ورموز الكالكوليت

في الكالكوليت حدث انقلاب مهم جداً في المثولوجيا النيوليتية التي كان مركزها الالهة الأم، وعقيدة الخصب، فقد تم الاطاحة والتدمير والتهميش لكل أشكال الالهة الأم، وأصبح دورها هامشياً قياساً للاله الذكر، ونرجح أن لجميع الاساطير السومرية والبابلية والكنعانية، والمصرية طبقتين : الأولى كالكوليتية تزخر بظهور الابطال الذكور، والثانية نيوليتية مدفونة نستطيع أن نتلمس من بقاياها وآثارها ما كانت عليه تلك الأساطير في حقيقتها. وبعبارة أخرى نستطيع القول إن الميثوس النيوليتي كان انثويا قمرياً فتحول إلى ميث كالكوليتي شفاهي ذكري شمسي وتحول هذا فيما بعد إلى نظام أسطوري مكتوب باللغة السومرية أولاً.

أما الرموز فقد رأينا كيف أنها بدأت تميل نحو الذكر والشمس والكواكب وانحسر رمز السواستيكا* الأنثوي، وظهر بطيغان رمز الصليب الشمسي الذكري وانتعشت مرحلة جديدة من الرموز مع بدء ظهور السومريين في الوركاء وجمدت نصر فكانت الأشكال الجميلة المعبرة التي ترمز لكل اله (وهي ليست صور ورسوم الاله بالطبع بل رموزه) ثم أصبح لكل اله رمز حيواني يعبر عنه، وتعد هذه النقلة في الأشكال الرمزية جوهرية وكبيرة انتقلت معها الأساطير بالمقابل إلى مستوى جديد ومتطور.

الطقوس والأعياد الدينية للمدينة

لا نستطيع حصر الزمن الذي ظهرت فيه الطقوس التي مارسها الإنسان في الباليوليت لأول مرة، ولكننا يمكن أن نشير بشيء من التميز إلى طقوس دينية جديدة، ظهرت مع النيوليت وهي (طقوس عبادة الالهة الأم، طقس المصارعة الديني، طقس الزواج المقدس، طقس الاستسقاء). ويدور جوهر هذه الطقوس حول سيادة الالهة الأم وقيامها، عن طريق المباريات الطقوسية الدينية للمصارعة باختيار زوج أو رفيق لها تقيم معه طقس الزواج المقدس، أما طقس الاستسقاء فقد شرحنا حصوله في المناطق المتذبذبة الامطار مثل سامراء.

ومع حلول الكالكوليت انقلبت الوظائف الأساسية لهذه الطقوس والالهة الأم وشاركها الاله الرجل بل وتنحت عن مركز العبادة والطقوس، وتحول طقس المصارعة إلى رياضة عادية بعد أن كان دينيا، وأصبح الرجل/ الكاهن/ الملك هو الذي يختار إمرأة من طبقة الكاهنات العليا كزوجة أو ضجيعة له وتجرى الاحتفالات المباركة له وتتعدد هذه الشعيرة كل عام مع حلول فصل الربيع بينما كانت المرأة هي المركز والرجال يتعددون، أما طقس الاستسقاء فقد تفكك إلى مجموعة رقصات ريفية أو بدوية دنيوية مازالت حركاتها باقية إلى يومنا هذا في رقصات الغجر أو البدو وتدلنا عليها في الماضي نقوش الرقص في أواني الخزف.

إن الحضور الكبير للإله الذكر وللكاهن الملك كان ببساطة احدى ثمرات ظهور رجل التعدين في الكالكوليت «إن رجل التعدين، مثله مثل الحداد، ومثل ما قبله الخزاف، وهو (سيد النار). فهو عن طريق النار يهيء مرور المادة من حالة لأخرى...

وهذا هو السبب الذي من أجله كان السباكون والحدادون في المجتمعات القديمة مشهورين بكونهم (معلمي النيران Lesmaitres de Fier) وانهم إلى جانب الشامان، أطباء وسحرة، إلا أن الصفة المتساوية الحدين للمعدن المثقلة بقوى هي في آن واحد مقدسة وشيطانية وقد نقلت إلى المعدنيين والحدادين: فهؤلاء كانوا يقدرون عالياً، ولكنهم موضع خوف، متجنبين أو حتى محتقرين»(١٣).

وتختلف اعياد المدن عن أعياد القرى بتركيب طقوسها وتكريسها الواضح للاله الموجود في تلك المدينة ولملكها أيضاً. وكانت اعياد المدينة تستمر لأكثر من يوم، وكان اعداد المشاركين في القرى والمدن الصغيرة محدوداً. أما اعياد المدن الدينية الرسمية فيحضرها كل سكان المدن لكن عدد المشاركين في فعاليات الاحتفال «يقتصر على الكهنة وفي المهمة منها يتوجب حضور الملك أيضاً ونادراً أن تشترك فيها شخصيات اخرى عدا الكهنة والملك، أما مجموع السكان فهم يمثلون المشاهدين، وكان عددهم يشمل سكان المناطق المجاورة، والمدن البعيدة أيضاً، ومما لا شك فيه أن حضور عدد كبير لمشاهدة هذه الاعياد يشير إلى أنها كانت تتضمن مغريات تدفع الناس إلى حضورها كالمواكب المهيبة وموكب الملك»(١٤).

إن اعياد المدينة تضمنت في الكالكوليت أنواعاً مختلفة من الاعياد لم يكن جميعها دينيا فقد كانت اعياد المناسبات كبناء القصر أو النصر، دنيوية وكان بناء المعبد مناسبة دينية بلا شك. وكانت هذه الاعياد غير دورية بل تخص مناسبتها، أما الأعياد الدورية مثل عيد رأس السنة الذي اصبح يسمى بالسومرية (زاموء) Zamua أو (زكمك) عيدا دينياً وعيد الاكيتو كذلك والعيد الكبير (ايزنماخ Ezenamah) (١٥) إن أغلب هذه الاعياد الدورية كانت اعياداً طقوسية دينية شاملة تضم في تفاصيلها أغلب الطقوس الدينية الجماعية.

وتشكل الأعياد من وجهة نظرنا الرحم الذي خرجت منه الاحتفالات الدرامية للعالم القديم بأكمله... وهي في نفس الوقت الرحم الذي ترعرعت فيه الطقوس الدينية الجماعية وساهمت في بناء واعادة صياغة الكثير من الاساطير والعقائد الدينية القديمة.

هوامش ومراجع

١- رايلي ، كافين : الغرب والعالم، عالم المعرفة (٩٠)، ص ص ٦١.٦٢.

٢- الدباغ، د. تقي والجادر، د. وليد : عصور قبل التاريخ مطبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٣، ص ١٥٩.

3-Besserat, Denis schmandt : An Archiac recording System and the origin of writ-- ing. Syro-mesopotamian studies (Monographic Journals of the Near East)Vol.1 july 1977.

٤- إسماعيل، د. بهجة خليل : الكتابة - الفصل السابع من كتاب حضارة العراق جـ١ بغداد ١٩٧٥ ص ٢٢٣.

٥- عكاشة ، د. ثروت : الفن العراقي (سومر وبابل وآسور)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ١٤٧.

وتستأثر معابد أريدو بأهمية خاصة لما لها من أهمية في نشوء أول معابد على الأرض وعددها سبعة معابد لما قبل التاريخ يراجع بذلك كتاب أريدوالصادر باللغة الإنجليزية.

Fuad safar, mustafa M. A, Seton Lioyd : ERIDU state organization of intiquites and Heritage, Baghdad 1981.

٦- بارو، اندري : سومر فنونها وحضارتها، ترجمة وتعليق د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد ١٩٧٧ ص ١٠٢.

٧- باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ١. دار البيان بغداد، دار الثقافة بيروت، ١٩٧٣ ص ٢٣٧.

٨- المرجع السابق ص ٢٤٦.

٩- الناضوري ، د. رشيد : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٦، ص ٤٨.

١٠- الخشاب ، أحمد : الاجتماع الديني ، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ص ١٦.

١١- الطعان ، د. عبدالرضا : الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر بغداد، ١٩٨١. ص ٣٦٥.

١٢- الياد، مرسيا : تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية جـ١. ترجمة عبد الهادي عباس دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٦، ص ٧٢.

١٣ - المرجع السابق ص ٧٣.

١٤- النعيمي : راجحه خضر عباس : الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، رسالة ماجستير، كلية الآداب قسم الآثار ١٩٧٦، ص ٢٩.

١٥- المرجع السابق ص ٤٣.



أديان ومعتقدات

ما قبل التاريخ

لم تكن عبارة الشاعر الفرنسي سان جون بيرس الواردة في عمله الشعري الكبير (ضيقة هي المراكب) والتي تقول: (لا تاريخ إلا تاريخ الروح) عبارة عابرة أو جملة في فضاء لغوي متخاتل، بل هي من نمط الشطحات الصوفية التي تختزل في أعماقها برقاً معرفياً صاعقاً.

تناول هذا الكتاب عقائد وأديان العصور الحجرية بكافة مراحلها (السحيقة، القديمة، الوسيطة، الحديثة، المعدنية) وهو إذ يحاول تتبع ذلك الخيط الذي يربطها فإنه إنما يمهد بذلك لإضاءة الشبكة الروحية التي ستبدأ مع بدء العصور التاريخية بأديان سومر ومصر أولاً ثم أديان الشرق الأدنى، والأقصى، وصولاً إلى اليونان والرومان وأديان أمريكا القديمة ثم الديانات الشمولية (اليهودية والمسيحية والإسلام) والأديان البدائية المعاصرة.